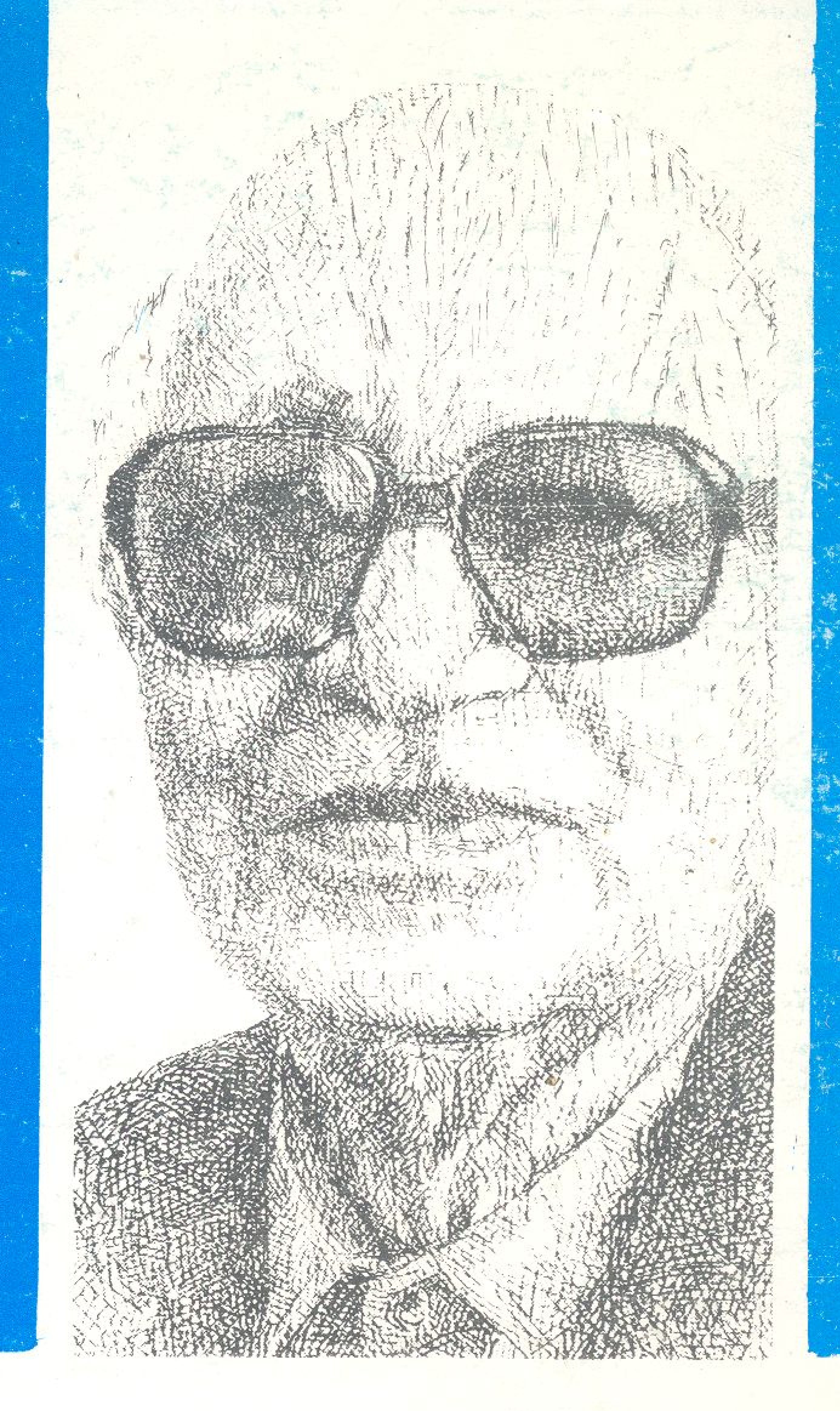


دكتور
حسين مؤنس

غريب في وطني



دار المعارف



دكتور حسين مؤنس

غريب في وطني

إعداد دكتورة / منى حسين مؤنس

تقديم رجب البنا



دار المعارف

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

تتلمذت على الدكتور حسين مؤنس دون أن يدرى..!

ونسج القدر خيوط علاقتى به..

وكانت البداية عن طريق أستاذ كبير هو الدكتور عبد العزيز كامل، وكان نائبًا لرئيس الوزراء ووزيرًا للأوقاف، وكنت صحفيًا فى الأهرام مسؤولاً عن متابعة نشاط الوزارة، وكان طبيعيًا أن تتكرر اللقاءات بيننا يوميًا، وتطورت العلاقة إلى أن أصبحت صداقة شخصية، وكانت أجمل لحظاتى حين يفرغ الدكتور عبد العزيز كامل من أعمال الوزارة، وأجلس معه فى هدوء أستمع إلى علمه الغزير.. وكنت أجد متعة فى الحوار مع عقلية كبيرة ومتميزة مثل عقلية هذا الرجل الذى لن أنساه أبداً.. وكان الحوار يمتد من الجغرافيا وكان أحد علمائها القلائل فى العالم العربى، إلى التاريخ القديم والحديث، وإلى قضايا الدين والمجتمع وتعلمت من الدكتور عبد العزيز كامل الكثير.. فقد كان يمثل بالنسبة لى نموذجًا للعالم المتواضع الذى جعله الإيمان أقرب إلى روح التصوف، مع اعتماده على العقل والمنطق فى تفسير القرآن والحديث، ومع دقته الشديدة فى التعبير وتحوطه فى إصدار الأحكام..

وكان الدكتور عبد العزيز كامل صديقًا للدكتور حسين مؤنس، ولذلك كان يتحدث عنه معى كثيرًا، ويشير إلى آرائه ومؤلفاته، ولمست كيف تقوم الصداقة بين العلماء وكبار المفكرين على الاحترام المتبادل، وعلى حوار فكرى عميق مستمر يكشف عمق المعرفة لديهما، والتعاون فى البحث عن الحقيقة فى ذاتها دون غرور، أو ادعاء، أو انشغال بمن منهما اكتشفها قبل الآخر، أو أى منهما كان على صواب، فالمهم أن يصل الجدل إلى غايته المنشودة وهى الوصول إلى الحقيقة والصواب..

ورأيت عن قرب كيف يكون التعاون بين الكبار، وكلاهمـا كـان زاهـدًا، ومنقطعًا للعلم والفكر، ولا يريد مـن الدنيـا ومـن فيـها شيئا يضطره إلى الخضوع أو التملق..

وأثارتني أحاديث الدكتـور عبد العزيـز كـامل عـن الدكتـور حسين مؤنس فأخذت أبحث عن كتبه وأقرأها وأناقش الدكتـور عبد العزيـز كامل فيما جاء فيها.. وفتحت لى هذه الكتب عالمًا رحبًا أطل منـه على التاريخ والحضارة الإسلامية..

وحين التقيت بـالدكتور حسين مؤنس بعد ذلك بسنوات كرئيس لمجلس إدارة دار المعارف التـى تنشر مؤلفاتـه، ورئيسًا لتحرير مجلة أكتوبر التى ظل ينشر فيها مقالاً أسبوعيًا بانتظام لسنوات طويلة، وكانت دهشتنا نحن الاثنين أن أول لقـاء بـدا وكأنـه استكمال للقاءات سابقة، فبدأنا فـى مناقشة طالت عـن بعض أفكاره وكتبه ومواقفه، وبعدها ظللت انتظر مقاله وأنا فى عجب من هذا المفكر الكبير الذى تجاوز السبعين والمشغول بأبحاثه ومؤلفاته ومؤتمراته وأسفاره فى مهام علمية، كيف يجد وقتا لكتابة مقاله بانتظام وعناية بالغة، وكيف يستطيع من كان مثله غارقًا فى الكتب والأسفار القديمة أن يظل بمثل هذه اليقظة الفكرية، والحساسية فى رصد الظواهر الاجتماعية بما يطرأ عليها من تغير..

وفى رأيى أن شخصية الدكتور حسين مؤنس كباحث وأستاذ تختلف عن شخصيته ككاتب مقال سياسى واجتماعى فـى مجلة أكتوبر، فهو بالشخصية الأولى عـالم، مدقق، منقطع الصلة بالحاضر تقريبًا، وهو بالشخصية الثانية مفكر وناقد وأديب غارق فى هموم المجتمع، ومعايش للناس العاديين فى الحارة والقرية والمدينة، يشعر بمشاعرهم، ويشاركهم همومهم وأحلامهم، ويرصد شكواهم وتطلعاتهم، ويجعل قلمه صوتًا للحق لا يحيد، ولا يجامل، ولا ينافق..

وفى مناخ الحرية الذى تحقق للصحافة المصرية، أطلق الدكتور حسين مؤنس لقلمه العنان، فلم يعد يحاذر، أو يكتفى بالإشارة والتلميح، فأصبح صريحا إلى درجة جارحة فى بعض الأحيان، وناقدًا إلى درجة الهجوم، وكاشفًا لما فى المجتمع من مشكلات وعيوب دون مواربة، ثم امتدت صراحته إلى الحديث عن نفسه وذكرياته، فقال كل شىء حتى عن خصوصياته وأسراره الشخصية، وأصبح بذلك نموذجًا للكاتب الذى لا يخشى شيئًا، ولا يتردد فى قول الكلمة والتعبير عن رأيه كما يراه دون اعتبار لصدى ما يقول وكان من حين لآخر يسألنى: هل أسبب لك حرجًا بهذه الصراحة، فأقول له: بل أننى سعيد بها.. فهذا هو وقت الكلمة الصريحة.. ولعنة الله على من يكتم كلمة الحق..

ورحل الدكتور حسين مؤنس وقد ترك ثروة لم يحتمل ضميرى إهمالها أو تجاهلها، وتوافق تفكيرى فى جمعها مع رغبة ابنته البارة الدكتورة منى حسين مؤنس أستاذ الأدب الإنجليزى بآداب القاهرة، وفيها من صفاته الكثير.. صفات المقاتل العنيد.. والمحارب من أجل ما يعتقد.. والزهد فى الأضواء والشهرة.. وفى دأب وإخلاص شديدين قامت بجمع هذه المقالات فى سلسلة كتب أقدمها للقارئ العربى فخورًا بأن تكون ضمن إصدارات دار المعارف التى ارتبط بها وجدان أستاذنا منذ أكثر من نصف قرن حتى أصبحت بيته وله فيها تلاميذ ومريدون يعرفون قدره، ويحملون رسالته، ويحرصون على إحياء ذكراه.

ولا أعرف كيف ساقنى القدر إلى يوم أرد فيه لأستاذى فيه بعض الدين الذى على، وأعبر به عن عرفانى بالجميل والتقدير لذكرى رجل من رجال مصر العظام..

وأترك للقارئ الكريم أن يستمتع بما فى هذا الكتاب من تجليات الفكر العميق، والتفكير الناضج، والروح الشابة لرجل عاش حياته

بالطول والعرض كما يقول، وسافر إلى أركان الدنيا، وتعرف على ألوان مختلفة من الثقافات والبشر.. وتولى أعلى المناصب العلمية.. وحصل على أرفع الأوسمة من مصر وغيرها، ومع ذلك ظل فى داخله مصريًا حميمًا، و «ابن بلد» لا يتردد فى ذكر النكتة، و «القفشة».. ويتبسط مع قارئه وكأنهما صديقان فى جلسة صافية مسترخية.. ولذلك جاءت هذه المقالات أقرب إلى «أحاديث الأصدقاء».. وجاء الأسلوب فيها متميزا وفريدا، سهلا وعميقا فى نفس الوقت. يختلف كل الاختلاف عن أسلوب الدكتور حسين مؤنس فى مؤلفاته العلمية..

وأرجو أن تكون هذه السلسلة من الكتب التى تصدر بعد رحيله وردة على قبره.. وتحية لذكراه

رجب البنا

(١)

تعالوا نجدد فيما بيننا حلف الفُضُول*

نحن نجتاز اليوم أزمة فى السلوك. وقد شاع التراخى وساد التهاون واجترأ أهل الفساد على القانون. وقد نشأت هذه الأزمة عن أننا لم نتعود بعد حياة الحرية والعدالة التى نعيشها اليوم.

ولكن أهل الفضل والخير والشرف والقانون كثيرون، وهم أكثر بمراحل من المفسدين ولو تعاقدوا وتعاهدوا لاستطاعوا عمل الكثير.

وقبيل البعثة المحمدية ساد مثل هذا الجو فى مكة فاجتمع ناس من أهل الفضل والخير وعقدوا فيما بينهم حلف الفضول. وهو ميثاق شرف.

وقد شهد رسول الله ﷺ هذا الحلف وأعجب به وقال إنه لو دعى إلى مثله بعد الإسلام لأجاب..

فماذا لا يتعاقد أهل الفضل والشرف والأصول منا ويتعاهدون على تجديد ميثاق الشرف أو حلف الفضول.

فى الفرنسية تعبير جاء على الألسن يعتبرونه أساسًا من أسس السلوك الإنسانى يقول: نوبليس أوبليج، ومعناه أن الشرف ملزم (بكسر الزاى) ومكلف فالشريف لابد له من أن يتحمل تكاليف شرفه لأن الشرف أو السؤدد ليس مجرد كلمة بل هما سيادة وللسيادة تكاليف والتزامات وتضحيات يتحملها صاحب الشرف دون تردد أو تكلف لأن هذا هو يمن السيادة والشرف ملزم نوبليس أوبليج..

ومن القواعد التى سار عليها العرب جاهليين وإسلاميين أن الرياسة تضحية وليست مغنما وأن الرجل الذى يتصدى للرياسة ويطلب السؤدد ينبغى أن يدفع تكاليف ذلك عن نفس راضية فإذا هو قصر فى ذلك لم

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢١ يونية ١٩٨١م.

يكن بأهل للرياسة أو السؤدد. وكان عليه أن يتخلى عما طلب لغيره ممن يستطيع القيام بمطالب الشرف..

و «النوبليس» في العربية هو الشرف، والشرف فى كل شىء هو الارتفاع عن المستوى العادى، فالشرف من الأرض ما ارتفع منها عما حوله فأشرف عليه، والشرف فى الخلق هو الترفع عن الدنايا والصغائر والجود بالمال لمن يحتاج إليه دون تكلف أو سؤال، والتصرف فى كرم وعزة دون كبرياء والالتزام بمبادئ الأخلاق الكريمة، والعطاء فى وجوه الخير دون نظر إلى مقابل ورفع الهمة عن الخلق أى عدم النظر إلى شىء مما بأيديهم والبعد عن إذلال النفس فى سبيل كسب شىء أيا كان، وهذا كله خلق مصرى عربى أصيل..

وما عداه فليس من خلقنا أو طبعنا بل هو طارئ علينا يزول إذا نحن حزمنا أمرنا وقررنا زواله ويبقى ويتأصل إذا نحن تهاونا وتراجعنا واستسلمنا لما يفرضه علينا الأراذل منا.. والشرف أيضًا خلق السيدة أو خلق النوبليس فى تقاليد الفرنسيين والإنجليز ومن إليهم فى عصور الفروسية.

ونحن نقول إننا شعب أصيل عريق ونريد بذلك أننا شعب شرف وأخلاق كريمة على المستوى الرفيع، فأما أننا أصلاء فلاشك فى ذلك لأن كل البشر أصلاء، كلنا أبناء آدم وأنسابنا فى النهاية ترجع إليه، فليست هناك شعوب ترجع إلى آدم أبى البشر، وشعوب أخرى طفرت من الأرض من أصل غير آدمى، وعلى هذا المعنى فكلنا أصلاء، أما الذى نعنيه حقيقة بذلك فهو أننا قوم أصلاء فى الشرف والأخلاق السامية، وعندما نقول إن فلانا أصيلاً فليس من الضرورى أن يكون أبوه موسرًا أو صاحب منصب عظيم أو أنه يجرى فى تصرفه فى آثار آل بيته..

وأما أننا شعب عريق ففيه نظر، لأن العريق من الرجال هو – كما يقول ابن منظور فى لسان العرب عريق النسب أصيله. والعرب تقول

إن فلانا كعرق (بفتح الراء) له فى الكرم. والكرم فى المفهوم العربى هو الشرف بالمعنى الذى قلناه. وعندما نقول قرآن كريم نريد أنه الكتاب الذى يعلو على الكتب كلها ويشرف عليها من ذروة رفيعة لأنه كلام الله تعالى..

والمفهوم عندما نقول أننا شعب عريق أننا ننحدر من أصلاب كريمة عزيزة على أنفسها وعلى الناس تصرفت دائمًا عن نفس أبيَّة وترفُّع عن الدنايا والبُعد عما يشين الخلق، أصلاب تعطى ولا تأخذ وإذا كان لابد أن يأخذ الواحد منهم شيئًا فليأخذ بحقه مأخذ الرجل الشريف الكريم دون تحايل أو غش أو غضب أو كذب.

وقد كان هذا المسلك بالفعل مسلك بعض أجيالنا الماضية فى عصور القوة والعز والازدهار، ومن يرى آثار مصر القديمة يجد مصاديق ذلك بعينيه ويلمسها بيديه، فإن العمل الجميل لا يصدر إلا عن نفس جميلة، ولقد تحدث الفيلسوف الدينى الفرنسى تيلارد شاردان عن الشرف «النوبليس» حديثًا طويلاً قال فيه إن كل صنعة دقيقة متقنة لا تخرج إلا عن يد شريفة ونفس شريفة، فهى ليست صنعة بقدر ما هى أخلاق، قال إنه ظل صباحاً كاملاً يتأمل ساعة يد محكمة الصُّنع جميلة المنظر أنيقة الهيئة، وكان إذ ذاك فى واد من وديان جبال الألب الخضراء والبقر ترعى أمام عينيه فى هدوء الأبد، ومن حوله تنتشر بيوت الفلاحين الذين يجمعون قطع هذه الساعات بعضها إلى بعض ويضعونها بأيديهم الدقيقة فى هذه القوالب الجميلة، وقال فى نفسه لا عجب فمثل هذه القطعة البديعة من الصنعة المحكمة لا تصدر إلا عن نفوس شريفة تحمل عناء الصبر والإحكام لتخرج هذه الآيات الفنية العلمية.

وهذا أيضاً نستطيع أن نقوله عن أجدادنا من المصريين القدماء فإن إتقانهم لصنعتهم يدل على شرف نفوسهم لأن الإتقان أمانة نحو النفس ونحو الغير، ويعكس ذلك الإهمال فهو خيانة للنفس والغير، ومن هنا

فإننا نقول إن الإهمال ليس خلقًا مصريًا إنما هو خلق وافد علينا أو خلق تربى فينا فى عصور سادنا فيها غيرنا من ظلمة الغزاة والمستبدين ومع حكام ظلمة كهؤلاء لا مكان للأمانة فى التعامل وسنتحدث عن ذلك بعد قليل.

وأما أجدادنا من العرب فقد كان الشرف عندهم جُماع الأخلاق الفاضلة كلها، كان الواحد منهم يضحى بماله ليصون شرفه أو عرضه كما يقولون، وكانت الرياسة عندهم تضحية فى سبيل الجماعة، ولم يكن من المعقول عندهم أن الواحد منهم يطلب الرياسة لينهب الناس بل ليعطى مما عنده، ولا احتج فى ذلك بكلام الشعراء لأن الشعراء يقولون ما يريدون دون أن يكون كلامهم هذا حقيقة أو حجة، بل التمس الحجة والبرهان من واقع التاريخ، فكلنا نعرف مثلاً أن هاشماً بن عبد مناف بن قصى ورث رياسة قريش عن أبيه عبد مناف ولم ينازعه أحد فى ذلك لأنه بدأ بإنفاق ماله فى سبيل أهل مكة، وكان تاجرًا عظيمًا ماهرًا يقول ابن سعد «فأصابت قريشًا سنوات ذهبن بالأموال فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير خبز له وحمله فى الغرائر على الإبل حتى وافى مكة، فهشم ذلك الخبز، يعنى كسره وثرده، ونحر تلك الإبل، ثم أمر بطبخها ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة، فكان ذلك أول الحيا بعد السنة التى أصابتهم فسمى بذلك هاشماً وفى ذلك يقول عبد الله بن الزبعرى.

عمرو العُلا هشم الثريد لقومه
ورجال مكة مسنتون عجاف

وعمرو هو اسم هاشم ويقال إنه سمى هاشماً لأنه فعل ما ذكرناه وإذن فهاشم بن عبد مناف جد الرسول ﷺ استحق الرياسة لأنها كانت فى نظره خدمة للجماعة وتضحية فى سبيلها وتلك هى الأصالة العربية التى نعنيها هنا، والتى ينبغى أن نكون ورثناها عن أجدادنا لنكون

أصلاء مثلهم لأنه لا يكفى أن يكون أصلك كريمًا لكى تكون كريمًا بل لابد أن تكون أنت أيضًا كريمًا شريفًا، ونحن الذين نتحدث اليوم عن الصراحة والأصالة ونملأ بها فَمَنا، نعانى اليوم ونشكو لأننا أبناء أصلاء ونشعر فى أعماق نفوسنا أننا نسينا أن نكون نحن أيضًا أصلاء، وربما نكون قد استرحنا إلى هذا النسيان وعلّقنا ما نشكو منه من متاعب على مشاجب (شماعات) موهومة لكى نخلى أنفسنا عن المسئولية لأن الشرف مسئولية وحمله ثقيل ومطالبه كثيرة.

ولكننا ينبغى ألا ننسى أن حياة بلادنا ومستقبلها مرهونان بالمحافظة على أصالة الأجداد وشرف الأجداد، واليابانيون الذين يتصدرون أمم الأرض فى أيامنا هذه وصلوا إلى ذلك ويزيدون عليه يومًا بعد يوم لأنهم ورثوا مبادئ الشرف عن أجدادهم من الساموراى..

والساموراى كانوا أشرافًا وقادة بالعمل قبل الميراث ومن قصّر منهم فى تحمل مسئوليات الشرف فلم يكن أمامه إلا أن يقتل نفسه بنفسه ليكلاً يمسى شرف النيبون وهو جنس اليابانيين كان عليه أن يشق بطنه بخنجره من أسفل إلى أعلى وذلك هو الهرا كيرى أنه ثمن التقصير فى مطالب الشرف لأن الشرف ملزم..

«نوبليس أوبليج»

ومن غريب الأمر أننا تمسكنا بقواعد الأصالة هذه فى أيام الظلم والفقر والحكم الغاشم ونسيناها فى أيام العدل والاستقلال والحكم القومى.

وافتح معى تاريخ الجبرتى واقرأ ما كان الناس يصنعونه للمحافظة على الأصالة المصرية العربية والتمسك بقواعد الشرف والمروءة ومكارم الأخلاق.

كان الحكام لصوصًا أو هم أضل سبيلاً ولكن الأمة كانت واعية لنفسها مفتوحة العينين، وكان لهذه الأمة رؤساؤها من شيوخ الأزهر

وأهل المروءة والعدالة فى القاهرة وفى كل المدن والقرى كبارًا وصغارًا، وكان لكل حرفة قانون شرف يحمى الحرفة نفسها ويحمى حقوق أفرادها ويحافظ على مستوى العمل والأخلاق. كانوا يسمونه شيخ العشيرة عشيرة النجارين، وعشيرة النحاسين وعشيرة النساجين وما إلى ذلك، وكان شيخ العشيرة لا يتردد فى مواجهة الحكام وإرغامهم على الرجوع إلى الحق والإنصاف، وكان بكوات المماليك يخشون رئيس العشيرة لأنهم كانوا محتاجين إليه. فقد كانوا عصبة من الأشرار يحكمون بقوة السلاح ويحتاجون إلى الحدّاد والنجار والبيطار، وقد حكى الجبرتى أن سليمان بك السنجق المعروف بالتخين غضب على شيخ عشيرة السروجية وسجنه فى القلعة فتعصب له رجال عشيرته وامتنعوا عن عمل القرابيس لسليمان بك ورجاله، وكانت النتيجة أن تمكن منه خصمه مراد بك الأعرج وقتله، وأفرج عن شيخ السروجية. وكان هذا الشيخ من رجال الطريقة الرفاعية، وكذلك كان بقية السروجية، وقد ذهب مراد بك إلى جامع الرفاعية وصلى خلف الإمام وتبرأ مما فعله سليمان بك.

يقول الجبرتى إن شيخ السروجية هذا عبد الجليل البقعى كان رجلاً يعرف الأصول ويقوم بما عليه حيال أهل عشيرته ولو كلفه ذلك ماله كله، وكان يرعى كل أيتام عشيرته ممن يعجز أفراد أسرهم عن القيام بشئونهم حتى ضيع فى ذلك مالا لا يقدر، ومن عجائب أمره أنه كان يعطى كل ما عنده ويظل هو وأولاده دون عشاء فلا يلبث أن يدق الناس بابه ويقدموا إليه ما يكفى عياله ويزيد، وكان آية فى الفضل والشهامة والمروءة..

وبفضل أولئك الرجال الذين حافظوا على الأصول ظل الشعب المصرى متماسكًا قويًا دون أن يتأثر بفساد المماليك. ويخطئ من يظن أن شعب مصر كان فى تلك العصور ممتهنًا مهانًا، والعكس هو الصحيح. فقد كان

المهانون هم المماليك، فكانوا يقتلون بعضهم بعضا وينهبون بعضهم بعضا، لأنهم كانوا أرقاء مماليك وظلوا أرقاء وعبيدًا رغم السلطنة والعز والمال. وقد حكى ابن إياس فى تاريخه المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور أن الأمير بارسباى المنصورى الملقب ببندق تغلب عليه خصمه إسماعيل جان حلق بك فأمر رجاله بأن يجروه من رجله وأوقفوه أمامه حافيًا فجعل يبكى ويتضرع مثل السنوان، وعندما وقعت عينه على الشيخ البدوى القفاص عند إسماعيل بك استنجد به واستحلفه أن يتشفع فيه وقال له، أبوس رجلك. فغضب بارسباى المنصورى لذلك وأمر بقتله فى الحال لأنه عره للأتراك أمام أولاد البلد».

وفى الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك كلام جميل جدًا فى هذا المعنى فهذا الرجل العظيم حقا عاش فى القرن الماضى أو عاش القرن الماضى كله تقريبًا ورأى مآسى ما جرى على شعب مصر من المصائب والويلات نتيجة للهبوط الأخلاقى المزرى وانعدام الشعور القومى عند الأسرة الحاكمة.

ومع ذلك فإن هذا القروى المصرى المهذب الأصيل يسمى كتابه «الخطط التوفيقية» نسبة إلى ذلك الصعلوك الخسيس محمد توفيق الذى لا يستحق اسمه مجرد الذكر فضلاً عن وضع اسمه على ذلك الكتاب القيم، ولكن على مبارك كان فلاحًا مصريًا فهو يعطى الحاكم حقه وإن كان الحاكم نفسه لا يستحق ذلك وفى مدخل الخطط، حيث يتحدث الرجل عن نفسه وأسرته وما أصابها فى أيام إسماعيل تتبين أصالة على مبارك، فقد كانت أسرة مبارك أسرة ثرية تملك أرضًا واسعة، وكان رجالها رؤساء الناس فى القرية والناحية، ثم جاءت حكومة إسماعيل «فرمت علينا أرضًا» أى أعطوهم بالقوة أرضًا لا تكريمًا لهم بل لكى يدفعوا عنها الضرائب فما كان من الأسرة كلها إلا أن هاجرت من قريتها إلى قرية أخرى لكى تتخلص من الضرائب الظالمة التى كانت الحكومة تفرضها على الناس، وفى موطنها الجديد بدأت الأسرة من

جديد، واستطاع الصبى على مبارك أن يشق طريقه ويصل فى العلم والوظائف إلى هذا المستوى الرفيع الذى جعله واحدًا من رواد النهضة الفكرية فى عالم العرب كله.

والذى أريد أن أقوله أن على مبارك لم يعتمد على أنه أصيل من أسرة كريمة، بل أنشأ لنفسه أصالة جديدة قائمة على الأخلاق والعلم إلى جانب ما ورثه هذا الرجل من أسرته من قواعد الحياة عند أهل الأصول، ولم يتعب إنسان فى صنع نفسه كما تعب مبارك ولكنه عندما وصل إلى المراتب العليا استمر يبذل من نفسه وماله كما ينبغى على ابن الأصول.

وفى كتاب «الخطط التوفيقية» يحكى على مبارك الكثير عن الأصول وأبناء الأصول. ومن كلامه تفهم أن الثورة العرابية قامت لأنه كان فى مصر ناس يعرفون ما هى الأصول، وكيف يتصرفون تصرف أهل الأصول. وعرابى نفسه ولم يكن على مبارك راضيًا عنه. وكان رجل أصول، وخطابه للخديو فى يوم قصر عابدين خطاب مصرى أصيل. وخطبته المؤثرة التى قالها فى محطة سكة الحديد عندما نقلوه من القاهرة خطبة رجل أصيل يعتز بأنه فلاح بسيط من هرية رزنة، فلاح بسيط ولكنه أصيل، وثورته على الظلم ثورة أصالة.

عندما تقرأ مذكرات على مبارك ثم مذكرات شفيق باشا تدرك تمامًا أن الأصول المصرية العربية العريقة موجودة، وهى التى حفظت على مصر كيانها خلال عصور الظلم والظلام التى مرت بها، والذين قاموا بالثورات المصرية المتوالية وتعرضوا للأذى بل للموت فعلوا ذلك لأنهم أبناء أصول تصرفوا تصرف أبناء أصول، لأنه لا يكفى كما قلنا أن تكون ابن أصول بل لابد أن تكون أنت الأصول نفسها، لابد أن تكون بعيدًا عما يشين الإنسان الكريم، لابد أن تفكر فى غيرك قبل أن تفكر فى نفسك، فهذه هى الأصول، ومصر العظيمة هى التى تراها حافلة بأهل

الأصول بل هي تسير في طريقها رغم كل شيء بفضل عدد قليل من أهل الأصول.

فلماذا لا تكون أنت منهم؟

كلنا نقول إننا أبناء أصول وأهل أصول وفي إحساسي أن هذا صحيح. لأني أحس نبض مصر وأعرف عنها وعن طبيعتها - ربما - أكثر مما يعرفه غيري لكثرة ما قرأت من صفحات تاريخها ولطول ما عشت هذا التاريخ، فلماذا - في أيامنا هذه - نرى الدنيا كلها تتصرف من حولنا تصرف ناس لا يعرفون الأصول.. تصرف ناس أنانيين قصار النظر صغار النفوس.. في إحساسي أن هذه موجة عابرة..ربما كانت رد فعل لأشياء كثيرة بعضها نعرفه وبعضها لا نعرفه، وهذا لايهم، لأننا نريد أن نتخلص من موجة اللا أصول هذه ونعود بتصرفنا إلى معدننا الأصيل. ولكن كيف؟.

إن السادة أو الأشراف أو المواطنين الصالحين من حولنا في كل مكان. ومصر دائمًا بلد ناس أشراف طيبين.

حيثما تلفت حولي رأيتهم. إنهم كثيرون جدًا، وهُم الذين يعطونني الأمل في مستقبل هذا البلد، كلما سئمت نفسي وتعبت وتسرب اليأس إلى قلبي لقيت إنسانًا طيبًا ومواطنًا صالحًا وأخًا كريمًا فترتد إلى نفسي وأقول. خسارة أن يكون في البلد كل هؤلاء الناس الطيبين ثم أضعف أو يتسرب إلى نفسي اليأس! هذا بلد عظيم وأصيل، ولابد له أن يتغلب على هذه الموجة ليسير في طريقه كما سار من آلاف السنين..

إننا اليوم في نور وحرية وسلام وحكومتنا اليوم أحسن من أي حكومة عرفناها في تاريخنا إنها حكومة منا نحن الناس الطيبين.. ولكن الحكومات مهما بلغت كفايتها وصلاحيتها فهي لا تستطيع أن تفعل كل شيء فهناك أشياء تستطيع الحكومة أن تفعلها لأنها مسائل ضبط وربط. وهناك أشياء لا تستطيع أن تفعلها لأنها مسائل أخلاق وسلوك، والمشكلة التي نعاني منها مشكلة سلوك، لأن الأخلاق والحمد

لله بخير. ولكن السلوك هو الذى تغير بعض الشىء. والسلوك عند الكثيرين تغير هذه الأيام لأن ظروف الحرية التى نحياها اليوم غير عادية بالنسبة لتجربتنا التاريخية من مئات السنين فقد عشنا دائمًا مع حكومات قاسية عنيفة لا ترحم. وكنا لذلك نخاف . أما نحن اليوم مع حكومة رفيقة ورحيمة وأصيلة أيضًا. وهى تحدثنا عن «العيب» والحياء وتذكرنا بين الحين والحين بمكارم الأخلاق، بل هى جعلت لمكارم الأخلاق قانونًا هو قانون العيب..

ولكن هناك ناسًا لا يصلحون مع الحسنى فيحسبونها ضعفًا. فينطلقون يسيئون ويفسدون. وفى العادة يستطيع رجل سيئ واحد أن يفسد حياة العشرات ويعكر مزاجهم ويؤذى مصالحهم، وجريمة اقتحام بيت واحد وسرقة ما فيه تروّع حيًا كاملاً وتجعل الناس يتصورون أن اللصوص فى كل مكان.

وفى بلاد الغرب يملك الناس سلطات كبرى يعطيهم إياها القانون، فلو أن جارًا لك رفع صوت المذياع بالليل استطعت أن تستدعى البوليس ليوقع عليه العقاب. لذلك يسود هناك الهدوء فى الليل. ولا يكسر الناس قانون المرور فى كل لحظة. لأن القانون صارم والناس الطيبون أو الأشراف يتعاونون فى تنفيذ القانون. ولو أنك كنت فى طابور فى أوروبا. ثم خرقت النظام وتقدمت على غيرك لأعادك الناس إلى مكانك فى الحال. فإذا لم تعد وتبجحت وبعبعت أتاك رجل البوليس. وهو فى هذه الحالة لا يقول «معلهش» أو شيئًا يشبه ذلك. بل يخرج دفتر العقوبات والقلم ويوقع العقوبة.

لأن أهل القانون وأهل الشرف وأهل الأصول كثيرون هناك. وهم يتعاونون فيما بينهم على أهل الفساد والضلال.

وهذا هو الذى أدعو إليه فى ختام هذا المقال: أن يتعاون أهل الشرف والأصول فى تنفيذ القانون والحفاظ على النظام والنظافة. إنهم كثيرون ولأنهم كثيرون فإنهم يستطيعون الكثير.

كيف؟

والمروءة..

أعود بك إلى ماضينا إلى أصولنا، حتى يكون العلاج أصيلاً وناجعاً.. فقبيل البعثة النبوية لاحظ بعض أشراف مكة أن الظلم قد شاع في الناس فدعاهم رجل يسمى عبد الله بن جدعان إلى عقد «ميثاق شرف» سموه «حلف الفضول» أو حلف الفضلاء اشترك فيه بنو هاشم وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة بن كلاب وتيم بن مرة فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه. وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلمته فسمت قريش هذا الحلف «حلف الفضول» وقد كان لهذا الحلف أثر كبير في تحسين وإصلاح ما فسد من أخلاق المكيين بسبب طغيان أهل الفاسد.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد شهدت في دار عبد الله ابن جُدعان (بضم الجيم) حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم. ولو أدعى به في الإسلام لأجبت».

وهذا هو الذى أدعو إليه في هذه السطور: أن يتعاون أهل الفضل والأصول والشرف على أن يكونوا حلفاً واحداً في سبيل الخير. حلف شرف وميثاق إنسانية لا دخل له في السياسة يعمل أفراده على إقامة القانون وحماية الناس والوقوف في وجه المفسدين.

وفكرة أطرحها للمناقشة. لأننا لا نكتب ما نكتب لمجرد الكلام بل لأن لنا هدفًا ساميًا في بلوغه. والقلم في نفسه رسالة ورسالة القلم وصاحب القلم هي الخير والعدل والفضل والإصلاح.

وأدع الفكرة هنا.. لأعود إليها فيما بعد.

أعود إليها لأنها واجب.. لأنها إلزام.

وكما قلت في مطلع هذا الحديث.. إن الشرف

إلزام: نوبليس أو بليج.

(٢)

الأوسطى شاى وفن النكد* !

لابد أنها موهبة ننفرد بها من دون مخاليق الله: تحويل النعم إلى نقم، والخيرات إلى مصائب، حتي الأولاد - وهم زينة الحياة الدنيا - أصبحوا مشكلة قومية عامة.. والشاى الذى يصنع منه غيرنا شراباً منعشاً جميلاً.. جعلنا منه كارثة صحية ومشكلة اقتصادية.

للمرة الرابعة خلال ساعتين ذهبت إلى الأوسطى هريدى فى دكانه أتعجله ليصلح لى شيئًا فى بيتى، وللمرة الرابعة كذلك قال لى وكوب الشاى فى يده:

حاضر.. لما أشرب الشاى.

وفى المرة الرابعة قلت له وأنا أجتهد فى ضبط نفسى، ففى هذه الأيام لا يحمد الإنسان مغبة غضب الأوسطى هريدى أو أى أوسطى آخر.

فقد أصبحوا سادة عظامًا لا يقل دخل الواحد منهم عن ثلاثين جنيها فى اليوم، تصفو له فى آخر النهار على عشرين بعد دفع أجور العمال، ورجال يحمل فى جيبه فى آخر كل نهار ٤٠ جنيها ليس بالرجل الهين، ولا تستطيع أن ترفع صوتك فى مخاطبته، فقد تفتحت عليه أبواب الرزق من حيث يحتسب ولا يحتسب، وأنت محتاج إليه وهو غير محتاج إليك وإذا غضبت أنت فإن ذلك لا يعنيه فعنده بذلك عشرون آخرون ينتظرون منه كلمة عطف، أما إذا غضب عليك فما حيلتك وعندك بلاعة مسدودة ورشح ماء فى الجدران؟ فليس أمامى وأمامك إلا التأدب والتحشم والترفق فى خطاب الأوسطى هريدى أو أى أوسطى آخر يرتدى قميصًا وبنطلونًا فى لون الهباب، فقد تغيرت الدنيا وارتفع ناس وهبط ناس، ولا محل للشكوى فهذه حال الدنيا..

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢١ سبتمبر ١٩٨١م .

وما دمنا جميعا قد جرفتنا حمى الدراسة الجامعية، فأرسلنا أولادنا في طريق الشهادة الجامعية، وهو طريق الفقر وقلة الدخل والنفخة الكاذبة، فمن حق هؤلاء الذين كانوا أبعد نظرًا منا وساروا في طريق الصنعة والعمل اليدوى أن يفوزوا في النهاية، لأن العصر كله هو عصر الصنعة اليدوية والخبرة الفنية بكل مستوياتها من السباكة إلى الحاسبات الألكترونية، فالأوسطى هريدى، وكل أوسطى آخر، يقف على أول السلم الذى ينتهى فى أعلاه بالدكتور فيرنر فون براون الذى صنع أول صاروخ ذاهب للفضاء.

أما أبناؤنا فقد وضعناهم في أول طريق نهايته ابن المقفع والقاضى الفاضل من أرباب القلم والفكر، وقد انتهى فيما يبدو عصر ابن المقفع والقاضى الفاضل، بل انتهى عصر أحمد شوقى، ونحن اليوم فى عصر أصحاب المفكات والزرديات والشواكيش والكماشات. والأيام دول، ولا معنى للشكوى فهذه حال الزمان.

وأعود إلى الأوسطى أو المعلم هريدى. قلت له فى لهجة استعطاف تناسب المقام: يا معلم حرام عليك.. أربع مرات آتيك وفى كل مرة تردنى خائب السعى، وهذا الكوب فى يدك، ألا يفرغ أبدا؟

كيف لا يفرغ يا حضرة.. هذا هو الكوب الرابع.. أصلى لا مؤاخذة لا أبدأ العمل إلا بعد أربعة أكواب شاى أو خمسة. والفول، ولا مؤاخذة، جامد على المعدة، ولابد له من الشاى..

- يا حضرة المعلم أنا عندى شاى وسكر وكل ما تريد.. تعالى وأنا أقدم لك ما تشاء من أكواب الشاى..

- وهل هذا الذى تشربونه أنتم يسمى شايًا؟. هذا ماء ولا مؤاخذة، ماء ساخن بالسكر.. أما نحن فلا يعدل دماغنا إلا الشاى الكيف.. الشاى الثقيل المحترم، والإبريق الذى تراه يغلى بالشاى على النار من ساعتين، وكلما قل الماء أضفنا ماء وشايًا، وكل كوب شاى لابد له من

أربعة أو خمسة من قوالب السكر.. أصل ده ولا مؤاخذة شـاى معلمـين.. شاى الصنعة..

– تفضل معى أرجوك.. ها أنت ذا قد فرغت من الشاى.

– حتى يأتى الصبى ليحمل لى صندوق العدة..

– أنا أحمل لك صندوق العدة.

– وهل هذا يصح يا حضرة.. نحن ناس على قد حالنا. ولكن «برضه عندنا نظر ومفهومية»..

وحملت صندوق العدة وقلت.

– وأنا أيضًا عندى نظر ومفهومية، ومفهوميتى تقول إننى ينبغـى أن أحمل لك هذا الصندوق، وأعمـل لـك الشـاى الـذى يرضيـك.. المـهم أن أتخلص من تلك البالوعة التى تكاد تفسد لى بيتى..

وأمام هذا لم يستطع المعلـم العظيـم إلا النـهوض معـى، وحمـل هـو الصندوق وسار معى متكاسلاً، وفى الطريـق مـر بالبقـال وطلـب علبتـين «سوبر» وبحث فى جيوبه فلم يجد نقودًا فدفعت له ثمنهما خصمًا على الحساب، ودخل البيت معى ونظر إلى البالوعة وفتح صندوق العـدة فلم أر فيه إلا مفكًا وكماشة وقطعة حديد صدئة يسميها «أجنة».

– هذه هى كل العدة يا معلم..؟

– أصل.. ولا مؤاخذة الصبيان يسرقون العدة ويبيعونها.

– وبهذه الأشياء ستصلح لى البالوعة والصنبور؟

– بهذه الأشياء أبنى لك عمارة..

وبينما كان يعمل، ذهبت لأعمل له الشـاى، بحسـب تعليماتـه كـان على أن أضع له معلقتى «شـاى ناشـف» لكـل كـوب، ولابـد أن أتـرك الشاى يغلى عشرين دقيقة على الأقل..

وأخذت له كوبًا من ذلك الحبر، فوضع فيه أربع ملاعـق سـكر، ثـم ذاقه فلم يعجبه، وأضاف معلقة خامسة، وبينما كان يعمل سألته:

– كم ستتقاضى منى يا معلم؟

– اللى تدفعه.. لا فرق..

– أريد أن أعرف يا معلم..

– علشان خاطرك وانسانيتك ١٠ جنيهات.. من غيرك أخذ عشين. أين تذهب نقودك يا معلم؟.

– نقود؟ وأين هى النقود؟.. ثلاثة بالله العظيم ما كان فى جيبى هذا الصباح إلا ٥٠ قرشا تركتها للحرمة ولا مؤاخذة وخرجت على فيض الكريم..

وفى ساعة كان قد فرغ من العمل. معظم الوقت ضاع فى الذهاب والمجىء وشرب الشاى ومحاولة العمل بدون «عدة، وكل دقيقتين يسأل: عندك سلك؟ عندك شاكوش؟ ألا أجد عندك مفتاحًا إنجليزيًا؟.

وفرغ من عمله لا أدرى كيف. وأخذ الجنيهات العشرة، ثم مضى يحمل الصندوق الفارغ. لقد دخن خلال الساعة ثمانى لفائف سوبر، وشرب ثلاثة أكواب حبر، واستهلك ربع علبة السكر أى أقل من ربع الكيلو بقليل. ولم أتجاسر على خصم ثمن السجائر، وظن هو أننى نسيت، وسر بذلك.

وقضيت بعد ذلك أكثر من نصف ساعة أنظف ما خلفه هذا الأوسطى من قذر وطين وقطع قطن وأعقاب سجائر. وعندما أردت غسل إبريق الشاى لاحظت أن ما فيه من التفل يسد بلاعة الحوض، فجعلت أفرغه شيئًا فشيئًا. ثم أفرغت التفل فى ورق لففته ووضعته فى صندوق القمامة، وعدت إلى مكتبى وفى يدى كوب شاى من النوع الذى أشربه. إنه ليس ماء ساخنا بسكر بل هو الشاى كما ينبغى أن يشرب.. شراب كأنه ذهب مورد فى فنجان أنيق..

وأردت أن أعمل، ولكن موضوع شاى الأوسطى هريدى شغل بالى.

إنها ليست مسألة شاى كالحبر أو شاى كالهباب. إنها فى الحقيقة مشكلة قومية. ولأنها مشكلة قومية فقد أذنت لنفسى. أن أدير عليها هذا المقال:

فإن إنجلترا مشهورة بأنها أكبر بلاد الدنيا استهلاكًا للشاى، ومع ذلك فإن متوسط استهلاك كل إنجليزى من الشاى فى العام يبلغ عشرة أرطال أى نحو خمسة كيلو جرامات.

ومتوسط استهلاك الفرد عندنا من الشاى يصل إلى عشرة كيلو جرامات فى العام..

ونحن ندعم الشاى بحوالى ٢٠٠ مليون جنيه من المال العام، والشاى الثقيل يحتاج إلى السكر الكثير، وقد قرأت فى الإحصائيات أن دعم السكر وحده يصل إلى ٣٥٠ مليون جنيه، ومعظم هذا السكر يذهب فى الشاى، لأن المصرى العادى لا يعرف الحلوى اليومية فى الوجبات. ونادرًا ما يعدون فى البيت شيئًا بالسكر إلا فى رمضان..

وهذا الاستهلاك غير المعقول من الشاى والسكر جدير منا بالتأمل، لأننا حتى لو صرفنا النظر عن العبء المالى الذى نتحمله فى سبيل الشاى فإنه تبقى النتائج الوبيلة على الصحة العامة من جراء هذا الحبر الذى يسمونه شايًا ويستهلكونه باللترات..

فإن الشاى المحضر بهذه الطريقة هو أسوأ الشاى وأضره بالصحة، لأن الشاى يتكون من كافايين وتايين وزيت عطرى هو الذى يعطى الشاى الرائحة الزكية والطعم الجميل..

وفى الدقائق الثلاث الأولى من غليان الشاى يخرج الكافايين والتايين والزيت العطرى، وكلها فى هذه الدرجة من الغليان لا تضر أى عضو من أعضاء الجسم، بل تنشط وتصلح المعدة والأمعاء..

فإذا استمر الغليان انعدم الكافايين وتحول التايين إلى مادة سامة عسيرة الهضم تتعب الكبد وتتعب الكلى وتتقرح منها جدران الجهاز الهضمي كله..

ويضاف إلى ذلك أن أولئك الناس لا يصفون الشاى بل يشربونه بالتفل، وبعضهم يضع الشاى الجاف فى الكوب نفسه ويسميه «كشرى» وهو يشرب فى الحقيقة تفلاً.. وهذا التفل يلتصق بمجرى البلعوم وجدران المعدة ويسبب التهابا فى الأغشية..

ونضيف إلى ذلك أنهم نادرا ما يغسلون الأوانى غسلاً جيدًا فى محل الأوسطى هريدى يوجد جردل ماء يغسلون فيه الأكواب من الصباح إلى المساء، وهم يغسلون فيه أيديهم أيضًا.. مع غروب الشمس يصبح لون ماء الجردل فى لون الهباب، وغريب أن أولئك الناس لا يفكرون قط فى شىء يعملونه، فهم يغسلون أيديهم ووجوههم (وعيونهم) من ماء الجردل. وفى النهاية يتوضأ منه الأسطى ويدخله فى عينيه وفى خياشيمه وفى فمه. والجردل نفسه مخزن أقذار وأمراض..

وليس لديهم فى المحل فوطة أو بشكير، إنما هم يجففون وجوههم وأيديهم فى أكمامهم، وفى مناديل لا تغسل إلا من شهر إلى شهر، وبعضهم يستعمل ورق الجرائد.. وكل ذلك من الشاى وبلاوى الشاى..

وهناك مشكلة السكر..

ومتوسط استهلاك الأسرة المصرية العادية من السكر – فى المدن والأرياف – كيلو جرام فى اليوم الواحد. يذهب معظمه فى الشاى «رقم لا يصدق»..

والسكر الأبيض فيه غذاء ولكنه أضر شىء بالجسم لأنه لا يهضم إلا بفيتامين «أ» فهذه الكميات من السكر تستنزف هذا الفيتامين من الجسم. وفيتامين «أ» أساسى للقلب والجلد والبصر وأشياء أخرى..

لأن الأشياء كما خلقها الله تكون متكاملة ولا تضر. فأنت إذا طحنت القمح بقشره وصنعت منه الخبز كانت فيه فائدة كاملة لجسمك، ولا ضرر فيه على الإطلاق..

فإذا أنت قشرت القمح لتحصل على الدقيق الأبيض أضعت معظم فائدة الخبز. وفى بلاد العرب جميعا يعرفون أن الخبز الأسمر أو الأسود. وهو خبز القمح الكامل (فول كورن بريد) أصح للجسد مائة مرة من الخبز الأبيض..

ومثل ذلك يقال فى الأرز..

فإذا أنت طبخت الأرز بقشره كان مفيدًا لجسدك.. أما إذا قشرته تحول إلى غذاء حامضى التركيب يضر الجسد..

وفى أوروبا وأمريكا يحذرونك من الأرز الأبيض..

وأهل شرق آسيا يعيشون على الأرز. ولكنه الأرز الكامل. الأرز الأسمر. وهو صحة وعافية..

لأن الله سبحانه خلق الأشياء صحية وكاملة التركيب.. وعندما نتدخل فيها نحن نفسدها ونضيع قيمتها..

وغريب أن جمهورنا فى مصر - والعالم العربى كله - يستعمل كل شيء استعمالاً خاطئًا. لأن أحدًا لا يبصر الناس بحقائق المعيشة والغذاء والتعليم والصحة تبصيرًا حقيقيًا..

والفلاح أو العامل الذى تراه شاحب الوجه نحيلاً كالعود أو سمينا كالبرميل لا يشكو من قلة الغذاء بل من سوء التصرف فى الغذاء، فالغذاء والحمد لله وافر بكميات تزيد على المطلوب..

وبعضنا يظن أن أولئك الناس أصحاء. ويتعجب من استطاعتهم النوم فى الحقل أو على قارعة الطريق ولو فحصت أجسادهم لوجدتها معارض أمراض..

واذهب إلى العيادة الخارجية فى أى مستشفى أو وحدة صحية تر الأعاجيب من الأمراض. وتسعون فى المائة ممن يروجون ويغدرون أمامك مرضى بالكبد أو الكلى أو الطحال أو بها جميعا. وكلهم دون استثناء مرضى. إما بالمعدة وإما بالأمعاء إلى جانب ما ذكرناه! وكل ذلك من سوء التصرف فى الغذاء. فمن ناحية نحن لا نبصرهم التبصرة الكافية. ومن ناحية أخرى هم يرفضون التوعية، والأوسطى هريدى لن يقتنع قط بأن الشاى الذى يشربه سم الشاى الذى أنصحه به صحة وعافية..

وقد كان عندى طباخ، وكنت أقول له: تناول غداءك ثم اغسل الأوعية والمطبخ ثم نم بعد ذلك..

ليه؟..

لأن النوم عقب الأكل مباشرة ضرر جسيم بالصحة. فأنت فى أثناء غسيلك للمواعين والمطبخ تعطى معدتك الفرصة للتصرف فى الطعام، ثم تنام قيلولتك بعد ذلك على صحة..

ولا أذكر أنه استمع إلى نصيحتى قط. يملأ بطنه ثم ينبطح وينام كالجاموس. ثم ينهض ليغسل المواعين. ويومًا بعد يوم اضطربت معدته وتلبكت أمعاؤه وتمدد طحاله، وفى سن الخمسين كان نحيلاً هزيلاً، وكل شيء فيه مريض. وبكل بلادة ذهن وتلامة وجه يقول: هذه قسم يا دكتور.. كل شيء مكتوب. مكتوب لى أن أمرض، والشفاء من الله سبحانه وتعالى..

ونعود إلى الشاى وإلى ملايين الأوسطى هريدى وكل منهم تستطيع أن تسميه الأوسطى أو المعلم شاى..

□□□

هؤلاء الناس غذاؤهم كله وشرابهم كله شاى. لأن مقادير السكر التى يزدردها الواحد منهم مع الشاى بالإضافة إلى السجائر تشعره بشبع كاذب. وهو عندما يتناول غداءه - طعمية كان أم كبابًا - فإن جسده

لا يستفيد من ذلك. لأنه مشبع بالسكر الذى يجرد جسمه من دفاعات الفيتامينات..

وفى العراق تسبب الإقبال الشديد على الشاى فى كارثة قومية اقتصادية. إلى جانب كوارثه الصحية، فإن الفلاح العراقى كان يعتمد فى غذائه أساسًا على التمر، والعراق أكبر بلد منتج للتمر فى الدنيا. والتمر غذاء كامل يستطيع الإنسان أن يعيش عليه. ففيه الكفاية من الكاربوهيدرات والبروتينات والسكر وشيء كثير من الفيتامينات، ولهذا فإن سكر التمر صحى يتم هضمه دون الحاجة إلى فيتامينات..

وكان الفلاح العراقى صحيحًا عفيًا بالتمر أساسًا. مضافًا إليه ما تيسر من لبن ولحم وخضر وفاكهة بين الحين والحين. وكان العراق يستفيد من تموره على أحسن صورة. كان العراقيون يستهلكون ٦٠ فى المائة من المحصول والباقى كانوا يصنعونه ويصدرونه..

ثم جاءت لعنة الشاى..

وتعلم الفلاح العراقى شرب الشاى الأسود بالسكر الكثير..

وكما حدث فى الريف المصرى عندما تحول معظم كسب الفلاح إلى شاى يسيل من فم الغلاية كوبًا بعد كوب، فكذلك حدث فى العراق. بالإضافة إلى ما نعرف من تطرف العراقيين فى كل شيء. فى دراسة لهيئة الأغذية والزراعة تبين أن الفلاح العراقى يشرب فى اليوم حوالى ٢٠ كوبًا من الشاى ومعها ٨٠ قطعة من السكر كل يوم أى أنه يزدرد نحو كيلو جرام من السكر فى اليوم. ومع هذه الكمية الهائلة من السكر أصبح الفلاح لا يطيق النظر إلى التمر وهبط الاستهلاك المحلى من التمر إلى العشر، ولم يجد العراق من يشترى ذلك الفائض الضخم واضطر إلى إعطائه للصين بثمن التراب، ليحصل بدله على شاى ومصنوعات صينية لا تذكر. بعضها سكر البنجر. وهذه واحدة من مصائب الشاى هناك وهى شبيهة بمصيبته عندنا..

وقد خطر ببالى أكثر من مرة سؤال: لماذا ندعم الشاى؟ ما الذى نستفيده من استيراد الشاى بالدولارات وبيعه للمستهلك بالقروش؟..

وماذا سيحدث لو لم يجد الفلاح والصانع المصريان كل الشاى الذى يطلبه مزاجهما؟..

سيكتفى بنصف الكمية بل بربعها..

والشاى ليس غذاء. إنه مزاج مثله فى ذلك مثل الدخان. فكيف نضع الضرائب العالية على الدخان وندعم سعر الشاى لنخفضه؟..

فإذا هبط استهلاك الشاى إلى الربع هبط استهلاك السكر إلى الربع. وفى هذه الحالة سيكفينا سكر بلادنا، وما لم نفعل ذلك فسيظل بلاء الشاى فى زيادة..

وبعد.. فإنه لمن العجيب أن لدينا ملكة تحويل كل نعمة إلى نقمة، فالشاى وهو شراب منعش لطيف ومفيد إذا تناولناه باعتدال، حولناه إلى كارثة على جيب المواطن وخزانة الدولة والصحة العامة، والشاى فى بلاد الغرب وفى إنجلترا خاصة زينة ومتعة وقيمة، وإذا كان الصينيون هم أول من زرع الشاى فإن الهنود هم الذين جعلوا منه تجارة، واليابانيون تأنقوا فيه وجعلوا تناول الشاى حفلاً مقدسًا له طقوس وتقاليد، والإنجليز جعلوه احتكارًا دوليًا لهم أيام الاستعمار، وجعلوه المشروب الأول فى الدنيا..

وابتكروا تقليد شاى الساعة الخامسة بعد الظهر وكانوا أول من صنع أطقم الشاى وفناجين الشاى الأنيقة وآنية الشاى الفضية، وهم أول من ابتكر مشارب الشاى العامة وحفلات الشاى، وأكلوا معه الكيك، وهم أيضًا الذين صنفوا الشاى من شاى القطفة الأولى الذى يتضوع عطرًا وهو المعروف بالبيكوى إلى شاى القطفة الثانية (البيكوى ساهزى) وشاى القطفة الثالثة ثم شاى التراب (بيكوى دست) ومن هذين الصنفين الأخيرين معظم ما يشرب من الشاى عندنا..

والشاى يسمى فى شمال الصين تاى، ومنه أخذ الأوربيون (عدًا البرتغال) اسم الشاى فسموه تى فى صور مختلفة، وهو يسمى فى جنوب الصين باسم تشا ومنه جاء اسم الشاى عندنا ولا ينطقه على هذه الصورة من أهل الغرب إلا البرتغاليون. فهم يقولون تشا..

والبلد العربى الوحيد الذى يستعمل تسمية تاى هو المغرب. فهناك يسمونه الاتاى. ومعظم استعمالهم من الشاى الأخضر..

والشاى الأحمر أو الأسود والشاى الأخضر كلها من شجرة واحدة، فأما الشاى الأحمر فهو المخمر وذلك أنهم بعد أن يقطفوه يجففونه ثم يندونه بالماء ويدعونه يتخمر ساعات فتلين أعصاب أوراقه وتتكسر خلاياه ويسود لونه ثم يدعونه يجف فى الشمس أو يجففونه يحمصونه فى أفران خاصة لكى يجف ويصلب ثم يعبئونه. أما الشاى الأخضر فلا يخمر بل يقطف ويترك ليجف ولا يندى بعد ذلك وقد يحمص لتسهل تعبئته..

□□□

ولو كنا عقلاء واستخدمنا الشاى بعقل لكانت لنا فيه متعة وصحة..

ولكن ما العمل مع الأوسطى هريدى أو الأوسطى شاى وكل أوسطى شاى أو المعلم شاى أو العم شاى وبقية الشلة التى لا يمكن أن تسعد بشىء من نعم الله – وما أكثرها – ولابد لهم من أن يجعلوها نكدًا..

وهل فى الدنيا نعمة هى أجمل من الأولاد؟ أليسوا زينة الحياة الدنيا؟!..

فانظر والله كيف أصبح الأولاد نقمة وخطرًا يهدد البلد. والفضل فى ذلك للأوسطى هريدى.. الأوسطى شاى أقصد، وأشباهه وشركاه الذين جعلوا حفلات زواجهم معارك تطلق فيها أعيرة النار وتصيب الأبرياء وأقاموا الزينات سفلقة لأنهم لابد أن يسرقوا التيار.. ولابد لهم من أن ينصبوا الميكروفونات ويقلقوا مخاليق الله، لأنهم – ولا مؤاخذة – مبسوطون!..

(٣)
كله تمام يا أفندم*

الذين يقولون: كله تمام يا أفندم، لأنهم جبناء لا يجرءون على مواجهة رؤسائهم بالحقيقة يقترفون جناية خطيرة فى حق وطنهم، وقد جروا علينا بها كوارث أليمة، ونحن لا نريد أن يخدعنا جبان بعد اليوم، فلاشىء ينفعنا غير الحقائق، وليست هناك فى الواقع حقيقة مرة، لأن الحقائق كلها نافعة، والكذب وإخفاء الحقائق هى أمر الأشياء جميعا وأضرها بمصالح هذا الوطن، وعبارة: كله تمام يا أفندم فى ذاتها مهينة لأنها تحمل طابع السخرية ممن تقال له لكثرة ما خدعنا بها..

لست أول من أنكر هذه العبارة وتخوف منها.

ففى رواية زديج أو «صديق» وهى من أشهر روايات فولتير وأكثرها ذيوعًا بين الناس وأمرها سخرية، يردد هذا الكاتب الفيلسوف الساخر عبارة تقول على لسان الوزير: «إن كل شىء يسير على أحسن حال فى أحسن البلاد» وأحسن البلاد هنا هى فرنسا التى رمز لها فولتير بدولة فارسية، وزديج هو الوزير الذى يحرص دائمًا على أن يطمئن الملك - والمقصود هنا ملك فرنسا - إلى أن كل شىء يسير على أحسن حال فى مملكته التى هى أحسن الممالك، ولم تكن فرنسا إذ ذاك بأحسن الممالك، ولا كان أى شىء فيها يسير على ما يرام، فقد كانت فرنسا كلها على أبواب ثورتها التى كان فولتير وروسو وأمثالهما يحسون بأنها قادمة، لا على سبيل التنبؤ، فإن الأديب الحق لا يتنبأ، ولكنه يعرف أن الأمور إذا سارت فى طريق السوء دون علاج فلابد أن يؤدى الأمر إلى كارثة، وإذا كان كبار رجال الدولة يحرصون على خداع سيدهم ويوهمونه بأن كل شىء يسير على خير حال، فإن الأمور لابد أن تنتهى على أسوأ حال..

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٨١م .

وفولتير سخر من فرنسا ما قبل الثورة فى كل سطر من سطور «زديج» ولكن قوله على لسان زديج فى كلامه إلى الملك: مولاى، أن كل شيء يسير على خير ما يرام فى خير البلاد.. هذه العبارة أصبحت من أشهر ما قال أهل الفكر والنظر البعيد فى مجال السخر من خداع المرءوسين للرؤساء وإخفاء الحقائق الأليمة عنهم وراء عبارات كلها زيف ونفاق..

□□□

وكلما سمعت عبارة «كله تمام يا أفندم» ترددت فى خاطرى عبارة فولتير وما تخفى وراءها من الحكمة والموعظة. ولى فى ذلك قصة أحكيها لأن كل مسئول عن عمل يتعرض لمثلها كل يوم، ولهذا فهى تنفعه..

فقبل ثلاثين سنة قررت كلية الآداب بجامعة القاهرة أن تقيم يومًا يسمى باليوم الجامعى على غرار ما تقيمه الجامعات الألمانية كل عام من يوم أكاديمى وهو يوم يقيمونه قبيل نهاية الموسم الربيعى من مواسم الدراسة الجامعية المعروفة بالسمسترات، وقبل إجازة الصيف، يجتمع فيه أهل الجامعة كلهم طلابًا وأساتذة بما فيهم مدير الجامعة ومساعدوه وكل الموظفين الإداريين، كل من يعملون فى الجامعة حتى البستانيين والسعاة والعاملين فى النظافة، ويتجمعون بعائلاتهم، ويحضر كل منهم ما يستطيع من الطعام، ويجلسون على موائد واحدة: المدير إلى جانب الساعى إلى جانب الأستاذ والطالب، وزوجة المدير فى وسط الطالبات ونساء النظافة، ويجرى الحديث بينهم عائليًا صرفًا، والشىء الوحيد الذى لا يجوز الكلام فيه فى ذلك اليوم هى شئون الجامعة الرسمية. فلا كلام فى علم أو بحث أو وظائف أو تعيينات، أو شكاوى أو امتحانات..

فالمدير يسأل زوجة الساعى عن أولادها وأحوالهم ويحملها التحية والتمنيات لهم، والساعى يسأل زوجة الأستاذ على الروماتيزم الذى

تشكو منه، ويحاول أن يصف لها وصفة بلدية، والطالب يحدث المدير عن والده يعمل فى السكة الحديدية..

اتفقنا على إقامة يوم كهذا بادئين بكلية الآداب كتجربة. فإذا نجحت وسعنا مجالها فى العام التالى لتشمل الجامعة..

ووافق عميد الكلية ووافق مدير الجامعة وكان طبيب أطفال مشهورًا، وجعلونى مسئولاً عن التنفيذ كله، لأننى كنت صاحب الفكرة..

واخترت مساعدين لى من الطلاب، وكان المفروض أن يشمل اليوم مباريات ومسابقات رياضية بين الأساتذة والطلاب وعرضًا مسرحيًا ومسابقات ذات جوائز ومونولوجات و«نمر» فكاهية من النوع اللطيف الذى يحسنه الشباب..

ومضت الاستعدادات على قدم وساق..

وبلغ من سرور الجامعة بالموضوع أن تبرع بمبلغ كبير من ماله يغطى نصف نفقات وجبة الغذاء التى تقرر أن يقيمها مطعم كباب مشهور بدلاً من أن يضطر الناس إلى إحضار الطعام معهم، وكان المفروض أن يدفع لكل عضو خمسة قروش من منحة المدير ويدفع هو الخمسة الأخرى، أما السعاة والفراشون فكان المفروض أن يدفع لهم المدير الوجبة الكاملة..

وقبل الموعد بأسبوع رأيت أن أتأكد بنفسى من أن كل شىء يسير على خير وجه فقال لى الطلاب: لا داعى لإتعاب نفسك، كله تمام يا أفندم..

قلت: لا بأس. أتعب نفسى الآن خير من أن أتعب الناس وأجعل نفسى مضحكة الجامعة يوم الحفل..

وذهبت إلى ملعب الجامعة فلم أجد أى استعداد، ورئيس اللجنة الرياضية يقول: هذه مسألة تحتاج إلى يوم..

ووجدت أن كل الفرق الرياضية لم تستعد استعدادًا كافيًا، كل شىء تركوه لآخر لحظة، ومادامت المسألة حفلاً عائليًا فأى كلام يكفى..

وفرقة التمثيل كانت تتلكأ فى التجـارب، ولم يحفـظ دوره إلا اثنـان من الممثلين: صاحب الدور الرئيسى وواحد ثان، وكان فى الرواية دوران نسائيان المفروض أن تمثل واحدًا منهما ممثلة كبيرة، وهـذه لم يفاتحـها أحد..

أما وجبة الغداء فقال الطالب المسئول عنـها إنـه تكلـم مـع صـاحب المطعم الفلانـى بـالتليفون وإن هـذه مسـألة بسـيطة يمكـن تدبيرهـا قبـل الحفل بيوم..

– يا بنى كيف يمكن لأى مطعم فـى مصـر أن يعـد ٥٠٠ وجبـة مـن الكباب وما يتصل به فى يوم واحد؟..

– لا يكـن عنـدك هـم يـا بيـه.. والمطـاعم كثـيرة.. دع أنـت المسـألة ولا عليك.. وكله تمام يا بيه..

وحتى الحرس الجامعى لم يخطـروه، وكـان لابـد مـن إخطـاره، ولم يتصل أحد بوزارة الداخلية ومحافظة الجيزة، ولم يكن مـن المكـن فـى تلـك الأيـام تنظيـم أى حفـل عـام فـى الجامعـة دون موافقـة المحافظـة والوزارة، والمفروض أنها موافقة شكلية، فإذا بـها ليسـت شـكلية أبـدًا، لأن المحافظة والوزارة لابد أن يكون لديهما وقت كاف لاتخاذ إجراءات أمن لابد منها..

وقال أحد أعضاء لجنة الطلاب: هذه مسائل تتم كلها فى يوم..

إن ابن عمى وكيل محافظة الجيزة وقد أبلغته.. وكله تمام يا أفندم..

وقلت: لا والله ما كله بتمام ولا نصف تمام..

وخلال أسـبوع كـامل لم أسـترح لا بـالليل ولا بالنـهار: مـن مراقبـة تمرينات الرياضـة إلى تنظيـف الملعـب وإعـداده إلى محافظـة الجـيزة إلى مسرح الأزبكية حيث كنا سنقيم الحفل التمثيلى..

وكانت مشكلة وجبة الغداء مستعصية على الحل، فأى مطعم مهما كان حجمه لم يكن ليستطيع فى تلك الأيام إعداد هذا العدد الكبير من الوجبات وإرسالها فى يوم الحفل إلى الجامعة فى الجيزة..

وأخيرًا تمكنا من إعداد الحفل، كل شىء تم بسرعة وبغير إتقان، واضطررنا إلى إلغاء الكثير من عناصر البرنامج..

وكادت تحدث مهزلة مبكية من وراء «كله تمام يا أفندم».. ومن يومها أصبحت أفهم عندما أسمع هذه الجملة أن هناك كارثة فى الطريق..

□□□

وخلال تجاربى على مدى السنوات الطويلة رأيت مآسى حقيقية تقع من وراء هذه الجملة التى يقولها المرءوسون عادة لكى يطمئنوا رئيسهم ويخادعوه..

وعندما أصيبت والدتى رحمها الله تعالى بنوبة قلبية وحملناها إلى المستشفى وجدنا كل أنابيب الأوكسجين فارغة، والأنابيب الملأى موجودة، ولكن الأنابيب التى كانت موجودة فى الغرفة هى الفارغة، وإلى أن يتم النقل والتركيب يكون قضاء الله قد سبق إلى المريض..

وحملنا مريضتنا إلى مستشفى آخر، وكان قضاء الله فى الطريق.

وساعتها فقط، ولا أدرى كم مريضًا مات قبل ذلك، يومها فقط بدلوا الأنابيب الفارغة بالأنابيب الملأى وأصبح كل شىء تمام يا أفندم..

وأشد ما أثار غيظى يومها، ونحن نجرى ملهوفين – لأن بين أيدينا مريضة عزيزة لا تستطيع التنفس – أن كبيرة الممرضات قالت:

يا بيه هذه مسألة بتاعة ربنا.. ربنا عاوز كده.. دى أعمار، وهل يستطيع أحد أن يتدخل فى الأعمار؟..

□□□

وبينما كنت أطالع كتاب (البحث عن الذات) للرئيس الشهيد أنورالسادات، عليه ألف رحمة من الله، كنت أرى بعيني مئات الكوارث التي حلت بهذا البلد وبجمال عبد الناصر نفسه، من وراء كارثة كله تمام يا أفندم..

كلهم كانوا يقولون له: كله تمام يا أفندم..

وكل صغير كان يقول للذى فوقه: كله تمام يا أفندم. لأنهم يخافونه، ويخافون غضبه كانوا يقولون له: كله تمام يا أفندم..

وحتى أنور السادات، وكان اليد اليمنى لعبد الناصر قالوا له قبيل كارثة هزيمة ١٩٦٧م: كله تمام يا أفندم..

وجمال عبد الناصر - كما قال السادات - مات بالفعل يوم ٥ يونيو ١٩٦٧م ولكنه دفن يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٧٠م..

والذين قتلوه لم يكونوا خصومه الإسرائيليين بل كانوا مساعديه من المصريين..

لقد غيروا الخطة التى كان قد صدق عليها دون أن يخطروه، وعندما سأل عبد الناصر عن موقف الطيران قال له قائد الطيران صدقى محمود: يا أفندم إحنا عاملين حسابنا، ولن تزيد الخسارة على عشرين فى المائة.

يعنى: كل شيء تمام يا أفندم..

وعندما وقعت الواقعة كانت خسارة الطيران مائة فى المائة، وضاعت الحرب..

وهذه ليست أسرارًا ولكنها فى كتاب مطبوع بكل لغات الدنيا.

ويوم المعركة، ولأنهم كانوا قد قالوا لأنور السادات إن (كله تمام ياأفندم) كان مطمئنًا كل الاطمئنان على النصر قال: (فحلقت ذقنى وارتديت ملابسى على مهل، وتوجهت بسيارتى إلى القيادة، كنت قد

حضرت إعداد الخطة بالكامل، وكانت ثقتى بالنصر أكيدة، فعدتنا أكثر من كافية، والخطة محكمة للغاية)..

ثم تبين الحقيقة الأليمة، لم يكن أى شىء تمام يا أفندم:

(سألت بعض الموجودين فقالوا إن سلاح الطيران قد ضرب بأكمله وهو على الأرض)..

وهذه الكارثة هى التى علمت السادات كيف يكسب النصر فى حرب أكتوبر..

لم يدع نفسه ليقع فريسة (كله تمام يا أفندم)..

اختار الرجال الأكفاء الذين لا يقولون كلمة إلا بحساب، وعندما يقولون إن (كله تمام يا أفندم) فمعنى ذلك أن كله تمام يا أفندم، ومأساة صدقى محمود لم تتكرر لأن الذى تولى سلاح الطيران كان القائد محمد حسنى مبارك، وكان السادات وراء كل دقيقة وكبيرة بل كان فى كل صغيرة وكبيرة. كان يعنى أن لفظ (كله) ينبغى أن يكون معناه (كله) من صامولة عجلة السيارة ووجبة الطعام إلى الطائرة المعدة تمام الإعداد..

ومن المعروف كذلك أن هذه هى عدة النصر التى اعتمد عليها نابليون فى معظم معاركه، عندما قرر أن يضرب النمسا وحلفاءها ضربة قاصمة فى معركة أوسترليتز، ظل أسبوعًا كاملاً وهو فى أوستند فى بلجيكا بعد أن أعلن الحصار القارى على إنجلترا، ظل أسبوعًا يملى تفاصيل معركة أوسترليتز..

كان السكرتيرون يتبدلون وهو يملى دون تعب كل تفصيلة من تفاصيل التجهيز والإعداد والتموين والاستراتيجية والتكتيك، وبعد أن أملى الخطة فى نحو ٦٠٠ صفحة جلس يراجعها كلمة كلمة، ثم اختار القادة واحدًا واحدًا وأعطى كل قائد نسخة من الخطة الكاملة مع نسخة من الجزء الخاص به..

ثم ذهب إلى باريس حيث أشرف على الإعداد والتدريب بنفسه، وسافر إلى ميتز حيث كانت المدافع تصب وتركب، ورآها بنفسه قطعة قطعة، ثم ذهب إلى شارلروا لكى يرى البنادق خارجة من المصانع، ثم ذهب إلى نانسى واستراسبورج لكى يتأكد من وفرة التموين ثم أسرع إلى أوجزبورج لكى يشهد بعينيه كل شىء فى طريقه إلى مكان المعركة، وفى قرية قرب فريدريكس هافن استعرض الخيول واجتمع بقيادة الفرسان..

وكان قواده يقولون له: (مون جنرال لا داعى لهذا الاجهاد، نحن ساهرون، وكل شىء على ما يرام) فكان يجيب: إذا انتصرنا فستكونون كلكم منتصرين، إما إذا انهزمنا فإن نابليون وحده هو الذى ستقع عليه كل الهزيمة..

ولم يكن ذلك عن قلة ثقته بقواده، بل لأنه كان لا يؤمن بأن كله تمام يا أفندم حتى يرى بعينيه..

وعندما تحرج فى ووترلو وعلم أن بلوخر قد ثبت مدافعه على التلال المشرفة على الميدان عض على أنامله وقال: يا لى من غبى: لمرة واحدة نسيت جزئية واحدة، وهذه النتيجة، وظل دقائق ينظر إلى تلك التلال، وقالوا له: لم يضع كل شىء بعد، ويمكننا أن نفعل كذا وكذا، قال: إن القائد الصغير هو الذى يلجأ إلى التصرف فى آخر لحظة، أما أنا فكل شىء ينبغى أن يكون واضحًا وثابتًا هنا.. (وأشار إلى رأسه) وهنا (وأشار إلى عينيه) قبل المعركة بأيام.

وعندما نقرأ فى بيان لوزير المالية أن لدينا بضائع مكدسة غير صالحة للبيع تقدر بأربعة بلايين من الجنيهات نعرف أن هذه الكارثة ناتجة من (كله تمام يا أفندم)..

العامل الصغير يقول لرئيس الورشة هذه العبارة القاتلة ليطمئنه، ورئيس الورشة يقولها لرئيس الورش، ورئيس الورش يقولها لمدير الإنتاج، ومدير الإنتاج يقولها للمدير العام ومنه إلى رئيس مجلس

الإدارة، ولـو كـانت قيمـة الإنتـاج البـائر مليونًـا أو مليونـين لقلنـا إنـهـا تجارب نتعلم منها ونستطيع إصلاحـــها، ولكـن عندمـا يصـل البـائر إلى أربعة بلايين لا يكون الأمر أمر تجارب وتعلم، ولا نقصا فى المواد، إنما يصبح الموضوع نقصًا أخلاقيًا، يصبح موضوع غش آثم مقصود.

لأن كل واحد من أولئك السـادة قـال تلك العبـارة باسـتخفاف وقلـة ضمير لأنه لن يخسر شيئًا ولن يخصـم منـه أجـر يـوم، ولكـن الخسـارة بكاملها ستخصم من إيرادات الشعب المصرى كله..

لقد حومت حول حقيقة هذه الكارثة جريدة الأهرام فى مقالها المـؤرخ ٣٠ أكتوبر ١٩٨١م فى مقال كتبه الأسـتاذ إبراهيـم نـافع تحـت عنـوان (وجاءت لحظة مواجهة الحقيقة) قال فيه: (بمعنى آخر: هنـاك إنتـاج زائد، ولكنه إنتـاج يتحـول إلى إنتـاج راكـد نضطـر معـه إلى الاسـتيراد، وهناك بيروقراطية حكومية تتسلط على الشركات.. وليست هناك برامـج تفصيلية للخطة فى كل قطاع، وبالتالى ليس هناك برنـامج عمـل محـدد واضح المعالم حتى إن أهداف التصدير لا تتحقق، بل وبدأنا فى نسـيانه كحقيقة اقتصادية ثابتة وفيها الإنقاذ الأول.. وذلـك هـو مـا نعنيـه بـأن السطح أو الغطاء سليم، ولكن العمق يحتاج إلى نفاذ إليه..

والكلام هنا مهذب..

ولكن الكلام المهذب لا ينفـع عندمـا تصـل الخسـارة فـى الإنتـاج إلى ٤٠٠٠ مليون جنيه من المصنوعات البائرة التى لا تباع..

لا ينفـع هنـا إلا الكـلام الصريـح الصـادق حقًـا، وهـو أن أحـدًا مـن المتسببين فى هــذه الخسـارة الفادحــة لم يراجـع ضـميره، كلـهـم كذبـوا بعضهم على بعض، كلهم كذبوا علينا. كلهم قالوا: كله تمام يـا أفنـدم، ولم يكن كله تمام يا أفندم، والمسألة فى صميمها وكما قلت أخلاقية..

فإن العامل الواقف أمام الآلة.. لم يراع ضميره، وهـو يسـتحق عقابًـا على ذلك..

ورئيس الورشة المكلف بمراجعة إنتاج العمال لم يراع ضميره، وخان نعمة العيش التى يأكلها من مالنا، ولم يقم بواجبه وأقر إنتاجًا فاسدًا لاينفع، وكذلك الذى فوقه والذى فوقه..

وهنا أيها السادة لابد من العقاب. فمادام هناك خطأ فهناك مسئول، ومادام هناك مسئول يتقاضى أجرًا عن العمل فلابد أن تكون هناك عقوبة عندما يتقاضى هذا المسئول أجرًا على عمل لم يحسنه..

والمسألة ليست إصلاح نظام بل إصلاح أخلاق..

وكما أن هناك شيئًا اسمه الثواب فهناك شىء اسمه العقاب، والله سبحانه وتعالى وهو أعدل العادلين - يربط الثواب بالعمل الصالح، ويربط العقاب بالعمل غير الصالح. ولو أننا طبقنا عدل الله سبحانه وتعالى لما تزايد تل الإنتاج البائر، حتى صار جبلاً، وإذا سكتنا عليه فسيصير سلسلة جبال، وسيكون الانهيار أكثر من خطير..

إن العالم كله ينتظر الإنتاج الجيد ويشتريه.. والسوق العالمية تستهلك كل شىء لأن الدنيا كلها تعلمت درس الإنتاج الجيد إلا نحن، لازلنا نقول (كله تمام يا أفندم) وننام..

ونحن فى مصر نشترى بضائع كل بلاد الدنيا: من كوريا وتايوان وهونج كونج والهند فضلاً عما نشتريه من الدول الصناعية الكبرى، ومما يؤلم النفس أن مصر كانت فى قمة البلاد المنتجة للأثاث والمصدرة له قبل ثلاثين سنة تستورد اليوم الأثاث، وكانت الأحذية المصرية تباع فى طول العالم العربى وعرضه فأصبحنا نستورد أحذية، وأقمشتنا التى كان العالم يتهافت عليها أصبحت تشترى بحذر، حتى المشترى المصرى فى داخل مصر أصبح يشترى بالة القماش فإذا فتحها وجد التمزيق والقطوع والخيوط الخارجة عن النسيج، واضطر إلى أن يلقى جانبًا أمتارا بعد أمتار، لأن الناس لن يشتروها، فى حين أن المصنع المصرى - وهو فى

الغالب قطاع عام - يتحكم في المشترى ويقول له دون خجل: إما أن تأخذ البالات كما هي أو دعها، هناك ألف غيرك..

وهذا الكلام من صاحب المصنع أو المسئول عن البيع فيه صفاقة وقلة أدب وخيانة للوطن، فهو لا يستحي من أن إنتاجه فاسد، وهو لايخجل من أنه منتج سيىء ورجل عاجز ورئيس لا يستحق منصبه، ولا يكفيه ذلك حتى يصل إلى الوقاحة وقلة الأدب..

وهذا الأسلوب الوقح تستطيع أن تلمسه بنفسك كل يوم، فمن شهر مثلاً ذهبت أشترى حقيبة سفر من محل من محلات القطاع العام، وأهم شيء في الحقائب هي الأقفال والمفصلات، ومضيت أجرب الأقفال، نحو ١٠ حقائب أقفالها لا تقفل، أو واحد يقفل والثانى لا يقفل..

وكل هذه الحقائب إذا أقفلتها لا تنطبق، لأن المفصلات في غير مواضعها، وأخيرًا قال لى البائع: يا أفندم أهلكتنا.. عشرون حقيبة تجربها دون أن تعجبك إحداها!..

- يا سيدى إننى عميل أشترى وأدفع الثمن، وأريد حقيبة متقنة الصنع ينطبق جزآها ويقفل قفلها وكيف تريدنى أن أشترى حقيبة تنفتح منى أثناء السفر..

- يا حضرة.. هذا هو الذى عندنا.. إما أن تأخذه أو لا توجع قلبنا، لو كان كل العملاء مثلك ما بعنا حقيبة واحدة..

ولو كنا في بلد آخر لاستحق هذا الرجل عقوبة..

ولكن عنده حق.. فهو لا يخشى عقوبة ولهذا فهو وقح قليل الأدب..

ثم تطلع على تقرير مجلس الإدارة لهذه الشركة فترى أن ملخصه عبارة (كله تمام يا أفندم) والمحل يكسب، ونسبة الربح كذا، والعاملون- رئيس مجلس الإدارة في مقدمتهم- يستحقون جوائز تشجيعية..

ويعطونهم مكافآت تشجيعية..

ويتعالى جبل الإنتاج البائر الذى لا يباع..

ويدفع الشعب من ماله ثمن هذا الإنتاج الذى لا يباع..

(وبرضه يقولون): كله تمام يا أفندم..

بالنسبة للدنيا كلها انتهى عصر التواكل والتكاسل والهزل فى علاج الأمور، والأمم التى نسميها الأمم القوية أو الغنية أو المتقدمة هى الدول التى لا يقول أهلها (كله تمام يا أفندم) إلا إذا كان كله تمام يا أفندم، والدول المتأخرة الفقيرة هي التى يقول أهلها (كله تمام يا أفندم) فى حين أن (كله مش تمام يا أفندم)..

والمسألة هنا ينبغى أن تبدأ من أعلى، لأن المفروض أن الذى هو أعلى يعلم ويوجه ويثيب ويعاقب من دونه، وهكذا حتى نصل إلى القاعدة..

إذا كنت وزيرًا فلا تصدق عندما يقولون لك (كله تمام يا أفندم) حتى ترى بنفسك أن (كله تمام) فعلاً..

لقد زرت أكثر من مرة قسم تعبئة الحقن فى شركة سيبا للأدوية فى بازل بسويسرا، هناك لا يختبرون عينات من الحقن المعبأة، بل يفحصونها واحدة واحدة..

هناك عاملات متخصصات جالسات إلى منضدة طويلة يمر أمامها شريط جلدى عليه الحقن، وخلفها أضواء مختلفة تكشف عن أى خلل فى محتوى الحقنة أو إحكام قفلها، والعاملات جالسات فى غاية الانتباه..

والشريط يسير أمامهن فى بطء وبصرهن مثبت فيما يمر أمامهن.. كل حقنة يشك فى أمرها ترفع باليد وتوضع على المنضدة..

وهناك مراجعات أخريات. رئيسات يراقبن نفس الحقن مرة أخرى، والويل للعاملة التى تركت حقنة معيبة تمر، والحقن المعيبة تفحص لمعرفة المتسبب، ولا يمكن التساهل مع المسئول أبدًا. لابد من العقوبة،

وفى الولايات المتحدة رأيت نفس الدقة فى صناعة السيارات فى ديترويت..

وفى أوساكا باليابان رأيت كيف يراقبون سلامة الإنتاج، هل يدهشك بعد هذا أن تعلم أن فائض الإنتاج الجيد المباع من صناعة اليابان وصل إلى ١٢٠٠٠ مليون دولار؟..

إن أوروبا وأمريكا تشكوان من جودة إنتاج اليابان، واليابان رفقا بهم تشترى بضائع لا تحتاج إليها، لكى يعتدل الميزان التجارى بينهم وبين اليابان..

□□□

ليس أسهل من النجاح لمن يعرف طريقه..

وطريق النجاح هو العمل الجاد المتقن والضمير الحى..

ولا يمكن فى أيامنا هذه أن تنتج إنتاجًا جيدًا ويبور.. لأن سكان الدنيا كثيرون جدًا، وكلهم يشترون، ونحن أنفسنا نذهب إلى كوريا لنشترى البضائع..

وفى هذا العام اشترت شركة ايبريا الأسبانية للطيران طائرات من صنع أندونيسيا، لأنها وجدت أنها جيدة صالحة..

ونحن لدينا بضائع قيمتها ٤٠٠٠ مليون جنيه. وهى فى زيادة - لانستطيع بيعها لرداءتها، حاجة تكسف..

والذى يكسف أكثر هو أن هذه المنتجات من بضائع لا تحتاج إلى دقة عظيمة: أقمشة، جوارب، ملابس داخلية، حقائب سفر، قطع موبيليا عادية جدًا، وما إلى ذلك.. تريد أن تضحك وتبكى فى آن معا؟..

ادخل إلى قسم الأثاث فى أى محل يبيع إنتاج القطاع العام واطلب كرسيًا عاديًا من النوع الذى يستطيع صنعه نجار السواقى أراهنك: لن تجد كرسيًا لا يعرج.. القوائم الأربعة لا تتساوى أبدًا.. حاجة تكسف..

والذى يكسف أكثر أن التقدير السنوى للمصنع الذى ينتج هذه الكراسى يقول: كله تمام يا أفندم!..

(٤)

مجاهدون: قضيتهم الفلوس* !

الصحافة مهنة شرف، والقلم أمانة وكل كاتب جدير بهذا الوصف ينبغى أن تكون له قضية إنسانية عادلة، ومادامت له قضية إنسانية عادلة، فهو مجاهد بالقلم.. ولكن عالمنا العربى يشهد منذ حين ظاهرة الصحفيين الذين جعلوا كسب الفلوس قضيتهم، فكل ما يؤدى إلى الفلوس يكتب وينشر، وهؤلاء الناس ليسوا صحفيين، إنهم تجار باعوا كل شيء حتى الوطن وشرف المهنة، بل صاروا يتقاضون الفلوس على مالا ينشرون لا على ما ينشرون. لأنهم يبحثون عن الفضائح، ويتقاضون المال على عدم نشرها، ولكى يحرروا العالم ذهبوا ليحرروه فى لندن وباريس بل من قبرص.

باستثناء الحاقدين على الدنيا والناس، الذين طمس الله على قلوبهم فهم صم عمى لا يسمعون ولا يبصرون، ويحسبون أن القتل وسفك الدماء جهاد، لابد أن تكون لكل مجاهد قضية يجاهد فى سبيلها. سواء اختلفنا معه أم اتفقنا، فإنه يجاهد مادامت له قضية نابعة من إيمانه بما يجاهد في سبيله. مادام جهاده لا ينبع من مجرد البغض والحقد، ومادام يعتقد أن قضية تتوخى الخير للناس أو لطائفة من الناس فهو مجاهد وجهاده مشروع.

والقضايا والجهاد فى سبيلها على هذا الأساس هما من أكبر أسباب تقدم الإنسانية. مهما كان رأيك فى قضية المجاهد فإنك لابد أن تحترمه مادام فى قضيته جانب من الخير ولو لقومه فقط. لأنه مادام فيه خير ففيه فضيلة وفيه كرامة، وفيه أغلى ما فى الحياة وهى حرية الإنسان.

رغم إنكارنا لحركة الصليبيات التى عانينا منها نحو ثلاثة قرون فلابد أن نقرر أنه وسط عشرات الألوف من المتعصبين والطامعين

---

* نشرت هذه المقالة فى ٣ يناير ١٩٨٢م .

والمضللين والمغامرين الذين قاموا بهذه الحروب، فقد كانت فئة قليلة جدًا منهم لها قضية: قيل لهم إن المسلمين يحولون بين الناس وزيارة قبر المسيح، قيل لهم إن المسلمين أعداء المسيح. هذه القلة كانت مجاهدة رغم أنها كانت مخدوعة، وهى على قلتها هى التى تجعل للصليبيات معنى فى التاريخ.

وعندما قام عماد الدين زنكى بدعوة المسلمين للتجمع لطرد الغزاة المعتدين كانت له قضية ولهذا فهو مجاهد، وعندما استولى على الرها سنة ١١٤٤م. وفتح أبوابها للإسلام وأذن للنصارى فيها بأن يتعبدوا ما شاءوا أصبح اسمه حروفًا من نور فى تاريخ المسيحيين أنفسهم.

ثم جاء ابنه نور الدين محمود وارتد الجهاد إلى نبع الجهاد الصافى وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستيقظت أمة الإسلام على نداء الجهاد وقضية الإسلام المظلوم. وثلاثون عامًا من الجهاد فى ميادين الموصل والشام ومصر جعلت نور الدين محمودًا نورًا لكل دين، جعلته نورًا للإسلام ونورًا لغير أهل الإسلام. وعمورى أو أماليريك المستعمر الذى قام فى القدس على بحر من دماء سبعين ألف مسلم استشهدوا يوم دخل سلفه بلدوين القدس وأعلن نفسه ملكًا عمورى هذا كان إذا ذكر أمامه اسم نور الدين تمشى الخوف فى أوصاله. لأنه كان يحس بالخشوع أمام المجاهد.

وعندما انتقلت راية الجهاد إلى صلاح الدين عرفت أوروبا كلها أنها كانت على ضلال. لأنها وجدت نفسها أمام مجاهد حق له قضية حق. والملوك الثلاثة الذين أقبلوا يقودون الحرب الصليبية الثالثة لعقاب صلاح الدين أحنوا هاماتهم للرجل الذى اقبلوا ليعاقبوه، وواحد منهم وهو ريتشارد الذى لقبوه بقلب الأسد اقبل من إنجلترا ليعاقب هذا المتمرد الذى قيل له إنه اغتصب القدس من أهل النصرانية، وعندما أصابته الحمى وبات ليله يتقلب فى غمراتها أتته كأس من صلاح الدين فيها شراب قيل له إنه ترياق.

وشرب الترياق وأفاق، وشفى به، وعندما علم أن هذه الكأس أتته من هذا الرجل الذى أتى ليعاقبه أحس أنه رجل أقوى منه وأبسل. وقال لقد فعل ما لم أكن أنا ولا غيرى يفعله قط. هذا رجل لا يمكن أن يختلس أو يعتدى. وأزمع العودة إلى بلاده. وعندما قالوا له: تمضى وتترك القدس فى أيدى المسلمين. قال. أما والمسلمون فيهم مثل صلاح الدين فالقدس وقبر المسيح فى يده فى أمان. لقد هزمه صلاح الدين بكأس دواء. يومها عرف أن الإسلام قضية عادلة. ومادام قضية عادلة فأصحابها مجاهدون.

ولست أضرب هذا المثل جزافًا. إنما اخترته لأن له معناه هنا.

□□□

إن القضايا العادلة هى التى تخلق المجاهدين والقضايا الباطلة هى التى توجد القتلة والسفاحين والمضللين والأفاقين وطلاب الرزق الحرام.

وكل جهد لا يقصد إلى خير الناس لا يمكن أن يكون جهادًا. ومادامت لا توجد قضية فلا جهاد.

الاستعمار كله لم يكن له قضية. كانت له مطامع، ولهذا وعلى الرغم مما أبداه بعض غلاة المستعمرين من ذكاء، فإن واحدًا منهم لم يكن مجاهدا. كلهم كانوا لصوصًا: السير ايفلين بيرنج (السير كرومر) والماريشال ليوتى ومونجو بارك وسيسيل رودس كانوا لصوصًا كبارًا. ليوتى عندما قال مرة: لا يمكن أن نحكم الناس رغم تقاليدهم. لابد أن نحكمهم من خلال تقاليدهم.

صفق له أعضاء المجمع الفرنسى إلا أناتول فرانس فقد قال له: ولماذا نحكم الناس أصلا؟ فقال: لكى نحضرهم، لكى ندخل إليهم الحضارة الفرنسية؟ قال: وهل هذا عمل ماريشال وجنرالات وجنود؟ ولم يصفق أحد لأناتول فرانس، لأن الأكاديمى فرانسيز عندما استقبلت صاحب

السيف والمدفع لم تعد أكاديمية. القضية انتقلت إلى رجال التحرير المغربى، أصبحوا هم الذين يعملون الفرنسيين. كانوا مجاهدين ولم قضية.

أما الفاتحون المسلمون فكانوا مجاهدين لأنهم كانت لهم قضية. قضيتهم هى الإسلام ورسالة النور. عقبة بن نافع الذى اخترق المغرب بحد السيف كان مجاهدًا وقضيته الإسلام. لهذا كان موته خلودًا لأنه استشهاد فى سبيل قضية. ومن حواصل الطير وبطون السباع سيحشره الله مع الصديقين والأبرار يوم القيامة. وكان ليونى رجلاً حقيرًا عندما شبه نفسه بعقبة بن نافع ولهذا لا يموت المجاهدون. إنما يخلدون يصبحون شهداء والشاهد والشهيد لا يكون إلا حيا وإن مات جسده.

مارتن لوثر كان مجاهدًا، لأنه كانت له قضية. قضيته كانت تحرير الدين من القساوسة الذين حولوه إلى تجارة، لقد ترجم الانجيل من اللاتينية الذى كان الأحبار يتسترون به وينهبون أموال الناس. كان رجلاً له قضية وكان صادقًا، ولهذا كتب له الخلود. لا يذكر أحد اسم البابا الذى كان يتربع على عرش الكنيسة أيام مارتن لوثر، لأنه كان رجل دين بدون دين. كان محصل أموال بلا قضية.

وكارل ماركس لم يكن مجاهدًا لأن قضيته كانت الحقد. كل كلامه بعيد عن الإنسانية، ولا توجد فى حياته ولا فى سطورة لمحة إنسانية. كان يريد إحراق الدنيا فسلط العمال على أصحاب الأموال. فى نفس الوقت لم يستح من الاعتداء على خادمته وعندما حملت منه طردها. ألقى بها فى الطريق وعاد إلى مكتبه ليكمل المانيفستو. كلماته تقطر السم والدم والدمار. كان هذا الرجل الذى زعم للناس أنه ملحد صهيونيًا متعصبًا وله كتاب يسمى الدولة الصهيونية كان منافقًا وكاذبًا.

ولا يمكن أن يكون المجاهد منافقًا أو كاذبًا. لهذا لم يؤمن بلد بآراء ماركس إلا ركب أهله الذل والشقاء، وأكبر دولة استعمارية عرفها

التاريخ هى دولة الشيوعيين الروس. إنهم استعماريون ولهذا فهم ليسوا مجاهدين وليست لهم قضية.

والكتابة الصادقة جهاد لأن لها دائمًا قضية والكاتب الجدير بحمل أمانة القلم مجاهد لأن له قضية، قضية الإنسانية والحرية وكرامة البشر. فى تاريخنا الأدبى قليلون جدًا كانت لهم قضايا تجعل لهم مكانًا بين المجاهدين. الجاحظ نفسه لم يكن مجاهدًا لأنه لم تكن له قضية. لقد لعن ظلم الأمويين الذى سماهم النابتة، وأيد ظلم العباسيين الذين سماهم الأئمة. إنه رجل بليغ، ولكنه ليس صاحب رسالة.. أنت تعجب به، ولكنك لا تجد خيطًا يربطك به كإنسان.

والمتنبى كان شاعرًا فحلاً، ولكنه لم يكن مجاهدًا لأنه جعل قضيته الفلوس وكل ما عدًا ذلك غطاء. والرجل الذى يمدح كافورا الإخشيدى للفلوس ويذمه للفلوس لا يمكن أن يكون صاحب قضية. لهذا لم يتعلم العرب من المتنبى شيئًا وإن كانوا قد حفظوا شعره. ولا كان أبو حيان التوحيدى مجاهدًا لأن قضيته كانت الفلوس، وبلاغته كانت عبقرية فى التسول. الوحيد من أهل الفكر الذى كانت له قضية فى تلك العصور كان أبا العلاء المعرى قضيته كانت كرامة الإنسان. لقد وضعه الله فى محبس فوضع هو نفسه فى محبس آخر ليكون حرًا، ورهين المحبسين كان المفكر الحر الوحيد فى تاريخ فكرى طويل حافل بالمتسولين الذين كانت قضيتهم الفلوس.

لهذا نحن نحب العقاد ونحنى له هامتنا لأن قضيته دائمًا كانت حرية القلم وكرامة الإنسان. فى سبيل قضيته تلك ضحى بكل شىء، والرجل الذى هز عرش الجبار لم يكن له بيت ولا كانت له زوجة ولا كان له مال. حتى طه حسين لا يسمو إلى شأو العقاد طه حسين كانت قضيته الأولى الوزارة وجهاده السلطان.

ذكرت ذلك كله وأنا أتأمل حال الفكر العربى فى أيامنا هذه. إننى أكتب هذه السطور خارج مصر وحولى صحف ومجلات غربية يكتب

فيها كتاب يسمون أنفسهم مجاهدين. ولكنهم متسولون وقضيتهم الفلوس. لكنهم يكتبون لحساب أصحاب الفلوس ولا أحد منهم يكتب سطرًا في سبيل إنسان مسكين مظلوم مفلس. لا أحد من هؤلاء يجاهد في اليمين أو الصومال، لأن اليمن لا مال عنده والصومال لا خيل عنده يهديها ولا مال، كل ما عنده المنطق والمنطق لا يسعد طالب الفلوس.

كل هؤلاء يهاجمون مصر لأن مصر منذ أيام عبد الناصر لم تعد تدفع.. إنهم يكتبون فى مجلات هى فى ذاتها حيوانات عجيبة كتلك التى يحدثنا عنها الدكتور جوهر فى أحاديثه عن البحار.

ونحن فى عصر من العروبة عجيب، أصبحت الصحف العربية تصدر فيه فى باريس ولندن لكى تصدر إلى البلاد العربية. الصحف نصفها إعلانات ونصفها الآخر تسول، وأنت تقرأ ما فيها فتعجب من مجاهدين كل قضيتهم الفلوس. مادامت هناك فلوس فهناك قضية، فإذا لم تكن هناك فلوس فى قضية وبالتالى لا جهاد.

أصحاب هذه الصحف كلهم لبنانيون. بعد أن خربوا وكنهم لبنان، انتقلوا إلى لندن وباريس بل قبرص وأصبحت وظيفتهم تخريب العالم العربى كله لحساب نفس الذين خربوا لبنان. الأقلام هى هى واليد التى أحرقها السوريون لأنها جرؤت مرة على أن تغضبهم مازالت تكتب فى مجلة الفلوس.. نفس الأقلام التى تكتب بمداد الدماء هى التى ما تزال تكتب هناك.

وفى باريس تصدر مجلة عربية أخرى تسمى المستقبل. نفس الأقلام التى تكتب فيها هى أقلام الحقد الموجه لكل شيء فيه أمل فى عالم العرب. من البديهى أن تكون مصر هنا هى الهدف، والذين يبكون مصر هناك هم الذين لم يعودوا يبكون على لبنان. لأن لبنان لم يعد يدفع. هنا يبكى نبيل خورى على مصير مصر بعد السادات ولا ندرى ماذا يبكيه.

هنا يكتب من يسمى بإبراهيم سلامة.. يبدى خوفه من أن تضيع مصر مرتين.. ولا ندرى متى ضاعت مصر المرة الأولى حتى تضيع الثانية. بعد صفحتين نقرأ أن معلومات الجامعة العربية تقول إن مصر مبارك تنوى حضور قمة فاس. وقد مضت قمة فاس مضت ولم تحضر مصر فأى أخبار هذه؟ وماذا تكون تلك الجامعة العربية التى وصلت منها تلك الأخبار. بعد بضع صفحات تقرأ حديثًا مزعومًا على لسان إبراهيم شكرى يزعمون فيه أنه قال إن كامب ديفيد شق للصف العربى وبديله يعيد مصر إلى العرب.

نفس المجلة تقول بعد ذلك إن دمشق تحمل إلى فاس ملف القوات المتعددة الأطراف. خلاصة المقال أن هذه الجريدة العجيبة لا يعجبها اشتراك دول غرب أوروبا فى قوة حفظ السلام. معنى ذلك أنها - لا إسرائيل - لا تريد لسيناء أن تستقل. أى عربى فى الدنيا يمكن أن يضيره تحرر سيناء. وأهل الرأى السديد عند هؤلاء السادة هو أن تقوم مصر مثلاً بدعوة إسرائيل لاحتلال سيناء مرة أخرى والاستيلاء على قناة السويس لكى نقوم نحن العرب بتحريرها مبتدئين من فاس؟.

بعد قليل نقرأ أن ليبيا تربح المعركة الدبلوماسية لانسحابها من تشاد ولا نفهم أصلاً ماذا يريد أن يقول الكاتب. هل فهم أحد فى الدنيا لماذا كانت ليبيا فى تشاد، وهل ليبيا موجودة فى ليبيا لتكون موجودة فى تشاد؟.

ومجلة عجيبة أخرى تصدر فى قبرص للدفاع عن العرب. إنها لبنانية مهاجرة، وسبب الهجرة أن أصحابها كانوا فى بيروت يستولون على حصة ضخمة من الإعلانات العالمية، فإذا توقفت المجلة عن الصدور ألغى عقد الإعلانات، ولهذا فلابد أن يستمر صدور المجلة، ومادام صدورها فى بيروت قد أصبح عسيرًا ومحفوفًا بالأخطار، فلتهاجر المجلة كلها إلى قبرص، ولتصدر من هناك حتى يستمر سريان العقد

ويستمر سيل الإعلانات، وهذه الإعلانات لا تنهال على تلك الصحية لأنها تبيع مئات الألوف، فإنها فى الواقع لا تبيع إلا ألفين أو بثلاثة آلاف عدد.

إنما هذه الإعلانات تأتى لتحل محل كلام، يقول أصحاب المجلة إنهم يريدون نشره، ولكنهم يتوقفون عن النشر إذا دفع لهم ثمن مناسب، وهذا الكلام هو فى الحقيقة أسرار فضائح ورشى تدفع لموظفين، وهذه الرشى تدفع لموظفين أو شخصيات من شركات عالمية لترسو عليها الصفقات، وقوة هذه المجلة أن أصحابها يعرفون هذه الأسرار وهم يهددون بها، فترى الشركة التى تدفع الرشوة أن الأفضل لها ولعملائها أو سماسرتها أن تشترى السكوت بنشر إعلانات تدفع فيها مبالغ طائلة.

وهكذا نجد المجلة التى لا تبيع إلا ألفين أو ثلاثة حافلة بالإعلانات العالمية، لأن المجلة لا تعيش على ما تنشر بل على ما لا تنشر. لا تكسب بما تقول بل بما لا تقول، وهذا نوع من الصحافة. عجيب، صحافة التهديد بالنشر أو البلاك - نيلنج أى خطابات. التهديد التى ترسل للناس لكى يدفعوا وإلا.. فهى خطابات سوداء ومن ثم فإن هذه الصحافة سوداء.

وقد راجت سوق هذه الصحافة السوداء فى بيروت رواجًا هائلاً وكسب أصحاب الصحف فيها أموالاً لا تصدق، لأن بعض أصحابنا أصحاب الفلوس يحبون - إذا هم نزلوا باريس أن يقضوا لياليهم فى نوادى القمار وبيوت الرذيلة، وإذا ذهبوا إلى لندن كان نادى البلاى بوى مقرهم المختار، وأصحاب الصحف لهم بالمرصاد، فهم ينتظرونهم فى النوادى، ولهم جواسيسهم ومصوروهم.

ولا يكاد الإنسان الساذج المثقل بالأموال يصحو من ليالى الشيطان حتى يزوره مندوب الصحيفة. وربما مندوبتها وهى فى الغالب صفراء الشعر وردية الخدود، وأمام الإغراء يذل صاحبنا، وهنا تفتح الشقراء حقيبتها وتخرج صورًا وتبيعها لأخينا بملايين؛ لأن نشرها يؤذيه، وهو

فى الغالب صاحب أعمال أو سيد عظيم تمر من تحت يديه الأموال، ومليون فوق أو ثلاثة لا تفرق، وبدلاً من النشر والفضيحة تدفع الفلوس بعضها نقدًا وعدًا وبعضها فى صورة إعلان، وهكذا تكسب المجلة – أو الجريدة – طالعة نازلة كالمنشار. إذا طلعت كسبت وإذا نزلت كسبت، لهذا تستمر هذه الصحف فى الظهور من لندن وباريس وقبرص.. وربما من كماتشاكا. المهم أن يكون لها مكان تطبع فيه، لأن الطباعة والنشر هى التى تهم.

تلك هى الصحافة السوداء حقًا. صحافة المجاهدين الذين قضيتهم الفلوس، والفلوس التى تعز على الرجل الشريف لا تعز على غير الشريف، والمرأة الشريفة تشقى لتعيش، وغير الشريفة تستريح لتعيش، وكل الفرق فى نظرتك إلى الشرف أو إلى عدم الشرف.

ولأن هذه الصحف والمجلات كثيرة الإعلانات أنيقة الطباعة فإن (البرىء المغفل) يظن أنها رائجة السوق واسعة البيع، فيدفع لها بسخاء لكى تنشر عنه، ومادام قد دفع لها بسخاء فهو سيدفع لها بسخاء أكثر لكيلا تنشر عنه، وتلك هى الحياة (ولا أقول المدرسة قط). الصحيفة التى أزهرت وأينعت فى بيروت، فهناك يا مولاى أينعت وأزهرت صحف قاتمة السواد.

وظهر كتاب صحفيون يكتبون بلغة (أكلونى العفاريت) وأسماؤهم أشياء مثل إدوار معلوف أو جورج متلوف أو رينيه منتوف أو كرزه مزلزل أو جيعة مغيغب، وهذه مجرد أمثلة خطرت بالبال ولا صلة لها بالواقع، وهؤلاء هم الذين تصدوا – فى غياب الصحافة المصرية عن الأسواق العربية – لكى يعلموا العرب، وينوروا العرب، وهم دائمًا أساتذة أخلاق واساطين شرف ويا ويلك من المرأة التى لا تتحدث إلا عن الشرف.

وواحد من هؤلاء مثلاً يكتب فى صحيفة من تلك قبل مؤتمر فاس يقول: (لو كنت جنديًا إنكليزيًا أو فرنسيًا أو إيطاليًا أو حتى مالطيًا

لعصيت أوامر قيادتى العليا، ورفضت الالتحاق بالقوة المتعددة الأجناس التى سينسونها على خطوط النعاس بين مصر وسيناء بعد الانسحاب الإسرائيلى الكامل فى نيسان / أبريل القادم من آخر شبر من الأراضى المصرية).

لو كنت جنديًا فى أحد جيوش هذه الدول لفررت إلى ليبيا مثلاً وأخذت جائزة، أو إلى سان سلفادور أو غواتيمالا أو جنوب أفريقيا أو إلى مكان آخر فيه بنويش (كذا) إلا على خطوط التماس فى سيناء لأن خطوط التماس فى بيروت بين الكتائب والردع أرحم ألف مرة فعلى الأقل تعرف لماذا أنت هناك. تعرف مثلاً أن عليك أن تطلق كل نصف ساعة رشقًا من الدوشكا ثم ترتاح ٣٩ دقيقة، وفى الليل تطلق رشقا كل ١٥ دقيقة ثم ترتاح ١٤.

أما على خطوط التماس المصرية الإسرائيلية فماذا أفعل؟. مادام الطرفان متفقين وأكثر من متفقين، مادام يحق للإسرائيليين أن يدخلوا وقت يشاءون! ومادام لا يحق للفلسطينيين الدخول إلى الأراضى المحتلة مطلقًا. مادامت سأتصبح يوميًا بسيادة الرائد عبد المعطى عبد العظيم بعد ليلة لا تتمناها لعدوك من شخيره وغطيطه، مادام سيأتينى الكولونيل رافائيل كل يوم عارضًا خدماته ومساعدته للتدليل على مدى كرم الإسرائيليين وتعلقتهم بالسلام.

ماذا أفعل هناك مادام ريغان وبيغن يعرفان مسبقًا ان لا شىء سيحدث حتى القوة المتعددة الجنسيات فى جنوب لبنان أفضل لكثير، على الأقل يتصبح الإنسان بكوفية مرقطة أو بأحد رجال سعد حداد الذى تعب كثيرًا فاستقال.. وعلى الأقل فإن ريغان وبيغن لا يعرفان مسبقًا ماذا سيحدث.

وكفى إلى هنا من خفة دم الأستاذ فيليب برطوش. لأن خفة دم (القلعوط) تكاد تقتل والعياذ بالله.

وكان هذا قبل مؤتمر فاس، ومن المعروف أن دولة عربية كانت تحمل إلى قمة فاس مسودة قرار بتهديد كل أوربا إذا جرؤت إحدى دولها على الاشتراك فى قوة حفظ السلام بين مصر وإسرائيل.

ولا يهم أن المسودة تحولت إلى مبيضة أم لم تتحول، لأن المهم أن صاحبنا قد قبض الثمن.

□□□

هل رأيت الإشارة إلى سعد حداد؟.

إذن فلتعلم أن هؤلاء جميعا سعد حداد؛ لأن سعد حداد يمثل الأمل العظيم عند أولئك الناس، فهو يمثل الحقد الصليبى على المسلمين فى لبنان، ولهذا فهو لا يريد الفلسطينيين هناك، ولأنه لا يريد الفلسطينيين فهو مع إسرائيل قلبًا لا قلمًا، لأن أولئك الصحفيين لا علاقة عندهم بين القلب والقلم قط، فالقلب ملىء بالحقد على المسلمين فى لبنان وفى غير لبنان. أما القلم فهو للبيع.

وعند هؤلاء الصحفيين فإن كل شىء قابل للبيع حتى الوطن. ولبنان نفسه باعوه، باعوه مرة وباعوه مرتين وثلاثًا، ومازالوا يريدون بيعه مرة رابعة وخامسة. وبعد أن باعوه هربوا إلى لندن وباريس ونيقوسيا. ومضوا يساومون على بيع العرب جميعا، وفى فاس لم يستطيعوا بيعه لأن السوق انفضت قبل أن يفتح الدكان، ربما بسببهم.. ولا يعرف إلا الله سبحانه وتعالى مقدار ما دفع لهؤلاء الصحفيين قبل ذلك المؤتمر.

□□□

والآن وقد وقع ما وقع فى فاس، هل تتفتح الأعين يا ترى لترى ولو جانبا من حقائق الأشياء؟.

ولو أن الأقلام التى كتبت فى الصحف عن ذلك المؤتمر كانت نظيفة وباستثناء جرائد الجزيرة العربية - ربما كانت هناك إمكانية لعقد مؤتمر عربى ينفع العرب، ولكن هؤلاء السادة الذين يبيعون مال النبى ضللوا الناس وخدعوا الجميع فكانت النتيجة أن حقائب بعض الدول التى

كانت ستشترك فى المؤتمر كانت مليئة بالمتفجرات. ولكن التوقيت أخطأ وانفجرت القنبلة قبل موعدها.

كم أتمنى أن يفتح العرب أعينهم ويعرفوا أن القلم جهاد وأن صاحبه لابد أن تكون له قضية، وما لم تكن له قضية فهو لص وأفاق.

وفى إحدى هذه المجلات كتب صحفى مصرى نحبه ونحترمه لأنه نشأ تلميذًا فى مدرسة الصحافة الشريفة وتخرج على أيدى الشيوخ ثم أصبح أستاذًا.. كتب مقالاً عنوانه (ملاحظات حول مهنة الكتابة الصحفية).. ومضى يتحدث عن الشرف المهنى وجلال القلم لناس لا يعرفون من شرف المهنة إلا ثمن هذا الشرف، ولا يعرفون من جلال القلم إلا ما يؤتيه من مال حرام.

كتب الأخ الطيب وصال وجال، ويبقى بعد ذلك السؤال: ما الذى يجعل القلم الشريف يكتب فى الميدان غير الشريف؟ الجواب يجده الكاتب الأستاذ الذى نحبه فى الصفحة التالية لمقاله: إعلان عن عطر فرنسى! موضع هذا الإعلان كان ينبغى أن تكون فضيحة، والإعلان ثمن عدم نشرها؟..

فلماذا يجرى قلمك النظيف هناك وأنت الحصيف الأريب؟..

لقد عرضوها علينا فأغنانا الله عنها، ولسنا بأذكى منك يا أخى أو أعلم، ولكن أحيانًا يضل الذهن ويشرد الخاطر ويؤذن المؤذن عند قدمى تمثال هبل أو اللات والعزى..

(٥)

طفل (عليل) على ذراع متسولة* !

هذه المرأة القارحة الغليظة الوجه التى لا تتعب من التسول.. أنت تعرفها، إنها واحدة من نسوان كثيرات يملأن نفسك ألمًا وخجلاً، لأنهن أخذن طفلاً بريئًا مسكينًا واستخدمنه وسيلة للتسول وجمع القروش.

وهذا الطفل العليل المسكين الذى تعذبه هذه المرأة وشبيهاتها، وتحمله على كتفها زاعمة أنه مريض مسكين، هو فى الحقيقة طفل عزيز عليك، إنه قطعة منك ولهذا فأنت تتمنى أن تنتزعه من أيديهن القاسية، وتضعه حيث يلقى العناية والعطف الإنسانى، ويشب رجلاً سويًا ويسير على قدميه.

إن هذا الطفل فى الحقيقة ليس مشكلة، فهو ليس مريضًا أو عليلاً، ولكن المشكلة هن أولئك النسوة القوارح المتسولات.

لا سبيل إلى الحياة الكريمة لهذا الطفل إلا إذا تخلص من أولئك المتسولات به، اللائى جعلن منه مأساة، وما هو بمأساة على الإطلاق.

امرأة (بالملاية اللف) على قارعة طريق.

على ذراعها طفل عليل ملقى على الكتف كأنه خرقة هالكة، المرأة بطفلها على الرصيف، لا يمر إنسان إلا أسرعت إليه: (شىء لليتيم يا سعادة البيه.. شىء لله يا ست هانم.. حاجة للولد الغلبان ده يا محسنين)!.

وتظهر إشارة المرور الحمراء وتتوقف السيارات، المرأة تقفز بالطفل، كأنها شيطان، ومن سيارة لسيارة تستعطف للطفل وتتسول باسمه، وتمتلئ الكف الممدودة بخمسات القروش تندس فى الجيب. وتخضر

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٤ يناير ١٩٨٢م.

إشارة المرور وتنطلق السيارات، وتقفز الشيطانة إلى الرصيف الآخر وتمضى عملية التسول، وتمتلئ اليد بالقروش، ربما بالخمسات ويستقر ذلك كله في الجيب.

وهكذا من أول النهار إلى آخر النهار.

وطول النهار والطفل المسكين على الكتف كأنه خرقة مبللة ملقاة على مسند كرسى قديم، أحيانًا يصحو ويتلفت حوله، وأحيانًا يبكى، وتمد المرأة القارحة يدها التى لا تغسل أبدًا وتخرج كسرة خبز تناولها للغلام، الغلام يلقى بها إلى الأرض لأنه ليس جوعان بل عطشان، والمسكين مبلل ملتهب الجلد، والمرأة لا وقت لديها لتسقيه، ولا صبر عندها لتنظر فى ثيابه المبللة وجلده المهترىء. وتشعر هى بالعطش، فى حارة مجاورة يقف بائع خيار، تمضى مسرعة نحوه لتشرب وتعود إلى موقعها، فهى لا تطيق أن تفقد خمس دقائق من اليوم.. بائع الخيار الطيب يعرفها ويقول لها:

– ياولية، الولد هلك.. ارحميه شوية.

وبكل وقاحة تقول المرأة وهى تكرع من كوز ماء:

– حرام عليه.. الولد هلك! وأنا ما هلكتش..؟ طول النهار شايلاه على كتفى زى الحجر.

– ده الولد مبلول غرقان ياولية حرام عليك.. غيرى له ثوبه ولباسه، نشفيه.. أنت تجمعين من ورائه الذهب.

– دهب ايه يا حسرة، وهل بقى فى الدنيا محسنون.. والله يا عم عطية ما جمعت إلى الساعة ما اشترى به غذائى.

– طيب هاتى الوالد ياولية، أنا أغسله وأشوف له حاجة ناشفة من عندى ألفه فيها.

- طب بالعجل.. ليس عندى وقت لك أو له.

ويأخذ الرجل الطفل وهو بقول: لا حول ولا قوة إلا بالله يـارب.. ده الولد ميت من العطش ياولية.. وهدومه مبلولة تنعصر.

ويرقد الرجل الطفل على جانب من عربـة اليـد إلى جـانب الخيـار، ويأمر امرأته بأن تتولى عمل البيع بينما هو ينزع ملابس الطفل، ويغسـله بالماء البارد وتناوله امرأته خرقة جافة يجفف الطفل بها، ثـم يلفـه فـى خرقة أخرى. وتأخذ المرأة خيارة فتناولها للطفل.. ويقول الرجل:

- لا ياولية.. هذا الطفل صغير لا يأكل الخيار.. روحـى هـاتى بـاكو بسكوت من البقال ده.

- بسكوت؟ منين يا حسرة.. وهـل أنـا وجـدت الخـبز حتـى أطعم (مقصوف الرقبة) هذا بسكوتا؟ لقد دفعت لأمه ثلاثين قرشا إيجارا قبـل أن أتسلمه.. ثم تقول لى أن اشترى له بسكوتا؟..

- ياولية وانتى فى جيبك جنيهات من وراء هـذا المسكين.. افرضـى أنك أخذته من أمه بخمسة وثلاثين قرشا.

- يفتح الله يا عم عطية.. عاوز تجيب له أنـت بسـكوت والا حتـى بقلاوة هات له أنت.. وأنت - عينى عليك باردة - جيبك مليان.

ويأمر الرجل ابنا له يلعب جواره بأن يشترى باكو بسـكويت بعشـرة قروش، ويكون الطفل قد انتعـش مـن هـذه (الإغاثـة) أو الغـوث.. التـى تداركه بها الله، وينجلى وجهه جميلاً لطيفًا بعـد أن اغتسـل وشـرب، ويأتى البسكويت فيأكله والمرأة كالشيطان تتململ، إنها تريد أن تخطف الطفل وتجرى به إلى موقف التسـول المختـار، ولكـن الرجـل يستمهلها ويأكل الطفل ويضحك، ويتألق وجهــه الوسيم وتبـدو عينـاه السـوداوان الجميلتان، ويأتى ابن عم عطية ليلعب معه، المـرأة ينفـد صبرهـا. إنـها

لا تطيق رؤية السيارات تقف عند إشارة المرور وفيها سادة في جيوبهم مال، يمكن أن يجودوا منه بشيء، فتخطف الطفل، وتخطف من يد الرجل بقية البسكويت وتدسه في فمها، وتمضي إلى قارعة الطريق.

والغلام المسكين روعه ما فعلته تلك القاسية فبكى، وسرت المرأة ببكائه فاسرعت في خطوها لأن بكاء الطفل يعتصر قلوب المحسنين، ومن رصيف لإشارة مرور، ومن إشارة مرور إلى الرصيف الآخر، واليد القذرة تأخذ الخمسات والقروش وتضع في الجيب الذى لا يمتلئ أبدًا. وييأس الطفل من الرحمة ويدركه التعب فيرتمى رأسه على الكتف وينام، وعلى الدموع تقفل عيونه، والشيطانة تقفز به من ناحية لناحية وتمضي ساعات النهار.

في آخر نهار مهلك تعود المرأة بالطفل إلى الحارة التي تقطن فيها، قبل أن تأوى إلى دارها تمر ببيت أم الطفل وتلقى بهذا (الشيء).. الذى قضت النهار تحمله على كتفها تقسم بالله إنها ما كسبت به قدر ما دفعت، الأم شقية كثيرة العيال ولها زوج كأنه الضبع التي تعيش على الرمم.. هذه الزوجة في نظره (رمة) يتشممها آخر الليل ليأخذ منها ما بقي في جيبها من قروش. إن له منها سبعة أولاد أو ثمانية كلهم يعيشون على قوارع الطرق، بعضهم على أقدامهم، والباقى على أكتاف نسوان كهذه التي كنا معها..

هذه المرأة حاملة الطفل لتتسول به هي في نفسها ضبع، ولها زوج ضبع مثلها، إنه يلم بها آخر ليله التعيس ليقضي معها وقتًا تعيسًا ولكنها ترضى به، فقد ماتت في كيانها الإنسانية من زمن طويل، في العادة هي تعد لهذا الزوج الشقي الذى يعيش عمره يتشمم الرمم شيئًا من طعام، وهي رغم شقوتها تطعمه وتسعد به لحظات كما تسعد أى ضبع إلى جوار ضبعها، ولكى تزيد سعادتها فهي تتحرى أن تصنع له

طعامًا يرضيه فهى ميسورة الحال وهى لا تعطيه قط كل ما تجمع ولا نصفه ولا ربعه، وهى تعرف كيف تخبئ المال فى جحور أو تحت بلاطات أو فى مراتب آمنة كأنها البنوك السويسرية.

والأم الشقية بكثرة العيال لا تموت فيها الأمومة أصلاً، إنها تغسل طفلها وتطعمه وتغير ملابسه.. والطفل ينام منهوك القوى لقد شرب وأكل أيسر ما يؤكل ونام كما ينام كل طفل، بينما تكون الضبع الأخرى مع ضبعها فيما تتصور أنه متاع بفضل القروش التى تدفعها له، وهو كذلك يسعد بما يعطيها من لحظات، ولكنه أسعد بما تعطيه من مال، فهو عاطل حرفته استغلال أولاده، وهو بالنهار على المقهى، منظره يذكرك - من بعيد جدًا - بأحلاس مقاهى الشانزلزيه والفيافينيتو وشواطئ بحيرة جنيف أو بحيرة ليمان أولئك المياسير الذين ينامون فى أفخم الفنادق وينفقون عن سعة، لأن مورد رزقهم مضمون مأمون.. كله من مال المحسنين.

وفى ساعات الفجر يتقلب الطفل المسكين فى فراشه على الأرض فى البيت المظلم الواقع فى شارع أشد ظلامًا، إنه يتقلب ويصحو ويبكى، وتنهض الأم فتسقيه وتغير خرقه البالية بخرق أخرى وتربت عليه لينام، فعن قريب يطلع النهار وتأتى الضبع لتنقدها القروش وتلفع (المسكين) على كتفها، وتمضى به كالشيطانة إلى قارعة الطريق لتقفز به من الرصيف إلى السيارات إلى الرصيف الآخر.

□□□

والذى يعنينى فى هذه الصورة الحزينة هو الطفل المسكين. لأن النساء اللائى مررنا بهن أمرهن معروف، فإنهن نسوان قوارح جامدات الأصداغ بلا حياء، وسنتحدث بعد قليل عن حاملة الطفل أو حاملات الأطفال متسولات بهم لأنهن فى حقيقة الأمر سبب مأساة هذا الولد

المسكين، وأذكر أن منظر الطفل آلمنى يومًا بعد يوم. وفى ذات مرة لقيت إحدى النسوة على الرصيف فقلت لها: إذا كان أمر هذا الطفل يشقيك إلى هذا الحد فما يمنعك أن تعطينى إياه. وأنا أمضى به إلى دار حضانة وأتكفل بنفقاته جميعا، لأنه ليس من العدالة أن تحمل عبئه امرأة فقيرة مثلك غير قادرة على القيام بشئون نفسها فضلاً عن شئون طفل صغير؟.

قالت: أعطيك إياه؟ أنا أمه التى أنجبته كيف أعطيه لرجل غريب؟.

– ستظلين أمه، وسيظل ابنك يا ست، وكل الذى سأفعله هو أننى سأتولى نفقات تربيته تربية صالحة، وهناك دور تقوم بهذه المهمة، فأضعه فى واحدة منها وأقوم بكل نفقاته وأنت تظلين أمه، وتزورينه.

– وماذا أقول لأبيه؟.

– أبوه؟ أما تقولين طول النهار أنه يتيم.

– قصدت زوجى وهو ليس أباه.. لا يا سيدى هذا مستحيل فهذا الغلام ابنى ولا أطيق فراقه.

وسمع الشرطى طرفًا من الحديث فأقبل نحونا وقال:

– يا سعادة البيه لا تتعب نفسك. هؤلاء نسوة لا يعلم بحالهن إلا الله سبحانه، وهذا الغلام ليس طفلها ولا هى تعرفه، إنما هى تستأجره لتتسول به.

– لا يعنينى أمر هذه المرأة أو غيرها يا حضرة الباش – شاويش، إنما يعنينى أمر الطفل فإن صحته تسوء ومستقبله يضيع، وما هو مصير هذا المسكين الذى تتبادله الأكتاف والأيدى؟.

– الطفل نفسه ليس مشكلة، إنما المشكلة هى مشكلة أولئك النسوة، ففى الحارة التى أسكن فيها عشرات الغلمان مثل هذا، ولا بأس بهم

ولا خوف على مستقبلهم فهم أطفال فقراء يتربون فى أحضان آبائهم وأمهاتهم ويشبون كما يشب غيرهم، ويتعلمون صنعة وقد يذهبون إلى المدرسة، ولكن مستقبلهم لا يضيع على أى حال، ولكن مصيبة هذا الطفل وأمثاله أن أمه بلا قلب، فهى تفرط فيه وتؤجره لمثل هذه المرأة التى تحاول أنت أن تقنعها بأن تعطيك إياه، وأنت لو تحدثت إلى الغد ما أجابتك إلى ما طلبت لأنها ترتزق منه، إنك تحاربها فى رزقها عندما تحاول إنقاذ هذا الطفل من يديها، وكلما كانت نيتك أحسن هى أكثر عنادًا.. والله يا سيدى لو أنك قلت لها إنك ستربيه على نفقتك حتى يدخل الجامعة لصرخت وقالت إنك نصاب خطاف أطفال وشهرت بك وتسببت لك فى فضيحة، لأن رأس مالها هو تعاسة هذا الطفل.. أتصدق بالله؟ هذه المرأة وأمثالها أغنياء من وراء أولئك الأطفال، وعندنا فى حارتنا امرأة أثرت واقتنت العقار من وراء مثل هذا الطفل.. إنها غنية ذات مال، فهى تكسب فى اليوم الواحد من الطفل الواحد ما بين خمسة جنيهات وثمانية وربما عشرة ومع ذلك فما زالت إلى يومنا هذا (تسرح) بالأطفال عل قوارع الطرق مرة فى الزمالك وأخرى فى الحسين وثالثة فى السيدة زينب، وفى الليل بعد أن تعيد الطفل إلى أمه أو أهله تعود إلى بيتها وتستحم وتتزوق وتبقى هانم معتبرة وميت ألاجه، حاجة من اتنين يا سعادة البيه: إما أن يظل الطفل المسكين تعيسًا كما ترى، أو تكون المرأة تعيسة فقيرة، وهى غنية موسرة لأنه تعيس غلبان، فإذا انتهت تعاسته فمن أين تعيش هى عيشة الملوك؟ والله يا سعادة البيه، إن لى ولا مؤاخذة ابن عم لا ينجب – بعيدًا عنك – وقد حاول كثيرًا أن يأخذ طفلاً من أولئك النسوة ليربيه ويتبناه فرفضن جميعا، بل قالت واحدة منهن له:

– تتبناه وتربيه؟ وأين أهله وذووه؟. أحسبت أن لا أهل له لأنه فقير؟.

– وماله الفقر؟ عيب؟ ومـاذا تريديـن منـه أنـت ايتـها الغريبـة عنـه المدعية الوصاية عليه؟ إنه غلام ذكي موهــوب. وسـيعيننى الله علـى أن أربيه وأعلمه وأدخله الجامعة نعم، الجامعة! ولماذا لا يدخل الجامعـة؟ هل الذين يدخلون الجامعة أحسن منه؟.

– دع غلامنا لنا ونحن نربيه وابتعد أنت عنا وإلا خربنا بيتك.

ومضى الشاويش يقول: هذا ما أصــاب أخــى يـا سـيدى وكـان يريـد للطفل أكثر مما أردت أنـت، كـان يريـد أن يتبنـاه وصبـح أبـاه ويتـولى شئونه كلها حتى يشب ويضرب في الحياة كغــيره مـن الأولاد، فتجـئ هذه القارحة وتزعم أنها أمه وأنها هى التـــى ستربيه ولا ترضــى لـه إلا بالجامعة!.

وكانت المرأة قد هربتِ بـالطفل، وفـى طريقـى إلى البيـت هتـف فـى نفسى هاتف، هذا الطفل أنا أعرفة.. إننى أعرف مأسـاته بـل لأعيشـها فعلاً فهى إلى حد ما مأساتى أنا أيضًا.. وهذا المشهد الذى رواه الشاويش سبق لى أن شهدت مثله.. أين يا ترى؟ وعلى باب بيتى جاء الرد:

المشهد رأيته فى أحد أروقة هيئة الأمم فى نيويـورك.. كنـت ملحقًا بوفـد بـلادى فـى إحـدى دورات هيئـة الأمـم. وكالعـادة كـانت قضيـة فلسطين على الأجندة، وستظل على الأجندة فيمـا أعتقـد زمانًـا طويـلاً. وكنت أتصفح الأوراق فى أحد الاورقة وترامت إلى سمعى أطراف حديث من منضدة مجاورة واستولت هذه الأطراف مـن الحديـث علـى سمعـى، وإذا بواحد من المتحدثين يقول:

– والله يا جماعة إن المشروع الذى تتقدم به الدولة الفلانيـة لا بـأس به، إن قضية فلسطين قد طالت وتعقـدت، وكمـا تعقـدت علـى مراحـل فإن حلها لا يكون إلا على مراحل. وخطوة خطوة ومع مـرور الزمـن قـد

تنحل المشاكل واحدة بعد أخرى. وفى يوم من الأيام لابد أن تنحل كلها ويستعيد شعب فلسطين حريته وأرضه ويسير فى طريقه.

ورد عليه زميل له فى صوت حاد عصبى:

- أولاً وقبل كل شىء قضية فلسطين هذه قضيتنا نحن.. نحن أهلها وأصحابها وممثلوها ولا ممثل لها غيرنا.. وأيا كان الحل المقدم فهو مرفوض لأنه بالذات لم يأت منا، ما هى الحكاية نحن أحياء ويتكلم غيرنا فى شأن فلسطين؟.

- ولكنك يا أبا فلان تقول إن فلسطين قضية عربية.

- لا يا أبا علان، أنا لم أقل ذلك ولا يمكن أن أقوله، إن قضية فلسطين قضيتنا نحن بالأمومة والأبوة.. ولكنها قضية عربية بالمعاونة والمساعدة.. من يريد أن يعطى من يريد أن يتكرم فليعطنا نحن، ونحن نتصرف، نحن رجال أشداء وقدها وقدود. نحن نعرف القضية ولا أحد غيرنا يعرفها، نحن وحدنا نمثل القضية فى الأرض المحتلة وخارج الأرض المحتلة، نحن نشترى السلاح ونتدرب ونضحى ويريد صاحب هذا المشروع أن يحرمنا ثمرات تضحياتنا؟ نحن وحدنا سنصل بفلسطين إلى الاستقلال الكامل، نحن سنحرر الأرض كلها ولهذا فنحن لا نقبل التهاون أو التفريط وكل فكرة لا تأتى منا فهى فى انهزامية استسلامية.. ما شاء الله!..

نحن نضحى وهم يفوزون بالتمر!..

ونظرت إلى الجماعة لأرى هذا المعصوصب المتحمس أتقرى فى هيئة آثار التضحية التى يتكلم عنها فرأيت شابًا أنيقًا يلبس بدلة من أثمن وأغلى ما عرفت وعليه قميص يقول لك من بعيد إنه تفصيل من صنعه بيير كاردان دون سواه، والحذاء جلد كأنه الحرير يتلألأ ويشع ويضىء،

وربطة الرقبة كما يقولون فى الحكايات (خيط لولى وخيط زمرد) والشعر جميل مسبسب فى صالون الفندق وفى اليد ساعة ديجيتال من ذهب ذى بريق، وفى اليد خاتم له فص كأنه الكوهى نور، وأمامه (شنطة) جلد ليزار وهى السحلية الفرنسية أو السويسرية التى يسمونها سلاماندر.

واستحييت من نفسى أنا الذى لا أضحى ولا أتحدث عن بطولة قط، فهذى بدلتى الغلبانة التى يرجع عمرها إلى أوائل سنواتى فى مدريد، صنعة ترزى الغلابة فى شارع فوينكارال وقميصى يا حول الله - اشتريته بسبعة دولارات أو ثمانية من متجر صغير فى شارع الفندق ورباط الرقبة قطعة قماش أسود، فقد كان ذلك بعد نكبة ١٩٦٧م ومن يومها إلى نصر أكتوبر لم أنزع الحداد، ثم عدت ألبسه بقدر من الله فى يوليو ١٩٨٠م.

وقالت نفسى لنفسى.

- إن معلوماتك فى حاجة إلى تصحيح، فإن التضحية كما أراها الآن تختلف عما كنت تقول لى وتزعم! انظر وتأمل التضحية ورمزها لتصحح معلوماتك. إنها هكذا بالضبط كما تراها بعينيك هذا معناها فى قاموس العرب الحديث صنعة الأب المارونى اليسوعى المعلوف. معلوف بماذا؟ لا أدرى ولكنه هكذا معلوف! أما المعانى التى تضحك بها علىَّ وتقول إنها من لسان العرب لابن منظور أو من تاج العروس للمرتضى الزبيدى فكلام قديم انتهى أمره وفات.

وبينما الحوار يشتد وصاحبنا المسحنفر المستعصب يكاد ينفجر من فرط الحماسة وحرارة التضحية جاء قوم عليهم سيما وجهاء العرب وجلسوا إلى منضدة قريبة ونظرت إليهم فرأيت علائم الأصل والشرف والحسب والنسب، وجلسوا يتحدثون فى أدب وتواضع وصوت

خفيض.. ولمحهم المسحنفر المستعصب فما أسرع مازال غضبه وانفرجت أساريره ورق وهش وبش ونهض إلى أهل الأدب والحسب والمال والحياء فحياهم بتحية الملوك واستأذن فى أن يجلس فأذنوا له، ومضى يتحدث فى ظرف ولياقة ويخرج أوراقًا من حافظته ويدخل أزراقًا وهو لا ينفك بنظر إلى الوجوه الوسيمة التى يتحدث إليها حتى إذا هز رئيسهم أو كبيرهم رأسه بالايجاب وأذن لابتسامة الرضا أن ترتسم على محياه فارتسمت، انتقلت البسمة إلى الوجه الذى كان منذ حين غاضبًا ينفث الشرر، وزاد الرضا فزادَت الابتسامة وأصبحت من الأذن إلى الأذن، ولا أدرى ماذا قال ولا ما قيل له، ولكنه عاد بعد قليل إلى أصحابه وقد انصرفت جماعة الحسب والشرف والمال، عاد سعيدًا مشرق الوجه وأغلق حافظته من جلد الليزار - وهو بالسويسرية - السلاماندر كما قلت لك - وأخرج منديل العافية ومضى يمسح عرق الجهاد وسمعته يقول لأصحابه:

- لقد تعبنا وسئمنا يا جماعة.. ما رأيكم فى (درنك) عند (أولد جيمى) ثم نتعشى فى روف السفن ستارز؟.

ومضوا ونظرت فى ساعتى، كانت السادسة والنصف، كانت الجلسة فى قاعة الجمعية العامة قد بدأت من لحظات فمضيت أهرول إليها. وخطرت ببالى وأنا أشد فى خطوى صورة المرأة القارحة الرابضة على ناصية الشارع بالطفل الغلبان على كتفها وهى تقفز كالشيطانة من الرصيف إلى السيارات التى وقفت فى انتظار إشارة المرور الخضراء، ما أجمل النور الأخضر! إنه يفتح لك الطريق ويبعث ابتسامة الرضا على الوجه الوسيم ذى الحسب والمال. وبأذن لصاحبنا المضحى بأن يتناول (الدرينكس) عند أولد جيمى والعشاء فى روف السفن ستارز.

والشاويش الطيب كان على حق فى كل كلمة قالها.

وعم عطية بائع الخيار الوحيد الذى رحم الطفل وسقاه وأطعمه وبدل له ثيابه، هذا لن يذكره أحد، إنه مثلى ومثل قواميسى البالية صنعه

ابن منظور ومرتضى الزبيدى كلنا أشياء قديمة باليه واين نحن من المعانى الحديثة التى يتضمنها قاموس المعلوف. معلوف بماذا؟ لا أدرى، ولكنه هكذا: معلوف.

والطفل؟ هل يظل هكذا أبدًا عليلاً على الكتف؟ هل قضى عليه بأن يكون وسيلة للتسول؟ يبدو ذلك فى رأى هذه الطائفة من المتحمسين المجاهدين عند أولد جيمى والشقق الفاخرة فى جنيف ونيس. وليس هذا هو أسوأ ما ينتظر الغلام لأن من الممكن جدًا أن يعتاد المسكين هذه الحياة التعيسة ويصبح أسيرها، يصبح طفلاً ثم إنسانًا معوقًا، لأنه من المعروف أن الكثيرين من الأولاد أصبحوا معوقين لأن أهلهم أرادوا لهم ذلك: أسرفوا فى الإساءة إليهم وإهمالهم حتى تعطلت ملكاتهم وتلاشى طموحهم واستمرأوا حياة الضياع، مثل هذا التعويق يحدث لنوع آخر من المعاملة هو الإسراف فى التدليل، عندما يقضى الوالدان للطفل كل حاجة ويلبيان له كل نزوة، أحيانا يستمرئ الطفل ذلك ويكره العمل والواجب والمسئولية. ويشب شليل الذهن والإرادة، يشب معوقًا.

بالفعل هناك دلائل على أن أولئك المجاهدين يرمون بالفعل إلى تحويل الطفل إلى إنسان معوق، لأنهم يصرون دائمًا على أن يحملوه على الكتف ويربتون على ظهره قائلين: لا عليك يا بنى نحن سنجيئك بالاستقلال اتبعنا لا تستمع إلى غيرنا، نحن وحدنا المتحدثون باسمك، سنصل بك إلى ما تريد، استمر أنت فى البكاء ونستمر نحن فى الجهاد، والبكاء عندهم هو تلك القنابل التى توضع فلا الأسواق ومحطات الحافلات فلا بعض نواحى الأرض المحتلة يضعها من يضعونها ثم يولون هاربين، وقد تنفجر وقد لا تنفجر، ولكن الإسرائيليين يصلون إلى الفاعل فى كل حين. وبدلاً من أن يهلك كذا إسرائيليًا يهلك أضعافهم من العرب. وفى كل حالة يتردد صوت

المجاهدين من الخـــارج: نحــن نعلــن مسـئوليتنا عــن الحــادث الفلانــى استمروا أنتم تجاهدون من ناحيتكم ونحن من ناحيتنا، أنتم فى الداخل تعملون فى ظل الخوف والرعب والانتقام الرهيب. ونحن فى الخراج فى باريس ولندن وجنيف وروما ونيويورك.. المهم هو الثبات.. سننتظر ولــن نكل أبدًا من الجهاد فى لأروقة هيئة الأمم.. لن نكل عن إلقــاء الخطـب والبيانات لقد انتصرنا بالأمس انتصارًا تاريخيًا، أصبح لمكتبنــا فــى فينــا وضع السفارات وأخوكم المجاهد أبو فلانٍ أصبح سفيرًا، تصوروا. سـفير بكل شارات السفراء، الكاديلاك السوداء والراية ترفرف فى المقدمة، هل بعد هذا نصر! لقد اقتربنا مــن الهــدف سيروا فــى طريقكــم ونحــن فــى طريقنا سائرون.

هــذا والإســرائيليون بعــد أن ضمــوا الجــولان يسـتعدون الآن للضربــة التالية، والمرأة الرهيبة جوئيلا كوهين توســوس فــى أذن منــاحم بيجـين الذى لا تنطفئ فى قلبه جذوة الحقد على البشر وإذلال الإنسانية كلــها. عقابًا لها على ما يزعم أنها صنعته بشعب الله المختار.

واللعبة يا سيدى سهلة ومريحة جــدًا، لعبــة حمــل الطفــل والتسـول به، ومادامت المرأة تزعم أنها أم الطفل، تكســب مــن ورائــه مــا تشــاء، فلماذا لا تحمله أيضًا أخواتها وبنات عمها من المجاهدات. نعــم، وفــى وقت ما نشأت جماعات الجهاد التى ترفض كل شيء وتحرص على أن يظل الغلام عليلاً على الكتف إلى الأبد، ومادام هناك محسنون يعطـون، ومادامت هناك سيارات تقف عند الإشارة الحمراء فــهناك عشــر نســوان بالملاية اللف يقفزن من سيارة لسيارة وكل منهن تشحذ لحســاب الطفــل الذى تلقيه على كتفـها وركــاب الســيارات عندهــم فلــوس وهــم يعطــون ويعطون، وقام اتفاق (جنتل – من) بين المتسولات، كلهن يتسولن باسـم غلام يتيم مسكين واحد، لم يعد أحد يهتم بالنظر فى وجــه الغــلام، إن

المحسنين ينظرون فقد إلى الأيدى الممتدة أمامهم ويعطون ليستمر الجهاد.

وهل تحسنت حال الطفل شعرة؟ بالعكس هو فى كل يوم أسوأ. وحكومة المحتل الطاغية يسرها أن يكون هذا هو كل الجهاد الذى يواجهها، ولهذا فهى تمضى فى طريقها دون خوف ودون حياء، بالأمس ضمت القدس العربية واليوم ضمت الجولان وغدًا سيكون ما هو أسوأ، لأن قناع التذلل والمسكنة قد سقط من على وجه إسرائيل، والحية التى أدفأها الرجل الطيب فى يوم من الأيام رفعت الآن رأسها لتنهشه، وهو يستحق، فقد كان يعلم دائمًا أنها حية، ولكنه لم يكن ليكترث مادامت تنهش غيره: نهشت إنجلترا، وهى الحية التى أدفأت حية أخرى فلقيت جزاءها، ونهشت ألمانيا وفرنسا وكل أوروبا، والآن ذهبت فى الجرأة إلى مداها وها هى ذى رافعة الرأس لتنهش الولايات المتحدة نفسها، الولايات المتحدة تستحق، فإن الحية حية والسم سم، ومادام قد سرى فى أجساد الآخرين فلماذا لا يسرى فى دمها هى الأخرى؟.

وراكب السيارة الأصيل الموسر الحسيب لماذا يعطى؟.

إنه يعطى لأنه رجل طيب محترم وعنده مال وضمير، كانوا يقولون له: ادفع ونحن نجاهد، هات المال ولا تحاسب، ادفع ولك الجنة.

إنه يرضى ضميره ويستريح من مشكلة تثقل على صدره، وما دام للقضية أهلها، ومادام يقولون له إن هذا كل المطلوب منه فليكن ما يريدون، ولكنه مل هذا الدور مع الزمن.

إنه يرى أن حالة الطفل تسوء وهذا النوع من الجهاد لن يؤتى ثمرة أبدًا، وفى ذات مرة عندما امتدت إليه اليد فتح باب السيارة وخرج وقال: هذا الطفل يموت شيئا فشيئا بين أيديكن.. هاتوا الطفل أعالجه معكن.

وقالت إحدى القارحات: بكل سرور تفضل وعالجه معنا.. ما هى وصفتك؟.

هذه هي وصفتي.. لقد وضعتها بعد طول تفكير فى أمر الطفل وفى أمورنا كلها. الطفل يموت شيئًا فشيئًا ولابد من إنقاذه..

وقرأت المتسولات الوصفة وقلن: عظيم.. هذه الوصفة هى الترياق، ونحن نؤيدها ونشترك معك فيها.. والموعد فى فاس.

واشتورت النسوان فيما بين بعضهن وبعض: ما الذى حدث فى الدنيا السيد المحسن الكبير سيأخذ الطفل منا ليعالجه، وكيف نعيش إذن. ومن أين لنا المال؟ وعاد إلى ذهنى مشهد حديثى مع المرأة عندما عرضت عليها أن تدع لى الغلام أرعاه، وعاد إلى ذهنى كذلك حديث الشاويش: المشكلة يا سعادة البيه ليست مشكلة الطفل، إنها مشكلة النسوان، إنك تحاربهن فى أرزاقهن عندما تحاول إنقاذ الطفل من أيديهن، وكلما كانت نيتك أحسن كن معك أكثر عنادًا ووقاحة، والله يا سيدى لو أنك قلت لها إنك ستربيه على نفقتك حتى يدخل الجامعة لقالت إنك نصاب خطاف أطفال. ولشهرت بك، وتسببت لك فى فضيحة، لأن رأس مالهن هو تعاسة الطفل.

عاد إلى ذهنى هذا كله، لأنه هو الذى وقع فى فاس ووقع فى القمة، على سمع الدنيا كلها وبصرها.

ولم تعرف النسوة للرجل الطيب أى توقير.

وكل ما كان تحت الملاية اللف أصبح خارجها.

وعاد الرجل إلى بيته أسفًا.

وعقب ذلك بقليل ولأن الإسرائيلى كان يعرف ما تحت الملاية اللف قبل أن يتكشف جرؤ على محاولة ضم الجولان.. هنا راحت السكرة وجاءت الفكرة.

لقد انكشف الغطاء، عرفت الدنيا كلها أن الطفل العليل الحقيقى ليس هو الذى على أكتاف المتسولات ولكنه فى أسر إسرائيل. وهى تريد هلاكه، لم يعد فى ذلك شك، وعندما قال لها الشرطى الأمريكى الذى طالما حماها. إياك أن تقتلى الغلام. رفعت رأسها لتنهشه.

□□□

هل انتهى سوق المتسولات؟ أرجو ذلك لأن الذى يحتاج إليه الطفل هو أن يرتاح كما يرتاح الأطفال. ويعامل بحب ورفق كما ينبغى أن يعامل الأطفال لكى يشب ويكبر ويصبح شابا ثم رجلاً سويًا.. إنه يحتاج إلى عم عطية بائع الخيار الطيب الذى أخذ الطفل ساعة من نهار فسقاه وغير ملابسه وابتسم فى وجهه واشترى له البسكويت، لو عاملوا كلهم الطفل كما عامله العم عطية لانتهت مشكلته لأنه طفل سوى ولا مرض فيه، بل هو طفل موهوب، كل ما يحتاج إليه هو أن يعامل بإحسان وأبوة حتى يشتد عوده، حتى يقف على أول طريق الحياة، على أول طريق الاستقلال. وهو وحده بعيدًا عن المتسولات - سيعرف كيف يسترد حقوقه كاملة، بذراعه وحدها سيصل إلى ما يريد إذا تركته المتسولات. إذا فارق بلا رجعة الكتف الحجرية التى يموت عليها شيئًا فشيئًا يومًا بعد يوم.. إذا كتب له ذلك وقف على أول طريق النجاة، أتدرى كيف؟.

الطريق واضح وإن كان عسيرًا.

لقد خاضته من قبل هذا الطفل أمم كثيرة، ونجحت وسارت فى طريقها، وقليل جدًا من أمم الأرض لم تعرف الاحتلال والغصب والعدوان.

وما سيفعله الفلسطينى عندما يدرج على الأرض وحده. ويحمل على كتفه البندقية هو ما فعلته كل الأمم التى ابتليت بالاستعمار ثم تخلصت منه.. والذى فعلته هذه الأمم يقوم على قواعد بسيطة وواضحة..

أولهـا أنـك إذا أردت أن تسـترد حريتـك فلابـد أن تسـتردها أنـت بنفسك أنت وحدك. قد يساعدك الآخرون، ولكنـك سـتخوض معركتـك بمساعدتهم وبغيرها، أن المعركة معركتك والأرض أرضـك. وليـس هنـاك إنسان يموت ليكسب أرض غيره.

من يريد أن يعطى فليعطك أنت، وأنت وحدك الـذى ستقاتل، ولـن تستعمل أرض غيرك. إن غيرك أضن بوطنه من أن يعـرض سلامته مـن أجلك، كلهم يخدعونك، إذا قالوا لك غير ذلك. لن تخوض معركتك من سوريا أو من لبنان أو من الأردن.. لا أحد يقـوم علـى أحـراق داره لكـى ينقذ دار الجار، لقد جربها عبد الناصر سنة ١٩٦٧م فاحترق واحـترقت داره، إن أرض الله واسعة، وبلادنا كلـها صحـار، تسـتطيع أن تتـدرب حيث تشاء، تستطيع أن تأخذ من السلاح ما تشاء.

أما من أين ستدخل إسرائيل وكيف ستدخل إسرائيل فـهذا شـأنك أنت.. إنه سر مـن أسـرارك لا يصح أن يعلمـه أحـد غـيرك، إنـك لـن تستأذن من سوريا لتدخل أرض المعركة من ناحيتها، لأنها لن تسمح لك بل تستخدمك لصالحها هى، إنها لـن تـأذن لـك قـط فـى الدخـول مـن أرضها، لا تقع فى الخطأ مرة أخـرى، ولا تـدع المتسولة تحملـك علـى كتفها لترتزق من ورائك.

إن حدود إسرائيل واسعة جدًا ولـن يصعـب عليـك الدخـول مـن أى مكان تريد، ومادامت قد دخلت دون أن تستأذن أحدًا فإن إسـرائيل لـن تقتص من أحد، لأنها لن تعلم من أين دخلـت، وإذا هـى علمـت فـهى ستعرف أنك دخلت على رغم الجار. وإذا كانت هى قد عجزت عـن أن تمنعك من الدخول فكيف تعاقب غيرها لعجزه عن منعك من الخـروج.. المهم أن تنقل المعركة إلى داخل إسرائيل.

وسبيل ذلك واضح، وهو أنك دخلت للقتال فهو دخـول بـلا عـودة، إنه دخول للموت.. مـن العبـث أن تدخـل لتضرب ثـم تـهرب، لأنـهم

سيتابعونك إلى أى بلد تذهب إليه، وهناك فلسطينى ضرب وهرب حتى دخل الولايات المتحدة فقبضوا عليه هناك وأخذوه ليعاقبوه.

مادمت اتخذت قرار الجهاد فليكن هو قرار الموت.. ولا تؤمل فى النجاة قط، إذا فكرت في النجاة فلن تضرب ولن تنجو.

ليدخل منكم إسرائيل عشرة ليموتوا. لو قتل العشرة خمسة إسرائيليين ثم استشهدوا، فإن النصر فى النهاية مضمون، فليست هناك دولة تحتمل طويلاً الحرب من الداخل.. أنها سم قاتل: جرام منه يقتل الفيل.. المهم كما قلت لك أن تنقل المعركة كلها إلى داخل إسرائيل، وأن يكون الجهاد جهاد موت، المجاهدون الذين ساروا على طريقة (اضرب واهرب) تبينوا أنهم ليسوا مجاهدين، وقد عاملهم العدو معاملة مجرمين، كل الدنيا تعاملهم معاملة مجرمين، وإنجلترا رفضت أن تعتبر مقاتلى الجيش الأيرلندى مقاتلين ماداموا يضربون ويهربون فإنهم ليسوا مجاهدين، وعندما اضربوا عن الطعام إلى الموت وماتوا فعلاً لم تغير إنجلترا موقفها، وكلنا نعرف حكاية بوبى ساندز وأصحابه.

ذلك هو الطريق الوحيد أيها الأخ الفلسطينى، وكل طريق أخرى لن تؤدى بك إلا إلى مزيد من التعاسة لا تسمح لمتسولة قط بأن تحملك على كتفها لتتسول بك، لا تطالب لأحدًا بأن يعرض بلده للنار من أجلك.. ولا يخدعك كلام فى الأمم المتحدة، ولا مجاهدون يتحدثون باسمك من غرف فنادق الدرجة الأولى.

ومن يريد أن يجاهد لا يتناول الدرينكس عند أولد جيمى أو يتعشى بعد ذلك فى مطعم السفن ستارز.

إن المجاهدين هم الذين يقاتلون داخل الأرض نفسها. خارجها ليس هناك جهاد، هناك تسول، هناك خداع، هناك مزيد من التعاسة، أما الجهاد فلا يكون إلا داخل الأرض.. إنك خارج الأرض فقط حتى تتعلم

كيف تستعمل السلاح، مادام السلاح معك ومادامت تعرف كيف تستعمله فلا ينبغى أن يعلم أحد قط ما تنوى أن تفعله، ستدخل أرض عدوك ستملأ بالرعب قلب عدوك. ستموت برصاص عدوك.

وسيموت بعدك آخرون مثلك وآخرون، وإسرائيل لن تعرف يومها ممن تنتقم، بل لن تعرف من تتهم، ستعرف إسرائيل يومها أنك ند لها، إنك تستطيع أن تقتلها وستسعى هى يومها لكى تتكلم معك.

ويومها ستقرر أنت وحدك لا أنت وغيرك.. ستقرر فى ظلام مخبئك لا فى قمة بغداد أو فاس ماذا تفعل.

لن تحتاج بعدها يا بنى إلى قمم لأنك أنت ستصبح القمة.. وسل إخوانك الجزائريين الذين قاموا بمعركتهم قبلك، وسلنا نحن فقد خضنا معركتنا مع الإنجليز من قلب بلادنا، يومها يا بنى لم نطلب معاونة من العالم العربى.

لأن العالم العربى نفسه لم يكن موجودًا.. أو لو يكن قد وعى أنه موجود.

(٦)
فيران وناس*

فى بحثنا عن أسباب جائحة الفيران اتهمنا كل شىء من نقص المبيدات إلى نقص طمى النيل. ولكننا لم نذكر السبب الرئيسى لأننا لا نجرؤ على مواجهة أنفسنا به وهو القذارة.

فنحن صراحة شعب لا يحس بالنظافة ولا نتأذى بالقذارة، والواحد منا يشترى أفخر السيارات ويوقفها بين أكوام الزبالة ويتهم الآخرين، وفى أكوام القمامة تتربى الفيران ، والريف عندنا مقلب زبالة هائل ، والناس هناك تعودوا على أن يقاسموا الفيران جحورها ، وقد تتحقق مكافحة الفيران بفوسفيد الزنك أو بالراكومين. ولكنها تكون أولاً بالمكنسة وعربة القمامة والماء والصابون. والفيران لا تعيش قط فى مكان نظيف ، ولا يحق لنا بحال أن نشكو الفيران لأن البيئة التى أنشأناها بانعدام إحساسنا بالقذارة هى بيئة فيران. ونحن فى الحقيقة نزاحمهم فى رزقهم لأننا ارتضينا لأنفسنا أن نعيش فى البيئة التى لا يعيش فيها إلا الفيران.

كل الذين يمارسون الفن فى إخلاص يعيشون فى وحدة دائمة. إنهم وحدهم مع الناس ووحدهم بعيدًا عن الناس يحبون الناس ولكن من بعيد يخدمون الناس وكأن الواحد منهم متبرع يعطى ويتستر تحت اسم «فاعل خير» ومن غرائب أقوال جيته أنه سئل: هل تشعر بالوحدة ؟ أجاب: نعم عندما أكون من الناس وكان لودفيج فإن بيتهوفن يقضى بعد الظهر وحده فى مقهى صغير فى قريته وكان الناس يرونه فى ركنه جهم الوجه صامتًا فيحسبون أنه فى حاجة إلى من يؤنسه ويقحمون أنفسهم عليه ، فكان يقول: تريدون أن تؤنسونى ؟ فابتعدوا عنى إذن..

---

* نشرت هذه المقالة فى ٥ سبتمبر ١٩٨٢م .

هكذا آنس بكم أكثر. وكان أبو العلاء المعرى أعظم «إنسان» في تاريخ الحضارة العربية ولكي يحتفظ بإنسانيته صافية فرض على نفسه وحدتين: واحدة داخل الأخرى فلزم كسر بيته وأنس بالظلام. ومن الظلام أخرج النور. وكان المتنبي أشعر من أبي العلاء ولكنه أنفق عبقريته على عتبات حكام لا يساوى أى واحد منهم بيتًا من شعره، ولكن أبا الطيب أذل شعره وباع فنه بالثمن الرخيص. ولهذا فإن لشعره في الأذن دويًا وفي السمع حلاوة ولكن وقعه في القلب مرير.

ومن بين أدباء الغرب المعاصرين أفضل جون شتاينبك لأنه أنشأ في وحدته عالمًا كاملاً دافق الحيوية. ووحده شق طريقه بالجهد والإخلاص والصمت ، وقبع في قريته «ساليناس» يكتب منها ويراسل الناشرين ، وعندما قفز بروايته البديعة: شقة تورينا أو تورينا فلات إلى الصدارة. وتوالت عليه الدعوات والتكريمات. كتب إلى ناشره يقول: إن كنت تقدرنى حقًا فاحمنى من هذا البريق الذى يجعلنى أكره الناس. وأنت تعرف أننى أحب الناس لأننى بعيد عنهم ، ومن سطوره المضيئة في روايته «ثم غاب القمر» وقد نقلتها إلى العربية قول امرأة واحد من ضحايا الحرب الذين قتلهم الألمان إننى وحيدة جدًا من بعده والوحدة تقتلنى ! ويرد عليها العمدة قائلاً: إذن فأنت لم تكونى تحبين زوجك ، إذا كنت وحدك فأنت تعيشين معه ومادمت تعيشين معه فهو حى لم يمت.. فلماذا تريدين قتله؟.

ومن روايات شتاينيك البديعة رواية صغيرة لا أزال أعود إليها طلبًا للأنس وبين الحين والحين اسمها «عن الفيران والناس» وليس في الرواية فيران لأن الناس فى أمريكا لا يأذنون للفيران بأن تكون بطلة رواية أو شخصية الموسم لأنهم في نظر أنفسهم أعظم من الفيران ، والفيران لا يعظم شأنها إلا إذا تفوقت على الناس ، وأثبتت أنها أقوى وأصلح للبقاء منهم.. هذا هو لباب مأساتنا اليوم مع الفيران ، لقد أثبتت

أنها أقوى منا وأصلح للبقاء. وهذه الدنيا ميدان صراع بين الأحياء. والبقاء للأقوى. لأن الله خلق الفأر كما خلق ابن آدم. فأما الفأر فقد نظم حياته وخاض معركته وغلبنا فلماذا نشكو؟ إن ذلك يذكرنى بكلمة قالها رجل من بناة الزراعة المصرية فى الجيل قبل الماضى وهو محمود باشا شكرى وقد عملت معه شهورًا فى مطلع حياتى. فكنت أراه يركب حمارًا من الفجر ومن ورائه ناظر الزراعة والخولية ويقف عند شجرة شجرة فإذا رأى شجرة جوافة أكلت الفيران من ثمرها قال لناظر الزراعة ما هذا يا ناظر التنابلة؟ ويبدأ حضرة الناظر يقسم بالأبالسة مبرئًا نفسه فيقول الباشا: أنت هنا وكل رجالك لتحارب الفيران ودودة القطن وكل الآفات. فكل ما تأكله محسوب عليك: مخصوم منك خمسون قرشا! وشجرة بعد شجرة يستهلك الخصم راتب الرجل فيقول: وبعدين؟ من أين سآكل أنا وأولادى يا سعادة الباشا؟ ويرد الباشا: من الفيران! لو أنك ناظر زراعة جدع لما أكلت الفيران رزقك ، اعرف خلاصك. ماذا أعمل لكم وأنتم تشكون من كل شىء حتى البراغيث تشكون منها مع أننى قلت لكم ألف مرة إن البرغوث لا يعيش فى بيت نظيف؟ ماذا تريدون؟ أن أنظف لكم بيوتكم؟ أن أحمى لكم أولادكم.. أن أغسل لكم ثيابكم؟ كفاية عليكم الشاى والمعسل وأحضان نسوانكم يا ناظر البلاوى. هذه الفيران أنتم تربونها بالكسل والإهمال وهل كان من الممكن أن يعيش فى هذا الغيط فأر إذا كنت أنت ورجالك تدورون على الأشجار والزراعات يوما بعد يوم كما أفعل!

وقبل أن أنسى أقولك إن رواية «عن الفيران والناس تدور حول إنسانين متناقضين فرضت عليهما ظروف الحياة أن يعيشا معًا وقد أبغض كل منهما الآخر وصار ينظر إليه وكأنه فأر يعيش معه فى البيت والفأر عجيب من هذه الناحية. فهو يعيش معك فى بيتك ويشاركك عيشتك وطعامك ولكنه لا يريد أن ينشئ معك أى علاقة، فلا يكاد

يسمع حسك حتى يختفى فإذا سكت حسك وهدأت حركتك خرج يمارس حياته فهو يعيش معك ومنك وعليك ولكنه يرفضك، لأنه لو قبلك فلا مفر له من أن يسمح لك بالتحكم فى حياته. كما فعلت مع القط والكلب ، فالقط أيضًا حيوان طفيلى مثله فى ذلك مثل الفأر ولكنه تعايش معك وأنشأ معك ألفة وصداقة، وهذه الألفة جعلتك تتحكم فيه فأنت تكره القطط الإناث وتعدمها لأنها تتكاثر ، وأنت تفضل القط الذكر لأنه لا ينجب بل أنت قد تعقمه بعملية جراحية حتى يعيش لك وحدك وهذا ثمن التعايش الذى قبله القط ، أما الكلب فقد تحكمنا فى حياته حتى صنعنا أصنافًا من الكلاب تطابق مطالبنا فهناك كلاب للسيدات لا تصلح إلا للجلوس على الحجر ، ولم يبق لها من خصائص الكلبية إلا الاسم. وهناك كلاب صيد تأتينا بالطائر المصيد دون أن نأكله. وهناك كلاب سباق دربناها على أن تجرى وراء أرنب آلى وهى تعرف أنه ليس بأرنب أصلاً ، ولكننا أفسدنا طبعها وتحكمنا فيها بحسب أهوائنا.

هذا كله رفضه الفأر: رفض التعايش معنا والتفاهم مع جنسنا حتى يحتفظ بشخصيته فأرًا محترمًا ، حتى الطعام الذى تضعه فى الأركان لا يأكله لأنه يعلم أننا لا نفعل شيئًا إلا حسب مزاجنا وإذا كان مزاجنا أن نضع فى هذا الطعام سمًا وضعنا السم لهذا فهو يرفضه أصلاً، ويفضل عليه الطعام الذى يسرقه رغم أنوفنا فهذا قطعًا ليس فيه سم.

والإنسانان اللذان يعيشان معا فى رواية شتاينبك ينظر أحدهما إلى الآخر نظرته إلى الفأر. وأنت لا تعرف من منهما الإنسان ومن منهما الفأر، وهذا بدوره يأذن لنا فى أن ننظر إلى مشكلة الفيران من وجهة نظرها هى ، فإن الفأر لابد أنه يظن أنه هو الأصيل ونحن الطفيليون ، وإذا كان الله قد خلق الأرض للأحياء جميعا فلماذا يريد الإنسان أن ينفرد وحده بالحياة ؟ وإذا كانت هناك شجرة جوافة فلماذا يبيح

الإنسان لنفسه أن يأكل منها ويحرم ذلك على الفأر ؟ ولماذا يريد الإنسان أن يعيش أولاده جميعًا ويموت أولاد الفأر جميعًا ؟

وإذا كان الإنسان يريدها معركة بقاء بينه وبين الفيران فقد قبل الفأر المعركة وخاضها بسلاحه ، وللفأر سلاحان هما أمضى من كل سلاح ، الأول حيوية عجيبة تتحدى كل صنوف الموت ، ثم قدرة على الإنجاب رهيبة حقًا فإننا إذا أعدمنا ٨٠٪ من فيران هذه السنة فإن العشرين فى المائة الباقية تبذل أقصى جهدها لتكون مائة فى أول السنة القادمة والفأرة الواحدة تستطيع أن تلد فى العام ثمانين فأرًا.

وما رأيك فى مخلوق يأخذونه ويصبون فى حلقه سما ثم يلقون به فى التواليت ويشدون السيفون وتمضى به المياه المتدفقة ، من مأسورة لأنبوب ومن أنبوب لماسورة مسافة تسعة كيلو مترات ويخرج بعدها الفأر الشرير حطيمًا ، فلا يكاد يستقر على الأرض دقيقة حتى ينتعش وينهض ليلتهم وينهش ويقضم ليعوض ما فات ، وقد غسلت مياه المجارى التى مرّ فيها أمعاءه وكتبت له النجاة من السم.

وهذه هى النقطة التى أريد أن أصل إليها فيما يتعلق بموقفنا نحن المصريين من الحياة ، إننا ننسى دائمًا أنها معركة بقاء أو موت مع الفيران أو مع الطاعون أو مع إسرائيل أو مع الإنجليز أو الأتراك ، فهى دائمًا معركة والفوز للأقوى ، وكل أعدائنا الذين دخلنا معهم فى صراع أخذوا الصراع جدًّا فكسبوا وخسرنا ، ومعركتنا مع إسرائيل لم نأخذها جدا إلا مرة واحدة. كان ذلك فى أكتوبر ١٩٧٣م وعندما أخذناها جدًا انتصرنا ، لقد حطمنا لإسرائيل ٤٠ طائرة منها ١٩ فانتوم فى يومين ، فى ستة أيام حطمنا لها ٤٠٠ دبابة ، يومها زلزلت أقدام إسرائيل وشعرت أن المصريين رجال وليسوا فيرانا ، يومها بكى موشى ديان وركع سفير إسرائيل فى واشنطون تحت قدمى كيسنجر ، وللمرة الأولى شعرت الولايات المتحدة أن هنا على ضفاف النيل أمة صحت بعد نوم

طويل. وكل قوة أمريكا وضعت يومها لكى تقف معنا لأن الدنيا تحب المنتصرين، ووزير خارجية أمريكا هنرى كيسنجر طار إلى بلادنا لكى يتفاهم مع الرجال، كان أنور السادات على القيادة إذ ذاك، وتلك تحية.. متواضعة له، والرجل المنتصر يومها كان يعرف أن النصر لابد أن تعقبه مفاوضات لكى يأخذ المنتصر حقه، وصراع الأمم حرب ومفاوضات.. حرب وسياسة ، وإلى ذلك الحين كان العرب يأخذون فى صراعهم مع إسرائيل طريقا شاذة لا هى حرب ولا هى سياسة إنها طريقة الهروب من المعارك ومن السياسة معا. كنا نسميها باللا سلم واللا حرب وهى عبارة ليست من لغة البشر. إنها من لغة الفيران لأن الفأر لا يقاتل أبدًا إنه يحارب الفناء بالهرب ودخول الجحور والإنجاب، والذين رفضوا الجلوس إلى مائدة المفاوضات وسخروا من محادثات الكيلو ١٠١ وفك الاشتباك الأول والثانى كانوا يتبعون سياسة الفيران، وسياسة الفيران، هى التى قادت إلى مصيدة بيروت، ومصيدة بيروت كانت عارًا على إسرائيل ولكنها كانت ذلاً وعارًا علينا، لقد حيينا الرجال الخارجين إلى ملاجئ جديدة وكأننا نصلى صلاة جنازة، وبعد رحيل الأسرى أقامت إسرائيل لنفسها نائب ملك على لبنان، ونائب الملك يسمى بشير الجميل. إنه نائب الملك بيجين ونائب الملك ريجان، وما كنا نتحاشاه من سنوات يقع اليوم ، لبنان يتحول إلى لبنانين ، والمعركة انتهت على طريقة الفيران، كما تنتهى شيئًا فشيئًا معركة أفغانستان التى أقام عليها جلالة القيصر ليونيد بريجنيف نائب ملك يسمى بابراك كارمل.

لقد تتبعت أخبار استسلام بيروت والدمع ملء عينى لأن هذا المشهد ليس جديدًا علىّ، فقبل ٤٩٠ عامًا وثمانية أشهر أى فى الثانى من يناير ١٤٩٢م كان فرناندو وإيزابيلا يحاصران غرناطة لكى يحكما الحصار على المعقل الأخير للمسلمين. ابتنيا مدينة تسمى سنتافى أى العقيدة المقدسة، وفى صباح الثانى من يناير هذا خرج أبو عبد الله آخر

ملوك غرناطة التعساء مستسلمًا وسلم رايته ومفتاح المدينة إلى المنتصرين، يومها أكرموه كما تكرم رفات الأموات وقالوا له: تخير المنفى الذى تريد أيها الملك الصغير ونحن نوصلك. وخرج الرجل وحاشيته منكس الرأس، وسار وكأنه نفسه جنازة، وطريق المنفى إلى مدينة وادى آش، كان طويلاً، ولكنه على أى حال أقصر من الطريق إلى اليمن الجنوبية، ما من مرة قرأت خبر تسليم غرناطة إلا سألت نفسي: ماذا جرى للرجال؟ إن أبا عبد الله هذا كان آخر رجل تعرفه من سلالة صحابى جليل هو سعد ابن عبادة الذى شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وجاد بمعظم ما له فى سبيل الإسلام. ما أجمل البداية وما أسوأ النهاية، والفرق كلمة واحدة، فى البداية كان الرجال وفى النهاية كان الفيران. بين البداية والنهاية تسعة قرون لأن سنة ١٤٩٢م هى سنة ٨٩٧ هجرية، والرجل الذى سلم غرناطة لم يطمئن فى منفاه تحت رحمة عدوه، فكتب إلى سلطان المغرب أبى عنان خطابًا فى نحو عشرين صفحة يعتذر فيها عما أضاع، وخلاصة العشرين صفحة هى: لقد ضيعت غرناطة لأننى فأر حقير، فهل تسمحون لفأر حقير بأن يجد جحرًا فى بلادكم يموت فيه؟ وسمحوا له وأقبل يجلله العار ولكنه لم يشعر بالعار لأن الفيران لا تعرف العيب. وككل فأر فى التأريخ اصطحب معه تسعًا من جواريه! ألم أقل لك إن الفأرة تنجب فى السنة إذا أرادت ٨٠ فأرا؟ أتدرى كم زوجة كانت للملك فرناندو الكاثوليكى المنتصر؟ واحدة هى إيزابيلا.. امرأة بألف رجل. أتدرى كم طفلاً أنجب فرناندو وإيزابيلا؟ بنتا واحدة هى خوانا التى جنت فيما بعد وسميت بخوانا المجنونة، وخوانا هى أم واحد من أعظم حكام أوروبا هو الإمبراطور شارل الخامس أو شرلكان، وشرلكان أنجب ولدين الملك فيليب الثانى الذى حاول أن ينتزع البحر المتوسط من أيدى المسلمين. وأخاه غير الشرعى الأمير خوان يوستريا الذى كسب نصر ليبانتو سنة ١٥٧١م وانتزع سيادة البحر

المتوسط من الأتراك العثمانيين. هـذا هـو مـا يخـرج مـن صلـب الرجـال والنساء الذين يصنعون التاريخ. أمـا أبـو عبـد الله الصغـير ملـك غرناطـة المنهـزم فقد أنجب من نسائه التسع فيرانا بـلا نهايـة ، وعلـى جحـور الفيران حبس شيخ أندلسي يسمى ابن عاصم وقرأ تلقين الموتى، والتلقين كتاب عنوانه «جنة الرضى (بضم الجيم) فيما قدر الله وقضى» والعنوان جميل، ولكنه تلقين قرىء على قبور فيران لو كانت للفيران قبـور، أمـا العـبرة فقـد نطـق بـهـا شـوقى عندمـا قـال يصـف مشـهـد خـروج بقايـا الأندلسيين.

آخر العهد بالجزيـرة كانت
بعد عرك من الزمـــان وضرس
فتراها تقـــول: رايـة جيش
باد بالأمس بـــين أســر وحبس
ومفاتيحهـــا مقاليـد ملك
باعهـا الـــوارث المضيع ببخس
خرج القـوم فى كتائب صم
عن حفاظ ، كموكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشا وكانت
تحت آبائهــم هى العــرش أمس

سبحان الله! ماذا يصف شوقى؟

غرناطة أم بيروت؟ خروج أبى عبد الله أم خروج الفلسطينيين؟

سيان، فإن الفيران لا تصنع التاريخ ولا هى تقرأ الشعر. إنـهـا تصنـع فيرانا.

ولكن هل الفيران وحدها هى التى تصنع الفيران؟

لا والله ، إنما الناس أيضًا تصنع الفيران.

وهذه الفيران التى تلتهم مزارعنا نحن الذين صنعناها.

وانظر إلى أى قرية مصرية وقل لى بصراحة: هل الذين يقبلون العيش فيها ناس أو فيران. أنا شخصيًا أقول لـك إنـه لا يوجـد إنسـان يحـترم إنسانيته يرضى بأن ينام فى دار من الطين والبوص والسعف كلها شقوق وجحور وندوب: ولا ينـهضن إلى إنسـان ويحـاول المزايـدة والدفـاع عـن الفلاح ، فما أظن أحدًا فى هذا البلـد يأسـى لحـال الفـلاح كمـا آسـى ، والمسألة أيها الإخوة ليست بلاغة ألفـاظ ولا التمـاس أعـذار ، إنمـا هـى مسألة البحث عن الخط الفاصل بين الفيران والناس، أهناك حـد أدنـى تنتـهى عنـده الآدميـة ، ورجـل يقـف فـى الطـابور عنـد مركـز توزيـع السجاير فى القرية ليحصل على علبة سجاير سوبر ثم يشربها فى جحر فيران هو حالة نفسية تستدعى العـلاج، لأن الأمـر هنـا لا يتوقـف عنـد بيت من طين يعيش فيه رجل يتفـرج علـى التليفزيـون ويدخـن السـوبر ويصنع كل عام طفلا ، بل هى مسألة بلد يتحول كله تحولاً عجيبًـا مـن سيئ إلى أسوأ ، كأنه تخطى الحد الفاصل بين الفيران والنـاس.. ونحـن هنا لسنا أمام مشكلة فيران بل أمام مشكلة بلد بأسره. والموضـوع لا يـهم وزارتى الزراعة والصحة بل هو موضوع وزارتى التربية والتعليم والثقافـة أيضًا، وليست أنا أول من اكتشف هذه الظاهرة وكتب فيها. واقـرأ هـذه السطور التـى كتبـها أنيـس منصـور فـى واحـد مـن مواقفـه بتـاريخ ١٦ أغسطس ١٩٨٢م :

«وهذا الزحام يجعل النـاس أكـثر اسـتعدادًا للعـدوان علـى الآخريـن لأنهم فى حالة دفاع عن النفس وعن الجسم وعن المساحة الصغـيرة فـى الطريـق والطـابور والأوتوبيـس ، وهـذا الشعور يسـلب النـاس شـعورهم بالأمان ، ولذلك يتوجس النـاس مـن النـاس ، وتكـون العلاقـات مجـرد حسن جوار ووقف إطلاق النار لا محبة ولا مودة ولا صداقة وإنمـا زمالـة وتعايش معًا تمامًا كما يتجاور الناس فى الأسانسير أو تتلاصق السيارات فـى الموقـف أو تتكـدس صنـاديق الزبالـة فـى الشـوارع أو المتـهمون فـى

القفص أو الجثث فى المشرحة، ولأنـك لا تنظـر عـادة إلى وجـوه النـاس فإنك لا تميز أحدًا عن أحد ، فكل واحد ليس إلا حبة عدس فى شـوال أو علبة صفيح فى صندوق. كل الناس مثل كـل النـاس ، وكلـهم ليسـوا أصدقاء لأنك فى زحام الحركة والمشاعر ، وفـى ضبـاب الهمـوم وتـراب القرف ، لا تستطيع أن تميز بين العناق والخناق. ولا بـين الـذى يميـل إليك والذى يميــل عنـك ، ولا بـين الـذى يذهـب إليـك والـذى يذهـب عنك ، فوجوه الناس مثل ظهورهم وهى جميعا تستحق الحرق» .

يا إلهى! هذا وصف ناس فى مدينة أم موكب فيران؟!

هل هذا مقال أو رثاء «بوست مورتم»؟!

إنه فعلاً رثاء أو تلقين على قبر ميت.

وإذا صدق إحساسى ، وكان كـلام أنيـس منصـور تلقينـا بعـد المـوت (بوست مورتم) ، فإليك اليوتوبسيا أى تشريح الجثة. قام به طبيب فـى الطب والفكر هو يوسف إدريس. فقد أخرج الجثة من المـدرج وشـرحـها. وإليك جزءًا من التقرير الـذى كتبـه ، ومـن أسـف أننـى لا أسـتطيع أن أورده لك على تواليه فهو عندك فى أهرام ٢٢ أغسطس ١٩٨٢م.

«الواقع أبدًا لا انفصال بين الحادث فى لبنان والحادث لنا وإذا كان الأطفال يقتلون فى لبنان وكذلك النساء فإن الأطفـال فـى العـالم العربـى يرضعون أفكارا سقيمة أشد فتكًـا مـن القنـابل العنقوديـة ، والنسـاء فـى عالمنا العربى مقتـولات روحًـا وجسدًا وكرامـة ، فكمـا أن الواقـع واحـد فالمعركة أيضًا واحدة ، وإذا كـانت الأقـلام كلـها فـى أنحـاء العـالم قـد أجمعت على استنكار الموقف العربى فهذا الموقف لم يأت من فراغ ، إنه نتيجـة محتمـة لفـراغ العقـل العربـى وبالتـالى انعـدام الإرادة العربيــة ، فالإرادة والفعل والموقف أشياء لابد أن تنبـع عـن فكـرة وتفكـير وإعمـال هائل للذهن ، فإذا لم يكن هناك ذهن يعمل وإذا كـان العقـل قـد خـوى

إلا من التفكير فى سد الغرائز وضمان المستقبل الفردى ، إذا كانت دائرة الأفكار قد ضاقت حتى لم يعد المواطن فى مصر أو فى غيرها من البلاد العربية يرى إلا ما حوله وأمام أقدامه مباشرة فكيف نطلب منه أن يرى عدوه بله أن يقاتل أو يقاوم عدوه»؟.

وفى رأى يوسف إدريس أن هذا التحول المخيف فى شخصية الإنسان العربى يرجع إلى غياب الحرية والديمقراطية من حياة العرب جميعا منذ كانت عصور الاستقلال.

فالديمقراطية تخلق الإنسان الواعى الذى يفكر بنفسه مستقلاً عن غيره ، الذى يرى طريقه ويتجه إليه وفى غياب الديمقراطية تنشأ عقلية القطعان أو نفسية الجماعات (ماس سايكولوجى) وهنا نجد الناس يسيرون فى حياتهم على الصورة الرهيبة التى يصفها أنيس منصور ، ويقول يوسف إدريس: «ونظرة واحدة لفوضى المرور فى شوارع القاهرة تعطيك فكرة واضحة أن جماعة السائقين سواء أكانوا محترفين أم هواة جماعة غوغائية محضة كلها أفعال وردود أفعال صبيانية وأنانية لا تجدها إلا عند الأطفال (أو الفيران؟) إنه أيضًا نوع من سلوك الجماعة الناتج عن فكر جماعى متخلف لا يرتد إلى النظام تماما كالأطفال إلا برادع قذى عينى أو غرامة أو حبس ، فى حين أن الإنسان الحر الناضج ليس فى حاجة إلى أن يخاف ليتبع القانون إنه يتبع القانون إيمانًا منه بحق الناس عليه ، وهذا هو السلوك الناضج الناتج عن فكر ناضج..

أنيس منصور ويوسف إدريس هنا على حق.

وإنه لمن غرائب الظواهر أن التعليم أيام الإنجليز ودنلوب أخرج طلعت حرب والعقاد وطه حسين والمازنى وسلامة موسى وسعد زغلول وتوفيق الحكيم ، والباشا الذى كان يفحص الأشجار والزراعات يوما بعد يوم ، والتعليم فى عصور الاستقلال فى العالم العربى كله أخرج كتبه

أرشيف لا يحسنون إلا القيد فى السراكى والحفظ فى الملفيات والصادر والوارد.. النمل والصراصير والعنكبوت.. كما يقول نجيب محفوظ فى ثرثرة فوق النيل ، والتاريخ الذى أعلمه للطلاب لا يبقى منه فى أدمغة الطلاب إلا ما بقى فى ذاكرة عم أنيس أفندى المسطول الذى أخرج من الدرج محبرة وراح يملأ القلم. عليه أن يعد البيان من جديد. حركة الوارد لا حركة البتة فى الحقيقة. حركة دائرية حول محور جامد ، حركة دائرية تتسلى بالعبث ، حركة دائرية ثمرتها الحتمية الدوار، فى غيبوبة الدهور تختفى جميع الأشياء الثمينة ، من بين هذه الأشياء الطب والعلم والقانون والأهل المنسيون فى القرية الطيبة والزوجة والإجنة الصغيرة تحت غشاء الأرض وكلمات مشتعلة بالحماسة دفنت تحت ركام الثلج ولم يبق فى الطريق رجل وأغلقت الأبواب والنوافذ وثار الغبار لوقع سنابك الخيل وصاح المماليك صيحات الفرح فى رحلة الرماية كلما عثروا على آدمى فى مرجوش أو الجمالية أقاموا منه هدفًا لتدريبهم ، وتضيع الضحايا وسط هتاف الفرح المجنون.. وهذه سطور رائعة من قلب نجيب محفوظ.

وصورة المسطول هذا الذى دار رأسه من القيد فى دفاتر الصادر والوارد قفزت إلى ذهنى أكثر من مرة وأنا ألقى محاضراتى فى التاريخ ، فأنا أحاول أن أفتح بجهد الموت أذهانا أقفلت تمامًا من أكثر من ثلاثين سنة حتى أصبحت توابيت ، وأنا أشرح للطلاب معنى حركة التاريخ لكى أخرجهم من الخنادق التى تترسوا فيها ، ويرفع طالب إصبعه ويزدهينى الفرح وأقول: أخيرًا فتحت تابوتا ، ويقف الطالب ويقول: يا أستاذ الكلام الذى تقوله هذا سيجىء فيه سؤال؟ وتنهار آمالى كلها ، وأجلس فى تؤدة.

وانظر.. إننى لا أرى طالبًا بل فأرًا واقفًا فى طابور سجاير السوبر ، وأنا مع الأسف بائع السجاير ، والسيجارة التى أبيعها اسمها ليسانس آداب سوبر ، يضعها الفأر فى منقاره ويمضى يطالب الدولة بوظيفة ،

والدولة لا تعطيه وظيفة إنما إعانة أو بـدل تعطل ، ولا يكـاد حضرتـه يطمئن إلى أن اسمه قد تدون فى سجل المستحقين فى الحق المعلوم الذى قال الله إنه حق للسائل والمحـروم ، حتـى يطـالب بشقة يتفـرغ فيـها لصنع فيران،

وبعد.. فقد أصبحت حياتنا كلها مواجع.

مواجع تبدأ من ساعة تفتح عينيك فى الصباح إلى سـاعة تغلقـها فـى منتصف الليل ، وقد كنا فى الماضى نستقبل اليوم بشـىء جميـل يسـمى طبق الفول ، ولكن طبق الفول اليوم أصبح طبق حصـى وسـوس ، وبـائع الفول الذى كان فيما مضـى إنسـانًا لطيفـا شـجى الصوت أصبـح اليـوم رأسماليًا يكلف قدرة الفول خمسين قرشـا ويبيعـها بخمسـة جنيـهات ، وهو يبيع فى اليوم أربع قدور ، وصافى ربحه يا مولانا فى اليوم خمسـة عشر جنيها على أقل تقدير وهذه ٤٥٠ جنيها أى ضعف مرتب الأستاذ الجامعى ، وأكثر من مرتب الوزير. والغريب أن الوزير نفسه مازال يضع بائع الفول فى قائمة الكادحين المطحونين ، وهو نفسه الوزير أقصد – أول المطحونين.

وأنت لا تدرى من أى المواجع تشكو؟

مواجع الزبالة التى تتعالى فى الطرقات ، أم مواجع المواصلات التـى أصبحت مرضًا متوطنًا ، أن مواجع الفيران والنـاس؛ أم مواجـع اللطمـة المخزية التى تلقيناها فى لبنان ، أم مواجع العـرب الذيـن حكمـوا علـى أنفسهم بالذل والهزيمة والموت قبل أن يحكم عليهم الزمان؟!

يأس قاتل يكاد يحطـم الرأس والبـدن والـروح ، وأنـا واقـف أقـاوم ولا أريد أن أستسلم ، لأنه لا يدخـل عقلـى كيـف نـدع غرناطـة تسـقط ونحن العرب والمسلمين ملايين . فتجىء مأسـاة المجـاهدين فـى لبنـان وأراهم يا ولداه يعاملون معاملة محكوم عليـه بـالإعدام ، تفضـل جلالـة

الملك رونالد ريجان فأصدر أمرا بتخفيف الحكم عليه وجعله نفيًا مؤبدًا.. ويمر الجيش الكسير مطوى الرايات فى قناة السويس فى طريقه إلى اليمن الجنوبية ويهتف المساكين: ثورة ثورة حتى النصر!.

أى ثورة أيها العزيز وأى نصر؟! ألم تفهم بعد أنك لن ترى هذا النصر بعينيك ، لأن أنصارك وهم نحن نسوا طعم النصر لأنهم لم يذوقوه من أيام سليمان بن عبد الملك؟!

هل هى مواجع سقوط غرناطة أو آلام سقوط بيروت أو ويلات نائب الملك بشير الجميل وصاحبه بابراك كارمل نائب الإمبراطور بريجنيف أو هى مواجع العرب الذين سيعالجون مأساة لبنان بنفس الطريقة التى عالجوا بها مأساة فلسطين: صلاة الغائب تقام مرة فى الخرطوم ومرة فى فاس؟ دائما يصلون بعيدًا جدًا عن مقبرة الفقيد.

وأخونا أمين عام المؤتمر الإسلامى يهنىء نفسه بأنه عقد مؤتمرًا ناجحًا لإنقاذ أمة الإسلام فى يامينا عاصمة النيجر. وهو يعرف أن أهل جمهورية النيجر كانوا يكونون أسعد بكثير لو أنفق أموال هذا المؤتمر على حفر بئر يشرب منها النيجيريون لأن المساكين يموتون من العطش والجوع! تصرف عقلاء هذا أم أوهام مساطيل؟.. ومعذرة عن إلقاء السؤال فإنما أنا مؤرخ حولنى تاريخ العرب إلى كاتب فى مكتب صحة يقيد الوفيات.

وصفحات دفتر القيد العريضة جعلتنى أخلط كل شىء بكل شىء وأنا معذور! وأحيانًا وأنا أقرأ الجريدة أشعر كأننى أقرأ أن الأمير المملوكى بيبرس الجاشنكير خرج يتمرن على الرماية فى ميدان التحرير، أو أن أبا منصور الحلاج قد بعث من قبره يصيح ما فى الجبة إلا الله! ولبس طيلسانًا وامتطى حصانًا ووضع على رأسه عمامة وزنها قنطار وسمى

نفسه آية الله روح الله ، ومضى يتدرب على أبهة الخلافة علـى ضفتـى الخليج.. أم هى فيران الدقهلية والشرقية قررت أن تصطاف على شاطئ المنتزه فى الإسكندرية؟

فيران وناس؟

لا والله إنما هم ناس أصبحـوا فيرانـا وفـيران جـاء دورهـم ليصبحـوا ناسًـا ، وحركـة التـاريخ لا تتوقـف ، وإن لم يفهمـها تلميـذى صـاحب سيجارة السوبر فـى المنقـار. أم هـم قومـى العـرب فـى حاجـة إلى رأس جديد؟ لأن رأسهم الذى يحملونه علـى أكتافـهم لم يعـد فيـه مـخ. لقد غسلوا مخهم ألف مرة بعد أيام الراشدين حتى لم يعـد هنـاك مـخ علـى الإطلاق..

والرأى عندى أن يضيف مؤتمر فاس إلى قراراته قـرارًا أعتقـد أن فيـه الشفاء.. التعاقد مع شركات الإلكترونيـات فـى اليابـان علـى صنـع مـخ عربى جديد يعمل بالكوارتز لأن المخ العربى العتيق قد تحـول مـن ألـف سنة هجرية إلى طحالب في فجوات صخـور الجمـاجم فـى أعمـاق ليـل الزمان ، ومعذرة يا أخى نجيب محفوظ إذا غيرت بعض ألفـاظ عبـارتك الرهيبة فى الثرثرة فوق النيل. والنيل كـان يومًـا نـهرًا عظيمًـا فجعلنـاه ترعة صرف صحى لأننا فيران. □

(٧)

لست وحدك فيها أيها العصفور*

الفكرة فى ذهنى من زمن طويل. وكنت أتريث بها حتى تبلغ أوانها من النضج واكتمال المادة فأكتبها على ما أرجو ، ويقرؤها القارئ على ما يحب.

أما العنوان فقد قبسته من عبارة لجون شتاينبك أرسلها على لسان والد بطل روايته البديعة «إلى الشرق من عدن» وعدن هنا ليست مدينة اليمن المشهورة ولا هى جنة عدن الواردة فى القرآن الكريم ، وإنما هى قرية صغيرة فى الولايات المتحدة. وإلى شرقها وجد الشاب المغامر الذى تدور عليه الرواية عيون نفط تفجر منها الذهب الأسود عاليًا فى السماء ثم انصب على الأرض مطرًا ، وتحت هذا المطر الأسود وقف الشاب المهتاج يمسح به وجهه وقد استطاره الفرح وجعل يقول: الآن أنا ملك الدنيا! وهى لى جميعا. الأرض أرضى والذهب ذهبى والرجال خدمى والنساء عشيقاتى!

وينظر إليه أبوه الشيخ مشفقًا عليه من هذا الغرور المدمر ، ويقول:

- يالك من مسكين.. تحسب أن هذه الدنيا لك وحدك.. لست وحدك فيها أيها العصفور.

أما الذى عجل بكتابتها ، فحادث عادى مما يحدث لى ولك كثيرًا فى هذه الأيام، ونحن نروى مثل هذا الحادث للطرافة وتفريج الهموم ، وهى فى الحقيقة تنطوى على تصوير لداء ربما كان من أخطر ما نعانيه والقصة أننى أردت تنجيد كرسيين وبعض الوسائد فقصدت رجلاً من أصحاب هذا الشأن بعد أن اشتريت قماش التنجيد ، وسألته عن أتعابه فجعل ينظر ويقيس ويحسب، ثم قال:

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٦ سبتمبر ١٩٨٢م .

- عن الكرسيين وحدهما مائة وخمسون جنيها

وفاجأنى هذا التقدير الذى تخطى كل حسباتى ، فقلت له :

- وهذا آخر ما عندك؟

- إى والله ، وهو تقدير راعيت فيه ما بينى وبينك من قديم المعاملة ، وهو لهذا أيسر ما أستطيع طلبه ، ولا أملك تخفيض شىء منه.

- ما كانت نيتى قط أن أسألك التخفيف ، لأن الفرق بين ما كان فى خاطرى وما قلت أنت شاسع ، فلندع الأمر كله الآن حتى يرزقنى الله ما تطلب أو قريبًا منه ، وأخذت قماشى ومضيت..

ودلنى الناس على رجل آخر حسن الصنعة وعلى جانب كبير من الإحساس الخلقى ، فقام لى بالعمل كله : الكراسى والوسائد على أحسن هيئة. وتقاضانى عن ذلك كله خمسة وستين جنيها.

وبعد شهور طرق المنجد الأول بابى ، وقال وهو مروع مستاء:

- زوجتى تضع اليوم أو غدًا ، وقد حملناها إلى مستشفى صديقك الدكتور فلان لقرب مستشفاه منا وواسع شهرته فى التوليد.. ولكنه يطلب قبل أن يدخلها المستشفى ثلاثمائة جنيه عن العملية وأيام ثلاثة.

أما فى ذلك؟ أدخلها لتلد فى أمان وتقوم بالسلامة.

- ولكن ثلاثمائة جنيه! تلك كما ترى مغالاة ، وقد أتيت أرجوك أن تكلمه فى التخفيف.

- أما أنا فلن أكلم صاحبى فى التخفيف ، وإذا كنت أنت تطلب مائة وخمسين جنيها فى كرسيين ، فلماذا تستكثر على الطبيب ثلاثمائة فى عمل فيه حياة.. وموت؟.. إننى أحسب أنه يغالى فى التقدير ، ولكنك أنت أيضًا تغالى ، وأنت تتصور أن المغالاة حق لك

وحدك ، وقصر عليك. وأنت تنسى أننا كلنا نعيش فى دنيا واحدة ، فكما تغالى على الناس يغالون عليك ، وما تأخذه منى زيادة دون عدل يأخذه منك آخر زيادة دون عدل. والعلة جاءت من أنك تتصور أنك هذه فى الدنيا ، وكلها لك وحدك أيها العصفور.

□□□

ومن معانى الحضارة أنها القدرة العقلية على العيش معا ، كما يقول جوردن تشايلد ، فى كتابه المسمى «ماذا حدث فى التاريخ؟» فإن المخلوقات الوحشية مفطورة على الإحساس بأنها تعيش وحدها ، أو أن الكون مخلوق لها وحدها ، ولو ترك كل جنس وشأنه لأهلك البقية ، ولا يمسك الحيوان عن التهام الكون إلا الخوف على حياته هو، ولو تركت الأغنام وحدها لأتت على كل أخضر تجده ، ولكن الذى يمسكها ويمنعها من التمادى هو الخوف على حياتها من السباع ، وقد أهدانى صديق مرة حملاً صغيرًا هو الوداعة نفسها ، فأطلقته فى حديقة صغيرة كانت عندى ليمرح ويزأط ، وخرجت وعدت آخر النهار فإذا بهذا الحمل الوديع قد قضى على ثلاثة أرباع الحديقة ، وأدهشنى أن يجتمع فى كيان هذا المخلوق الصغير الوداعة الجميلة والشراسة الرهيبة فى الافتراس. واللطيف أنه بعد أن ألحق بى هذا الضرر كله جعل ينظر إلى بعينيه البريئتين وفكاه لا تتوقفان عن القضم والمضغ ، فقلت له : لا. وحياتك ما تخدعنى قط نظرتك الوديعة تلك. ولو تركتك على علاتك لأكلتنى على طريقتك ، ولا علاج لك إلا الجزار والفرن. هنا ستكون أنت أجمل وألطف ونعيش نحن عليك يومًا كما افترستنا أنت فى يوم.

وقد كان الإنسان البدائى قبل الدخول فى دور الحركة الحضارية يعيش بفكر صاحبنا المنجد الذى أباح لنفسه أن يستحل مالى دون حق ، ثم استنكر أن يستبيح غيره ماله ، مال الناس له حلال ، أما ماله هو فحرام ، والضمير والدين والإنسانية ينبغى أن توجد عند الآخرين

ليعاملوه بها، أما هو فيعامل الناس دون ضمير أو دين أو إنسانية، وقد كان المنجد الذى ذكرته يكلمنى فى وداعة ذكرتنى بالحمل الوديع الذى افترس الحديقة فى يوم ثم جاء ينظر إلى فى وداعة وبراءة، وقد التمست عذرًا للحمل لأنه خروف. وهذا مستوى فهمه، ووجدت كذلك علاجًا لوحشيته، فأكلته بعد أن أكلنى. ولكن ما حيلتى مع هذا المنجد وأشباهه ممن يفترسوننا على مدار اليوم دون إحساس أو مراعاة؟ وقد حدثونى عن رجل انكسر محور سيارته وهو المعروف بعمود الكردان، فأصلحه ورممه وباع السيارة لرجل آخر وهو يعرف أنه غشه. فباعه سيارة مقصومة الظهر. وشاركه فى ذلك الغش صاحب متجر سيارات، فأما الذى باع السيارة فله ابن غير صالح يسلبه ماله قسرًا ويهينه ويسود عيشته. وأما صاحب متجر السيارات فقد ذهب إلى أوروبا ليعربد ويتسوق فنهبوا ماله واشترى سيارة من إيطاليا وفى الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة انكسر عمودها الفقرى، وهو عمود الكردان. وكلاهما يشكو سوء حاله وما أصابه، ويتعجب ويتساءل: ماذا فعلت يارب فى دنياى حتى يصيبنى هذا كله؟ والجواب على هذا التساؤل الغريب هو ما قاله جون شتاينبك على لسان الأب يخاطب ابنه:

– يالك من مسكين، تحسب أن الدنيا كلها لك وحدك، ولست وحدك فيها أيها العصفور.

وهنا نضع أيدينا على داء من الأدواء التى تجعل حياتنا اليوم جحيما، وقد أشرت إلى ما وصفه أنيس منصور من تزاحم الناس وتدافعهم، ودفع الناس بعضهم لبعض فى الطرقات دون إحساس أو مراعاة، فالواحد منهم يدوس الآخر ولا يبالى، لأنه يعيش بإحساس أن الدنيا له وحده، وهو وحده له حق المسير فى الطريق، والآخرون دخلاء وله الحق أن يدوسهم إذا اعترضوا طريقه. ومن أسابيع وقفنا عند معبر للطريق فى شارع الهرم، وكنا جماعة نريد أن نعبر إلى الضفة

الأخرى ، والسيارات تنهب الأرض دون مراعاة لأحد ، ونحن ننتظر ونشير بأيدينا ولا أحد يطامن من سرعته ويأذن لنا فى المرور ، كأنه هو وحده الإنسان ونحن لا ناس ، كأن الإنسان منهم إذا أخذ رخصة قيادة سيارة فهى عنده رخصة ليدوس الناس ، وبعد لأى وخوف شديد وقف لنا راكب سيارة وأوقف الآخرين. فعبرنا ونحن لا نصدق بالسلامة ، وكأننا فى ميدان حرب. ونجونا من رصاص القناصة. وأنظر إلى صاحب السيارة الذى تفضل علينا بذلك فأجده الممثل عمر الحريرى ، وأقول لنفسى :

أخيرًا.. رجل متحضرا

أجل: متحضر. لأن الموضوع هنا موضوع حضارة ، لأن الحضارة من معانيها الرئيسية القدرة على العيش معا فى سلام ، والعيش يختلف عن التعايش. فإن الحيوانات تتعايش على أساس الافتراس ، فهى لا تراعى بعضها بعضا ، وإنما يخيف بعضها بعضا ، ويتحامى بعضها بعضنا ، فالسبع أو النمر والغزال تتعايش ، ولكن على أساس الهرب والخداع ، فالنمر لا يترك غزالا قط إلا إذا كان قد شبع وامتلأ أو قعد به المرض أو أعجزه الغزال بسرعة عدوه والأرنب يعيش فى جحر عميق لا سبيل للسباع إليه وهذا تعايش على أساس الغريزة الوحشية ولكنه ليس عيشًا معًا. ويفرق جوردون تشايلد بين الاثنين.

فالتعايش الغريزى يسمى CO-EXISTENCE معا على أساس العقل والفهم الحضارى يسمى CO-LIVING . فالأول مجرد وجود أو نجاة من الهلاك SURVIVAL : والبقاء مع الخوف الدائم. وفى وجود كهذا. لا أمن ولا فكر ولا تقدم. والثانى حياة فى ظل العقل والأمن وهنا يكون الفكر والتقدم والحضارة ، هنا يزدهر الفكر وتنمو الفضائل.. وينتقل الإنسان من الوجود إلى الحياة.

وهذا هو الذى انتهيت إليه بعد تفكير طويل فى أحوالنا فليس الذى نحن فيه اليوم حياة بل مجرد وجود أو إفلات من الهلاك أو «سيرفايفل» ، فأنت تخرج من بيتك ولا تدرى إن كنت تعود ، فإذا كنت راكب سيارة فأنت لا تأمن سيارة أخرى يركبها مخلوق يحسب أنه مادام قد اقتعد مكانه وأمسك بعجلة القيادة فقد أصبح الشارع كله ملكه ، وليس على ظهرها إلا هو وسيارته قاتله الله! فهو يندفع ويلف ويدور ويهشم سيارات الآخرين ، لأن الشارع كله ملكه ، والمرور كله فى خدمته ، وإذا كنت سائرا على قدميك ففرصتك فى النجاة قليلة؛ فالأرصفة استبد بها من دونك أصحاب سيارات أوقفوها عليها ، وبعضهم يسترسل فى البدائية والوحشية ويغطى سيارته على الرصيف بغطاء من قماش. لأن هذا الرصيف ملكه ، ونحن السائرين على أقدامنا لا شىء : هوام أو حشرات أو قطط وكلاب نستطيع أن نمر تحت سيارته ، فليس على ظهرها غيره. وبعد السيارات تجد بائعًا قد احتل الرصيف بصناديق فاكهة. ونحن إذا عذرنا هذا البائع لأنه جاهل يطلب رزقه بالطريقة التى تعود عليها.. فأى عذر نلتمسه لرجل المفروض أنه متعلم ويعرف شيئًا عن المواطنة والمواطنين؟ وما باله لا يكتفى بوضع سيارته على الرصيف بل يغطيها بقماش حماية لها ، ويرغمنا نحن على الهبوط إلى نهر الشارع والتعرض للخطر؟ إن سيارته عنده أغلى من حياة الناس ، وهذا مستوى فى الإحساس الإنسانى جد ضئيل ، وصاحبه لا يمكن أن يكون متحضرًا. إنه حيوان بدائى يتصور أن الدنيا كلها ملكه ولا وجود للآخرين.

ومثل هذا الرجل ألوف وألوف من أولئك الذين يعيشون معنا ويحسبون أنهم مواطنون صالحون ، وماهم بمواطنين بأى حال. وقد تعودنا القول بأن اللص هو من يأخذ مالا ليس له ويدعى أنه له وهو يعلم أنه كاذب. وجريمة السرقة هنا لا تتوقف على قدر المسروق أو

طريقة السرقة ، فسارق الجنيه لص وسارق الألف لص ، والذى يدس يده فى جيبك وينشل حافظة نقودك لص.

والرجل الذى يقتحم دارك لص، وكذلك الذى يتقاضاك عن سلعة أو خدمة أضعاف ما تستحق ، وقد يزعم بعض المشتغلين بالتجارة أنها تجارة وشطارة وأن التجارة تبيح للتاجر أن يكسب أقصى ما يستطيع. وهذا ليس مجرد خطأ فى فهم معنى التجارة. بل هو سرقة مقصودة. والمقدم عليها لص. وأى فرق والله بين النشال الوضيع والمحتال الرقيع وطبيب موفور الرزق يرفع أتعابه ضعفين وثلاثة. أو يطلب عن عملية جراحية أضعاف ما تسمح به آداب المهنة؟ والمحامى الذى يبذل أقصى وسعه فى الحصول على توكيلك ومقدم الأتعاب. ثم لا ترى منه بعد ذلك إلا تأجيلات وتسويفات. وفى كل يوم يكون عنده أربع أو خمس قضايا فى محاكم شتى ، فيحضر واحدة ويكلف زملاءه بالاعتذار له وطلب التأجيل فى الباقيات ، ومدرس يتعمد إرغام التلاميذ بأساليب معروفة على أن يأخذوا عنده دروسًا خاصة وينتقل من بيت لبيت كأنه محصل لا معلم. ويطول الأمر لو مضينا نستعرض المنحرفين فى شتى المهن.

فهذه الممارسات كلها ممارسات عدوان على أموال الناس وعلى أمن الوطن كله ، وإذا كنت قد صورت لك جرائم أولئك الذين ينطلقون بسياراتهم فى الشوارع غير عابثين بإخوانهم المواطنين الذين يريدون عبور الشوارع ، وأريتك معى أنهم فى الحقيقة سفاحون على عجلات القيادة. فقد آن أن أقول لك هنا إن المسألة ليست مسألة استخفاف أو نزق فحسب ، ولا هى أعمال سطو غير مشروع على أموال الناس وحياتهم فقط.. بل هى دليل على أن المستوى الحضارى العام منخفض جدًا ، لأننا فى الحقيقة نعيش بأسلوب البدائيين الهمج الذين لا يعيشون ولكنهم يتعايشون. والحياة عندهم هرب من الاغتيال ونجاة من الهلاك أو «سيرفايفال».. وصدقنى.. إنك عندما تعود إلى بيتك

سليمًا بعد انتهاء عملك فتلك مصادفة لأن أى ضعلوك جالس على عجلة قيادة كان من الممكن أن يصدمك ويصيبك بأذى لا حدود له. لولا عناية الله ، وإذا صحوت من نومك بحمد الله معافى أنت وأهلك فتلك أيضًا مصادفة ، لأن شيئًا ما لو طرقك أو أيا من آلك بالليل ، لا قدر الله ، واحتجت إلى الطبيب المسعف فسيطول شقاؤك ، لأن التليفون لن يسعفك ، ورقم الإسعاف لا يرد ، ولو رد فإنه لن يدركك إلا وقد فات الوقت ، وإذا أتى رجال الإسعاف وحملوا المريض فهو لا يدرى في أى أيد سيقع ، والمفروض أنك تحت مظلة التأمينات. ولكن تلك المظلة سلوك ولا قماش ، وها أنا ذا أكتب لك هذه السطور وأنا مثلك تحت المظلة ، ولكن صدقنى أنه لو وقع لى شيء الآن فلا أنا ولا أهلى تعرف إلى أين نتجه ، والمفروض أن كلا منا ينبغى أن تكون معه بطاقة تأمين صحى على مستشفى أو مركز إسعاف معين قريب من بيته. وفى البطاقة أرقام تليفونات المفروض أنها ترد وتستجيب وتسعف فى المحال. وقد قيل لى إن هذه البطاقات موجودة ، ولكن الذين اعتمدوا عليها ندموا على ذلك أشد الندم.

والمصيبة أن هذه البطاقات موجودة ولا تنفع ، وليس أمامنا جميعا إلا الحل القديم الذى كان موجودًا قبل المظلة وبعدها. وهو أن تتصل بطبيب صديق إذا كان لك طبيب صديق ، أو يسرع المصاب أو يسرع به آله إلى قسم الطوارئ فى أحد المستشفيات ، وهذه الطريقة موجودة قبل المظلة. وكانت فى الماضى تنفع ولكننى جربتها مع ناس أحبهم ثلاث مرات ، وفى مرتين ضاع منا المريض ، وفى الثالثة أنقذناه فى آخر لحظة «صدفة» والصدفة كانت طبيبًا طيبًا متحضرًا مجربًا وجدناه هناك «صدفة» فرأف بحالنا فأسعف المريض.

إذن فكيف تكون هناك مستشفيات ومراكز إسعاف وأرقام مدونة على بطاقات ولا نتيجة؟ كيف يكون هناك ناس معينون لإسعاف المرضى فى مئات المستشفيات ولا فائدة والمريض أو المصاب الذى يصل يقضى

الساعة أو أكثر قبل أن يظفر بأى عناية؟ هل هذا خطأ الدولة أو المسئولين عن شئون الصحة؟ لا والله فالحكومة تنشئ المستشفيات وتعين الأطباء والمرضين وتدفع الرواتب ، ولكن المصيبة فى الناس الذين لا يحسون بإحساس الآخرين قط ، والمريض أو المصاب فى نظرهم رزية أو جثة. رجل غريب ينظرون إليه كما كان البدائى ينظر إلى أى رجل غريب عن قبيلته إنه ليس إنسانًا فى نظره بل هو عدو ينبغى التخلص منه ، إنهم يحسون أن الدنيا كلها خلقت لهم وحدهم ، والآخرون ليس لهم وجود.

ومنذ عامين كنت فى طليطلة بأسبانيا فى مؤتمر ، وأصيبت ساقى إصابة أليمة ، ونادينا تاكسيا فأخذنا إلى أقرب مستشفى ، وما كدنا نصل حتى لاحظ المرضون أننى لا أستطيع السير ، فأسرعوا بكرسى ذى عجلات ونقلونى عليه ، وخلال ساعة كان الكشف قد تم ، وعملت صور الأشعة ، وكتب العلاج ، كل هذا ولا بطاقة مظلة معى ولا رقم تليفون وإنما هم الناس الذين هناك هم الذين يشعرون أن المريض إنسان مثلهم ، له حق العناية ، وأنهم يتقاضون رواتب ليكونوا هناك دائما. أما أن تصرف الرواتب وأصحابها إما أنهم غير موجودين فى مواقعهم وإما أنهم موجودون ولكنهم ينظرون إلى أى مريض يؤتى إليهم به وكأنه رزية أو بلية أو تلقيحة ، فلابد أن يكون هناك شيء ناقص. إذا وجد المرض لم يوجد الطبيب ، وإذا وجد المرض والطبيب فجهاز الأوكسوجين لا غاز فيه والأشعة معطلة وفى كل الحالات فالدواء غير موجود وعلى المريض أو آله أن يسرعوا إلى الصيدليات المناوبة.. وأين هى؟ فى أوروبا تجد على باب كل صيدلية مقفلة قائمة بالصيدليات المناوبة المفتوحة فى ليلتك. كشف داخل برواز مضيء وعلامة على أقرب صيدلية ، وأسأل صديقًا صيدليًا فى ذلك فيقول: جربنا ذلك فكان اللصوص يسرقون المصابيح ، والمصباح الصغير هذا ثمنه قروش قليلة ، وأنا شخصيًا لم

أسمع بهذه التجربة «ونقابة» الصيادلة لم تضع أى تعليمات دقيقة لتنظيم شئون الصيدليات المناوبة، والإعلام الضرورى بهذا الشأن منعدم، وبعد نشرة الأخبار فى أى بلد متحضر يقرءون عليك فى التليفزيون قائمة بالصيدليات المناوبة فى كل حى، وخاصة فى المدن الكبرى، والناس يصغون إلى هذا البيان وفى يدهم المفكرة والقلم، ليدون كل منهم الصيدليات المناوبة فى حيه، ويكفى فى هذه الحالة أن يعطوك صيدليتين فى كل حى، لأن الصيدلية تدلك على الطبيب إذا احتجت إلى الطبيب، أما عندنا فانك تسمع بعد النشرة أغنية تقول لك: إنك تنتسب إلى سبعة آلاف سنة من الحضارة، وتتلفت حولك وتبحث فى جيوبك وتنظر من النافذة وتسأل أين؟ أين هى تلك الآلاف السبعة؟ كان يكفى والله سنة واحدة! كان يكفى أن نكون فى سنة أولى حضارة على أن تكون سنة أولى وحضارة حقًا.

لابد أنك رأيت بعض أفلام رعاة البقر.

ولابد أنك رأيت مرة فى هذه الأفلام قطيعًا من البقر أو البقر الوحشى المسمى بالبيزون، وقد ذعر وانطلقت ألوفه فى حالة ذعر أو فزع أو «يانيك» حيوانى يسمى «بالاستامبيد» هنا ترى ألوف البقر تنطلق مروعة يدوس بعضها بعضا، وتدوس كل ما يعترض طريقها. فهذا هو ما تراه حولك: استامبيد! والناس يخطفون من حولك، ويدوسونك إذا اعترضت طريقهم أو لم تنتبه لنفسك، وانظر إلى الشارع المصرى وقل لى إن لم تكن بالفعل فى حالة اليانيك هذه. فالسيارات تدوسك قطعًا إذا لم تكن فى يقظة الفأر، وإننا لنرى من فظائع ما يحدث مالا يكاد يصدق، وفى الإسكندرية على الكورنيش تبينت أن عبور الشارع مخاطرة بالنفس، وكادت السيارات تصيبنى بشر عظيم ذات مرة، فأقصرت عن العبور. وحرمت على نفسى متعة المشى على شاطئ البحر، ولأجلها أتيت! ولمدة عشرة أيام لم أجازف بعبور الشارع مرة

واحدة ، وبين رجل مرور ورجل مرور مسافة ميلين أو أكثر ، وأصحاب السيارات كأنهم أعلنوا الحرب على المشاة. لا هوادة ولا رحمة كأنهم غزاة دخلوا بلدا وألغوا قوانينه وأعلنوا حالة طوارئ وهم أعلنوها فعلاً ، وأى سائر فى الطريق يعتبر نفسه فى حالة طوارئ.

وما يحدث لك فى الطريق يحدث لك فى غير الطريق فى صور شتى، وأنت دائمًا فى حالة «يانيك» ودفاع عن النفس ونجاتك مصادفة! وهل هناك أبسط من عملية شراء شىء من الفاكهة؟ ولكنك لا تكاد تقترب من الفاكهى حتى يشرع فى عملية اغتيال مالك ، فالسعر الذى يقوله لك مضاعف ، وأنت وحظك ، فإذا كسبت منه معركة السعر اغتالك فى النوع: قطعتان على الوجه والباقى ستلقيه فى الزبالة، فإذا كسبت معركة النوع اغتالك فى الوزن! فمالك ضائع ضائع، وهذا الذى يبيعك الشىء عدو يتحفز ليغتال مالك. وأى عامل تطلب إليه خدمة فهو يفرض عليك أجرا وكأنه يشهر فى وجهك مسدسًا ويقول لك كما يقولون فى الألمانية: مالك أو دمك. وقد تعودت أن أكشف على نظرى عند طبيب أعرفه كشفًا روتينيًا مرتين فى العام ، لكى أقيس المسافة بينى وبين الظلام ، وكنت أدفع فى هذا الكشف جنيهات عشرة إلى العام الماضى ، وهذا العام أعطيت شيخ الخفر ، ولا أقول الممرض فهو فى الحقيقة شيخ خفر ، الجنيهات العشرة.. فقال: عشرة أخرى ، أصبح الكشف عشرين ، ففكرت قليلاً ثم أخذت منه الورقة المالية وقلت: لا لزوم مادمت أفرق بين الورقة ذات العشرة والورقة ذات العشرين ، فحالة النظر هى هى والحمد لله ، وصاحبى الطبيب لن يقول لى إلا هذا على أى حال وهبطت السلم وأنا أغبط نفسى على أننى كسبت عشرين جنيها!

ومن المسئول عن ذلك؟

الحكومة؟

وهل الحكومة إلا نحن؟ ومن يكون الجالسون فى مكاتب الدولة إلا نحن أو أبناء عمومتنا؟.. فالعيب فيهم كما هو فينا. ومن شهور شب حريق فى بيت جار صديق بعد منتصف الليل ، وبعد محاولات لاستدعاء المطافئ بالتليفون ، رد رجل يقول: المطافئ لا تستدعى إلا من مراكز البوليس! ويسرع ابن الرجل بملابس البيت ميلين إلى نقطة البوليس ، فيجد الضابط يتحدث ويتضاحك بالتليفون ، ثم استأذن من صديقه ، وقال للشباب:

- فيه حاجة يا حضرة؟

- أجل ، فى بيتنا حريق . وأرجو استدعاء المطافئ.

- البطاقة؟

- سيدى لقد أتيت إلى هنا عدوًا والنار فى بيتى.. أرجوك وأنا فلان..

- البطاقة أولاً

وأسرع الشاب عائدًا إلى بيته ، بينما رفع الضابط سماعة التليفون وعاد إلى الضحك وهو يقول:

- بقى هيه الحكاية كده يا حمادة؟

وعندما عاد الشاب ، وجد أن النار قد التهمت نصف البيت ، وذكر الأب أن لديه رقم ابنة أحد كبار المسئولين فهى صديقة ابنته ، فاستغاث بها فجاءه الفرج.

والرجل موجود يستطيع أن يؤكد الواقعة.

ولكننا أمام حالة فريدة لناس يعيشون كأنهم عصافير أو غربان ، كل منهم يحس كأنه وحده على ظهر هذه الأرض ، أو كأن الله خلقها له وحده ، والناس من حوله غرماؤه فهو يغتالهم على قدر ما يستطيع ،

وهم أيضًا يعاملونه بالمثل ، ولو استطاع الواحد منهم أن يمحق الآخرين ليعيش وحده لفعل.

مبالغة؟ لا والله! إنه الواقع ولا زيادة ، وبالأمس سمعنا ثلاثة أو أربعة من المسئولين عن مياه الشرب يقولون: إن الطحالب فى الماء دليل على جودته وصلاحيته للشرب ، وأنا واثق أننى لو قدمت لكل واحد من هؤلاء السادة كوب ماء بالطحالب وقلت له: أشرب ماء صحيا بالطحالب.

أتظن أنه يشربها؟ لا والله! إنه يرضاها لنا ، ولا لنفسه ، فنحن شىء وهو شىء. نحن لا ناس وهو ناس ، وقد خلق الله الدنيا كلها بما عليها ومن عليها لهذا العصفور ، فليس على ظهرها غيره.

وهل هذا المستوى الحضارى المتدنى جديد علينا؟ أقصد هل كنا بالأمس أحسن مما نحن عليه اليوم؟

فى الظاهر فقط ، أما فى الباطن والحقيقة فقد كنا دائمًا هكذا.

أما ما يبدو من أنه كان هناك – من ثلاثين سنة مثلاً – نظام أحسن وخلق أسمى وأخلاقيات أعلى ، فالسبب فى ذلك أننا كنا أقل عددًا ، وكانت المرافق جديدة ، فلم يكن التزاحم بهذا العنف ولم تكن المرافق قد بليت ولا كانت مكاتب الحكومة قد اتسخت وهبط حالها إلى المستوى المخيف الذى هى عليه اليوم.

وكانت قد عبرت بنا موجة – قصيرة الأمد مع الأسف – من الحضارة الأوروبية فتأثرنا بها حينا ثم عدنا إلى ما كنا عليه.

عدنا إلى حضارة المجتمع العربى من القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى وما بعده ، وهى حضارة تدهور وأضطراب وظلم.

وفى ظل هذه الحضارة لا يكون للإنسان هم إلا النجاة بنفسه وعياله، وفى ظل تلـك الحضـارة المترديـة سـادت الأنانيـة ، وكـل إنسـان كـان يتصرف على أنه عصفور - أو غراب - وحيد فى تلك الدنيا ، وكل مـا فيها له وحده ولا وجود للآخرين..

أما حضارة التعاون ، حضارة العيش معًا ، فلـم نسـعد بـها إلا فـترة قصيرة جدًا.. وتلك حكاية أخرى تحتاج منا إلى حديث يعيننا الله عليه إن شاء الله. □

(٨)

أنفقت مالى وحَجَّ الجمل*

عادت قوافل الحجاج إلى قواعدها سالمة والحجاج عادوا من رحلة التقى، والصلاح أبرارًا كما ولدتهم أمهاتهم. لكى يبدءوا عامًا جديدًا من أعمارهم المجيدة يخوضون خلاله فى متاهات الحياة إلى الرقاب. ويكونون فى نهايته سودًا كالهباب كما تريدهم شياطينهم.

وعلى ألوف البيوت فى طول البلاد وعرضها أقيمت الزينات على بيوت الحجاج السعداء، وتألقت حبال من المصابيح المختلفة الألوان تعلن أن هنا واحدًا من السعداء الذين حجوا وزاروا ولبوا وسعوا ووقفوا بعرفات وأفاضوا من منى وغفر الله سبحانه لهم كل ذنب تقدم وقلدتهم الملائكة الأطهار أوسمة من نور.

وأمام العمارة الصاعدة إلى عنان السماء التى شادها الحاج حسنين عبد الدايم عنبة – عنبة واحدة – على أرض استولى عليها بوضع اليد وبناها دورًا دورًا بحجارة من جهنم. جلس الحاج الذى زار سبع مرات واعتمر سبع مرات وأسبل عينيه يستمع إلى آيات الذكر الحكيم فى سرادق عظيم أقامه بماله كله منهوب وأضاءه بألف مصباح وأخذ التيار لها من جامع سيدى المحبوب، لأن الحاج عنبة لا تقف جرأته عند مال النبى. بل هو أيضًا يأكل مال الله، ولا ضير عليه فى ذلك فإنه يقول: أن الله سبحانه يغفر كل الذنوب.

وترك الحاج التقى الصالح آيات الذكر الحكيم تتضوع كالمسك فى جو السرادق، وجلس على أريكة عالية حليق اللحية مصبوغ الشعر كأنه عريس وسبح مع أحلام مئات الألوف التى سيجمعها هذا العام. فقد

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٨٢م .

عقد بعد أن أفاض من منى وحل الإحرام عقدا مع حاج من أمثاله من أبناء الملايو يسمى عبد الستار فونج تونج ومركز أعماله فى هونج كونج، باستيراد بضع مئات الأطنان من أحقر أصناف الشاى، وتسلم من الحاج فونج تونج بعد أن دفع العربون صندوقًا مليئًا ببطاقات مستديرة مطبوعة بالذهب آنق طبع وأجمله تقول:

إن هذا الشاى هو القطفة الأولى من الأيرل حراى أغلى شاى فى الدنيا، وقد رصها الحاج فى الصندوق رصًا وغطاها بسجاجيد صلاة ومسابح ولفائف من المسك والعود، فرقها على رجال الجمارك وهو عائد إلى الوطن العزيز، ومر من الجمرك دون تفتيش، وتراب الشاى يعبأ الآن فى دهاليز دكانه فى أكياس من البلاستيك وتثبت فى كل كيس منها بطاقة مذهبة لتباع بعد ذلك على عباد الله التعساء فى صناديق جميلة تقول بلغة إنجليزية سليمة إنها واردة من سيلان من صنع س. م. بلاك وت. ر. هوايت الموردين الخاصين لبلاط جلالة الملكة التى غربت شمسها فى كل مكان.

وأشرقت فى سرادق مقصوف الرقبة. الحاج حسنين عبد الدايم عنبة. ومحلاته من مشهد الإمام الحسين إلى العتبة. وعين الحسود فيها ألف حصوة وحبة.

وفى شارع قريب من الشارع الذى يقيم فيه الحاج عنبة أنواره تلألأت أنوار أخرى أوقدها زميله فى التقى والورع الحاج محمدين عوضين المجذوب فقد عاد هو الآخر من الأراضى الحجازية بعد أن أكرمه الله بالحج والزيارة سبع مرات وبالعمرة سبع عشرة مرة.

جلس هو الآخر فى صوان أقامه عند عماراته التى شادها بالمال الحرام فى شارع الحجاز. جلس غارقًا فى أنوار الكهرباء وترقرقت آى الذكر الحكيم فى الآذان جميعا إلا أذنه فقد كان مشغول بقضاياه التى

لا تنتهي لأن كل ساكن من سكان عماراته تلك قد رفع عليه قضية، ولو أحسنت الحكومة لخصصت له دائرة قضائية تشمل كل درجات المحاكم من الجزئي والابتدائي إلى النقض والإبرام لأن مال صاحبنا كله حرام في حرام، والشقة التي قيل ساعة الاتفاق إنها مائتا متر أصبحت مائة وخمسة عند الاستلام ومن يرفض الاستلام فهذه فلوسه يستطيع أن يستردها على داير مليم ولا ضير على الحاج في ذلك. فقد بنى عمارته بمال الناس. وهناك مئات مستعدون لدفع ما يطلب والحاج الذكي لم يكتب إيصالاً أو ورقة بمقدم أو عربون وكله كلام في كلام.

وهذا العام يدخل أخونا الحاج المجذوب ميدان الموبيليا والأثاث وقد اتفق مع الحاج تركي يسمى الحاج ترمان بدر الدين جاويد يحج سنة ويغزو أخرى كما كان يفعل هارون الرشيد، اتفق معه على إنشاء شركة اثاث حديث تسمى شركة مجذوب - كو. كل ما فيها مصنوع من خشب الجوز إذا شئت أو البوا - دى - روز، من تصميمات المصمم الإيطالي اليصاند - ينو نصابيني وستشتريها العرائس لأنها جميلة براقة.

وستتبين كل عروس بعد التبات والنبات، أن ما بها ليس بخشب الجوز ولا بخشب على الإطلاق. وسترفع القضايا وتدور ألف خناقة، ولكن ذلك كله لا يهم الحاج المجذوب. وفيما تضيره مائتا قضية جديدة إذا كانت لديه ألف! والمهم أن الأموال تنصب في جيب صاحبنا بغير حساب، ويبتني عمارات جديدة، وعلى باب كل عمارة حاجب وبواب. وفي آخر العام سيحج صاحبنا ويغسل آثامه جميعا ويعود إلى أرض الكنانة طاهرًا كما ولدته أمه.

والحج فيما قالوا له زيارة وتجارة.

والتجارة عنده ضحك على الناس وشطارة.

وغاب عن باله يا ألف خسارة.

أن هناك نارا وقودها الناس والحجارة.

وأرجو ألا يقع فى ذهنك وأنت ترى زيوف الحجاج هؤلاء، أن معظم الحجاج من هذا الطراز، فإن الغالبية العظمى من ضيوف الرحمن مسلمون مخلصون يخرجون للحج فى يسرة أو عسرة وقلوبهم معلقة بالكعبة وربها، وأمنيتهم العظمى فى الحياة هى أن يصل الواحد منهم إلى بيت لله ويحج ويقيم ما شاء الله له أن يقيم ثم يعود. والألوف منهم يخرجون من ديارهم لا يملكون إلا قوت شهر أو شهرين والكثيرون منهم يخرجون من بلادهم فى السنغال أو موريتانيا والنيجر ونيجيريا عند سوكوتو أو كانوا أو من بلاد الجوكون، فيما يعرف اليوم بالجابون، ويسيرون جماعات ترتزق على الطريق ومنهم من يحمل على ظهره زكيبة من التمر الجاف أو الشعير وما تيسر له من الجلود وهو يبيع ويشترى على الطريق، والرحلة طويلة شاقة ولكن الأمل فى زيارة بيت الله يشد عزمهم ويقوى قلوبهم، وغالبيتهم يختارون طريق السودان النيلى، لأنهم يجدون هناك ناسًا طيبين فى حاجة إليهم. لأن الأرض واسعة، والناس فى بعض نواحى السودان لا صبر لهم على الزراعة فيكترون من تيسر لهم من أولئك الناس يعملون لهم فى الأرض فى مقابل نسبة من المحصول ويعمل الرجل منهم فى الأرض سنتين أو ثلاثا حتى يدخر ما يمكن له من مواصلة الرحلة وأولئك هم (الفلاتة) الذين يقومون أيضًا بنشر الإسلام على طول الطريق وهم ناس فى غاية الأمانة والشرف. ينزلون حيث يشاء الله لهم أن ينزلوا فيخدمون ويعطون أضعاف ما يأخذون، والفلاحون يأتمنونهم على أموالهم ونسائهم لأنهم أهل أمانة وفضل، فإذا اجتمع للواحد منهم من فضل عمله ما يمكنه من مواصلة الرحلة مضى، وقبل أن تستولى الحبشة علي بلاد أريتريا كان حجاج أفريقيا يعبرون إلى الحجاز من موانى زيلع ومصوع وما جاورهما ويصلون إلى بلاد اليمن أو عسير، وهناك يعودون إلى الزرع والحصاد،

وشمال اليمن وعسير فى نواحى غامد وأبها وما جاورها من أخصب بلاد الله، فكان أولئك الناس يكسبون هناك مالاً طيبًا حلال، ثم يصعدون إلى أرض الحجاز فيحجون ويعتمرون، وكان مياسير الحجاج ينفقون الألوف على أولئك الناس، سواء فى الإقامة أو العودة ولم تكن أرض الحجاز فيما مضى أرض معاش واسع كما هى اليوم فكان معظم الحجاج الأفارقة يعودون كما أتوا فإذا عاد الواحد منهم إلى وطنه حاملاً لقب الحاج لم يعد يعنيه بعد ذلك من الحياة إلا أن يربى أولاده ثم يموت فقيرا قرير العين، فقد أكرمه الله بأغلى ما فى الدنيا فى إحساسه، وهو زيارة بلده الحرام والطواف حول الكعبة وإقامة شعائر الحج المبرور والوقوف بشباك المصطفى (كامل البهاء والنور) ومثل هذه الرحلة الشاقة كان يتجشمها الألوف بعد الألوف من أهل الملايو وجاوة وسومطرة وبلاد البنغال وبقية الهند وأفغانستان وما إلى شمالها من البلاد الواقعة اليوم فى أسر الروس والشيوعية. والله سبحانه يكتب لهم الخروج من سجن الكافرين والعودة إلى عالم الإيمان، ومعظم هؤلاء كانوا يحجون بطريق البحر، إما على نفقة أهل الخير والصلاح وما أكثرهم، وإما عاملين فى السفن وقادين وخدما وحمالين.

وقد قرأت من سنوات كتابًا هو قطعة من الإيمان، عنوانه طريق مجرة إلى السماء.. كتبه شاب طبيب يعمل فى ولاية أيوا الأمريكية، واسمه سيف الدين شوهان، مال وحكايته كما يحكيها كما يحكيها فى كتابه أعجب من الخيال، فإن والده واسمه علاء الدين شوهان كان من حجاج الملايو من إمارة البتك. ففى سنة ١٩٣٣م قرر الوالد أن يحج بامرأته، إذ أتيحت له فرصة السفر إلى جدة خادمًا على إحدى السفن الإنجليزية وتيسرت لامرأته فرصة العمل على نفس السفينة. ووصل الاثنان إلى الأرض المباركة فحجا وجاورًا. ثم انقطعت بهما السبيل، فقد كان الموسم ممحلاً والحجاج الموسرون قليلين، وبعد الحج أقام الرجل وامرأته فى

الحوارى المحيطة بالحرم يبيعان ما يتيسر لهما من خبز وبيض ومتاع رخيص، أو يتسولان، ونزلت بالبلاد نازلة وباء احتملت الوالد علاء الدين شوهان. فمضى مخلفا امرأته حاملاً وجاء الموسم، ووفد الحجاج، وأنجبت الأم ابنها سيف الدين فى موسم خصب وخير وبركة.

ويشاء ربك أن يحج فى ذلك العام (١٩٣٥م) حاج من مياسير أهل البتك، يسمى تاج الدين - رضا - مال، على سفينة تجارية يملكها، وأوسع الله عليه فكسب فى سفرته تلك مالاً كثيرًا، وكان ذات مرة يتسوق حول الحرك فراعته كثرة المتقطعين من أهل بلاده، فآلى على نفسه أن يعيد منهم من يريد إلى وطنه.

وكانت أم سيف الدين منهم، فعملت خادمة سفينة العودة ووصلت إلى بلادها مع وحيدها، وهناك عملت فى أرض الحاج تاج الدين، وكان ذلك الرجل الطيب قد افتتح فى أرضه مدارس إسلامية للصغار فدرس فيها سيف الدين ثم ظهرت منه نجابة، فأنفق الرجل عليه من ماله مع مئات من أمثاله ووصل الشاب إلى مدرسة الطب فى كوالا لامبور، وكانت إذ ذاك عاصمة مستعمرة بريطانية وتخرج فى المدرسة وعمل فى مستشفاها، وهناك لقيه طبيب أمريكى من ولاية أيوا كان يدرس هناك طب المناطق الحارة فأعجب به وتوسط له فى بعثة إلى جامعة الولاية فى ضواحى بلدة ديموين فلما وصل إلى هناك وعرفه الناس أحبوه وعينوه معيدًا فى كلية الطبب وكان اسمه قد أصبح سيف الدين شوهان مال و(مال) كان لقب التاجر الموسر الذى أعاده مع أمه من الحجاز إلى الملايو، وكان الرجل قد أعطى اسمه لكل من شاء من الأولاد والبنات الذين عادوا إلى البلاد على نفقته.

وقد أصبح سيف الدين مال من كبار أساتذة الطب فى جامعة الولاية، فكثر ماله وتزوج من أمريكية أسلمت لأول يوم تعرفت به، وأخذت اسم مريم وهو اسم أمه وجعلت تلح عليه فى العودة إلى بلاده مع أولادهما، فما كادت الحرب العالمية الثانية تنتهى، ويسرح الرجل

من الخدمة العسكرية، حتى عاد بماله إلى ولاية البتك، وهناك عاش وعمل وكتب حكايته فى كتابه هذا الذى أشرت إليه.

وإذا كانت الصلاة قرة عين كل مسلم. فإن الحج أمله ومناط حبه، وعلى مدار التاريخ ظلت مواكب الحج من أطراف المعمورة تفد على الأرض المباركة. ويتجشم أصحابها من عناء الرحلة وشظف الحج والقيام بمناسكه ما تجده مفصلا فى كتب الرحلات، ولكن يشاء ربك أن الحاج مهما عانى من الوصب فى رحلته فلا تكاد عينه تقع على الكعبة حتى يشرق قلبه بالنور، وينسى مضانك الرحلة ومتاعبها. ويفيض قلبه بحب الله ورسوله، ويلهج لسانه بالحمد شاكرا ثم ملبيا.

ويصور لنا ذلك الإحساس الدينى الدافق. الرحالة المشهور محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الغرناطى صاحب كتاب الرحلة الجبيرية الذى يعتبر أجمل كتب أوصاف الرحلات فى أدبنا الجغرافى. لقد قام هذا الرجل بثلاث رحلات للحج من موطنه غرناطة إلى الأراضى المقدسة. وقد ولد فى غرناطة سنة ٥٤٠هـ ١١٤٥م. وتوفى فى الاسكندرية عائدًا من رحلته الثالثة سنة ٦١٦هـ أو ٦١٧هـ ١٢١٩م، أو ١٢٢٠م وهو معاصر لصلاح الدين. وقد قام برحلته الأولى للحج عندما كانت القدس فى أيدى الصليبيين. ووصف رحلته وصفًا بديعًا. فلما بلغه أن صلاح الدين قد استعاد القدس أسرع يحج مرة أخرى، ثم رحل للحج رحلته الثالثة بعد موت زوجته، وتلك هى رحلته الأخيرة التى مات وهو عائد منها.

وابن جبير دقيق جدًا فى وصف رحلته. فهو لا يترك شاردة أو واردة إلا دونها، ولا ينسى ذكر التواريخ قط ولكنه لا يكاد يصل إلى الحجاز بعد مكابدة أهوال شتى فى رحلته الأولى حتى ينسى نفسه ووقته وتواريخه . وتهتاجه العاطفة فيصبح كلامه كله شعرا. وهو لا يرى مكة والمدينة بعينيه بل بعين العاطفة والخيال والإيمان. عندما يقترب من

مكة لا يعود يرى أرضًا أو جبالاً أو وديانًا. إنما هى أنوار تهل عليه، وجنان تحيط به، وعطور تملأ الجو حوله، وما يحس به قلبه يطغى على ما تراه عيناه. وقد قلت فى كلامى عن رحلته تلك فى كتابى (تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس).

ولا غرابة في ذلك فإن الرجل الذى يحمله الإيمان على ركوب المخاطر، والتعرض للمهالك من ساحل الأطلسى أو من حدود الصين إلى الحجاز ينتقل بشعوره إذا هو اقترب من مهد الإسلام وبلد البيت العتيق أو إذا هو أهل على مدينة سيد المرسلين وعترة بنى آدم. من عالم الواقع إلى عالم الإشراق الروحى، وتستغرق إحساسه نشوة غامرة نحمد أننا كنا ممن عرفها واستشعر جمالها.

الحق أن رحلة ابن جبير قطعة من الأدب الجغرافى إلا عندما يصل إلى مكة المشرفة. هناك يصبح الرجل شاعرًا ثم صوفيًا فهو لا يتحدث إلا عن الأنوار والبركات والخبرات وهو لا يصف لنا - على عادته - مأكله ومشربه. كأنما استغنى عن زاد الدنيا بزاد المعاد. وهو ينتقل من مشعر إلى مشعر من مشاعر الحج. وكأنه دانتى يتجول فى نواحى الفردوس فى صحبة بياتريس. وهو عاشق ولهان - مثل دانتى - وهو معذور فى عشقه. فإن الله سبحانه وتعالى قد أفرغ على بيته وما حوله من الجمال ما يجعل أبعد الناس عن الشعر شاعرًا، لقد حججت أول مرة سنة ١٩٣٨م. ولم تكن المملكة السعودية قد أنشأت هناك ذلك الإنشاء الباهر الذى نراه اليوم. وإنما كان الحرم المكى أصغر مما هو عليه اليوم بكثير، ولكن صدقنى إننى لا أشعر كيف كان ويقع فى حسبانى أنه كان دائمًا بهذه السعة والجمال، ولقد كان الحرم حول الكعبة حصباء إلا المسعى ومع ذلك فإننى لا أذكر إلا أنه كان جميلاً باهر الجمال مفروشًا بالرخام أبدًا وأيامها كنا نقيم عند مطوف طيب القلب رحيم بإخوانه أسكننا دويرة لطفية هى رحبة تحيط بها حجرات، وتلك الحجرات كانت بيته

مع أهله ، فإذا جاء موسم الحج أخلاها ليؤجرها للحجاج ولا أذكر كم كنا نؤدى إليه ، ولكننى أذكر أننى كنت دائمًا أشعر لأنه ينفق علينا أكثر مما تعطيه ، وكان يسمى الحاج خلفان الغامدى ، وكانوا ينادونه بأبى فاطمة ، ولم يكن عنده من الطعام إلا ثريد أو قول مطبوخ بشعير ، وكان رفقائى فى الدار أهل نهم. فما تكاد القصعة توضع حتى يمسحوها مسحًا فلا أكاد أصيب شيئًا وأمضى إلى ساحة الحرم حيث أجلس وأسند ظهرى إلى حائط ويأتينى الحاج خلفان وفى يده ابنته فاطمة ومعه خبز وفول ويقول : كل يا بنى ، فما أراك إلا جوعان ، وأنت فيما أرى خلفان مثلى فى شئون المعاش. وآخذ الطعام ، ومعى الصغيرة وأخرج من الحرم وأضع الطبق على عتبة بيت وآكل وبصرى مثبت فى البيت.

وقد تحدث ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتى الطنجى عن مكة والمدينة حديثًا مستفيضًا فى رحلته والحج إلى بيت الله الحرام كان محور حياة هذا الرجل الذى يعد من معالم الحضارة الإسلامية ورحلاته كلها كانت طوافًا دائمًا حول البيت مَن قريب أو بعيد ، وهو يدور ويدور ثم يعود إلى مكة والكعبة ولقد حج ست مرات وجاور أثناء رحلاته فترات إذا جمعتها كانت نحو ثلاث سنوات وله فى كلامه الكثير ملاحظة لو قرأتها وتأملت أحوال مكة اليوم لنالك العجب فقال (إن الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون مكة بوادٍ غير ذى زرع ولكنه ساق إليها الخيرات من كل صوب فكل طرفة تجلب إليها وثمرات كل شيء تجلب إليها. ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ الطيب والرطب مالا نظير له فى الدنيا. وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيبًا وحلاوة واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم. وكل ما يفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة وبطن قر لطفا من الله بسكات حرمه الأمين ومجاورى بيته العتيق).

وابن بطوطة كان فى مكة فى حجته الأولى فيها بين رجب وذى الحجة سنة ٧٣٨ هـ نوفمبر ١٣٢٨م أى أن بيننا وبين كلامه هذا نحو ستة قرون ونصف، ومع ذلك فأنت تشعر وكأن مكة فى أيامه هى مكة اليوم وكأن الرجل كان يجد ما يريد فى واحد من (السوبر ماركت) التى توجد فى مكة وكل بلاد المملكة السعودية اليوم. وهذا فى حقيقة الأمر شيء عجيب فإن الله جعل بلده الأمين فى واد غير ذى زرع ثم ساق إليه الناس الخيرات من كل مكان، حتى ليشعر الإنسان بالأمن والسعة والرخاء فيه، حتى فى أيام الخوف والشدة والمجاعة وقد أشار إلى ذلك إبراهيم رفعت باشا فى كتابه الممتع (مرآة الحرمين).. فقد كان ضابطًا فى الجيش فحمل معه (الميرة) من مصر وكأنه ذاهب إلى بلاد لا طعام فيها ولا زاد، فما كاد ينزل به حتى تعجب من وفرة الخير فى كل موضوع، وكان الناس يدعونه إلى بيوتهم، فيطعم عندهم بأكثر وأحسن مما كان يطعم فى القاهرة، حتى جعل عساكره يفرقون فى الناس ما لديهم من (البقسماط وجراية العسكر)، فنهرم وأمرهم بالمحافظة عليها خوف المجاعة. وانتهى الأمر فى خاتمة زيارته الأولى بأن أمره جنده بنفسه قبل العودة أن يفرقوا ما لديهم من الطعام فى الناس (فقد استغنينا طوال الرحلة عن ميرة الجيش والبقسماط).

وهذا الرخاء المادى الذى يتحدث عنه ابن بطوطة فى كلامه عن مكة، يعود بنا إلى الرخاء المعنوى الذى كانت مكة ومدن الحجاز تتمتع به خلال العصر الأموى. لأن مكة التى كانت قطب السياسة والمال فى العصر الجاهلى تحولت بعد الإسلام إلى ضاحية من ضواحى المدينة المنورة، لولا البيت العتيق، ثم انتقلت السياسة إلى الشام، وانتقل صراع القبائل إلى خراسان والمغرب والأندلس، وبقى الحجاز هادئًا ساكنًا يعيش فيه فى أمن ودعة من أراد العيش فى أمن ودعة خلال العصر الأموى المضطرب. وهنا، فى جو هادئ لم تعكر صفوه السياسة إلا أثناء فتنة ابن الزبير، عاش شاعر الغزل الرقيق الشريف عمر بن أبى ربيعة وهو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى وهو أشعر من أطلعت

قريش فى تاريخها، ويكاد شعره يشف على شعر الشريف الرضى، وهو ثانى شعراء قريش من ناحية الشاعرية والإلهام، ونحن فى الحجاز مع عمر بن أبى ربيعة وكأننا مع فولفجانج جيته فى فايمار، فكلاهما شاعر عظيم يأخذ شعره بالألباب والعقول. ولقد تعلم الناس على يدى أبى الخطاب عمر بن أبى ربيعة كيف يقولون شعر الغزل فى عفة وتصاون وكمال وكان الناس يقرءون ما يحكيه من معاشقة ومغامراته فى أشعاره ويعرفون أنها خيال فلا يغضبهم ذلك منه. وكانت كريمات العقائل يسعين إلى عمر ليذكرهن فى شعره وأى امرأة لا تحب أن يقال الشعر فى جمالها؟! وهذا القول لا يضير أهلها أو يمس شرفهم فهذا كله كلام شاعر عفيف يتخيل ولا يرى والحال فى هذا يشبه ما تفعله كرائم العقيلات على طول التاريخ فى الغرب من القعود للفنانين لرسم صورهن وإضفاء لمسة الخيال على ما منحهن الله من حسن وجمال ولقد رأيت من أسابيع مجموعة من الصور رسمها كبار مصورى العصر لأميرة الأساطير فى أيامنا جريس باتريشيا كيلى التى أضفى عليها الموت المباغت جمالاً ليس بعده جمال، رأيت صورها بعدسات كبار مصورى عصرنا: أيروين بلومنفيلد وهويل كونانت وجوسف كارش وفيليب هالسمان وجاك هنرى لافارج، فقلت: هذه والله أشعار أبى الخطاب صارت صورًا! وهنا فى مكة والمدينة ترك الناس السياسة لأهل السياسة وعاشوا فى ودعة وأمان، وجعلوا من مكة والمدينة خلال قرابة القرن عواصم الشعر والفن وواحة أهل الإلهام وأطلعت مخزوم عبقريها الثانى بعد خالد بن الوليد بن المغيرة وهو عم شاعر الغزل الخالد.

وبعد هذا الطواف فى عالم الخيال والتاريخ، نعود إلى الواقع وحجاجه. نعود للغم والنكد والمغلمين الذين اتخذوا الحج ممحاة يمحون به آثامهم وما يفعلون بنا قاتلهم الله! وهنا نجد أن الداء قديم وقد تحدث عنه الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م فى كتابه الممتع؛ (تلبيس إبليس) وهو كتاب لطيف لم يجد عند أهل الأدب والتاريخ ما يستحق من عناية، وصاحبه. وهو من أعاظم الفقهاء يكشف فيه عن آثام عصره وعيوب أهله ويقول إن هذا

الشر كله إنما أتى من إبليس الذى يتسلل إلى نفس الإنسان ولا يزال بـه حتى يضله عن السبيل وله فى ذلك حيل وأساليب يفصلها ابن الجوزى فـى فصـول كتابـه. وفيمـا يتعلـق بالحجـاج يقـول ابـن الجـوزى وكأنـه يتحدث عن صاحبنا الحاج حسنين عبـد الدايـم عنبـة وصاحبـه الحـاج محمدين عوضين المجذوب ممن يأكلون مال النبى ويهضمون مال بيـوت الله وقد لبس إبليس على جماعة مـن القـاصدين إلى مكـة فـهم يضيعـون الصلوات. ويطففون إذا باعوا ويظنون أن الحج يدفـع عنـهم. وقـد لبـس إبليس على قوم منهم فابتدعوا فى المناسك ما ليس منها. فرأيت جماعة يتصنعون فى إحرامهم فيكشـفون عـن كتـف واحـدة عـن كتـف واحـدة ويبقون فى الشمس أياما فتكشط جلودهم وتنتفخ رءوسهم، ويتزينون بين الناس بذلك وهؤلاء كانوا يحجون لكى يقول الناس: ما أتقاهم! أو لعلهم حسبوا أنهم بذلك يمكرون على الله. والله سبحانه خير الماكرين.

هؤلاء الناس جميعا لا يحجون. إنما يسافرون إلى الحجـاز ويعـودون. أما الذى يحج فما يلبسون وعليهم جميعا ينطبق قول مـن قـال: أنفقت مالى وحج الجمل! أى الجمل الذى حجوا عليه. وربما طافوا وسعوا به، فحج الجمل ولم يحج صاحبه وما أحسب لأن لهم ثواب حـج أو عمـرة. وحالهم كحال جار لنا ممن يحج عامًا ويغزو عامًـا. أمـا فـى عـام الحـج فهو ناسك وأمـا فـى عـام الغـزو فـهو فـاتك ينتقـل بـين لنـدن وبـاريس ولا يكاد يترك موبقة إلا أتاها. ثـم يمضـى إلى الحجـاز فـى العـام التـالى يغسل ذلك كله. فى حسابه وكأنه بين حجـة وغـزوة يفسـر فـى جـهل شديد قول الله سبحانه فى سورة التين ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسـن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين﴾*

* سورة التين الآية : ٤.

(٩)

إذن.. فهو القط بسبس*

حكاية مشهورة يعرفها كل دارس للأدب العربي وكل مولع بأدب الجاحظ أبى عثمان عمرو بن بحر وكتاباته الحافلة بالمعارف والمعلومات الفياضة بالجمال وخفة الظل مع الفهم التام للمجتمع الإسلامى وأدبه وتاريخه وفكره حتى عصر الجاحظ نفسه، فقد ولد الجاحظ سنة ١٥٩هـ وتوفى سنة ٢٥٥ للهجرة (تقابل ٧٧٥م و ٨٦٨ للميلاد) أى أنه عاش خلال العصر الذى تم فيه التحول الحاسم لدولة الإسلام من دولة عربية يقودها ويوجه سياستها العرب إلى دولة بلا شخصية ولا وظيفة ولا هدف. دولة يقال إنها عربية. وأصحاب السلطان فيها كل أصناف الناس إلا العرب، ودولة يقال إنها دولة الإسلام. كل ما يجرى فيها هدم للإسلام وتزييف لأصوله وعقيدته وطبيعته، دولة قامت لتقود البشر إلى معارج الخير والسعادة والرخاء فانحرف بها شياطين الناس إلى دركات الشر والتعاسة والجوع. ومجتمع كل من فيه قلق خائف من الخليفة إلى الفقير الذى يجرى على أهله وعياله.

فى هذا العصر الحافل بنذر الشر وطوالع الردة إلى ما هو أسوأ من الجاهلية. كان الجاحظ بظرفه وعلمه ومهارته فى الحديث عن ألوان التعاسة التى كان الناس يحيونها. كانت كتابات هذا الرجل - الذى لم تهبه الحياة لمحة من لمحات وسامة الخلق وعوضته بكل لمحة من لمحات الظرف وخفة الظل هى تسلية الناس أجمعين، كان تلفاز العصر، وكتبه كانت مسلسلات أيامنا، فهى حديث الناس وتسلية المجالس، ولكل عصر تسليته من مستواه: لأجدانا كتابات الجاحظ وهى ديوان من العلم والأدب حافل. ولعصرنا مسلسلاته، وهى أساطير

* نشرت هذه المقالة فى ٣١ أكتوبر ١٩٨٢م .

ملونة، ونحن نطرب لها، لأننا نرى فيها الشيء الأساسى الذى نفتقده فى الحياة من حولنا، فإن مسلسلات التلفاز كلها ألوان وليس فيها إلا ألوان. أما حياتنا فلا لون لها ولا طعم، ولكن لها مع الأسف رائحة لا تستريح إليها القلوب.

حكاية الجاحظ تقول: إن رجلاً اشترى رطلين من اللحم وتركهما لامرأته لتعد الطعام، ومضى إلى عمله. ثم عاد آخر اليوم يطلب الطعام فلم يجد الطعام، وقالت له امرأته: إن اللحم كله أكله السنور، وهو اسم من أسماء القط فى لغة العرب.

ونظر الرجل إلى السنور فإذا به قمىء هزيل تنطق هيئته بالمجاعة فأخذه ووضعه فى كفة الميزان فإذا هو رطلان، فقال لامرأته:

- هذا هو اللحم فأين السنور؟.

ذكرت هذه القصة الطريفة وأنا أشهد واحدًا من الاستطلاعات التلفازية حيث تقوم سيدة شابة وسيمة ذات ذكاء بعرض إحدى مواجعنا والبحث عن المسئول، فإذا عرفنا المسئول تبين لنا وجه الحل، وكانت المشكلة المعروضة هى مشكلة اللحم، ومن المسئول عن غلاء سعره، وفوضى تجارته، وقامت السيدة باستجواب كل المسئولين عن حكاية اللحم. من المزارع الذى يربى إلى التاجر الذى يشترى إلى المسئول فى الوزارات عن تزويدنا باللحم ما بين محلى ومستورد، والقائم بمراقبة العملية كلها إلى المسئول عن المذبح. إلى المسئولين عن شوادر بيع اللحم. ثم أصحابنا (المعلمين) الذين لا يتاجرون فى الجزارات بلحم البقر والجاموس والغنم. إنما بلحومنا نحن، ما مررت بدكان من دكاكينهم ورأيت الذبائح معلقة فى الخطاطيف إلا قلت: والله ما هذه الذبائح إلا نحن! حتى إنى لأرى نفسى معلقًا فى الدكان من عرقوبى ليبيعنى المعلم دبشة والمعلم حكشة رطلاً رطلاً وريشة ريشة.. وكل ما أرجوهم فيه فى هذه الحالة هو أن يبيعوا لحمى بالتسعيرة.

الذى تبينته أثناء الاستطلاع أن الكل كذابــون. وأكـذب الجميـع هـو الفلاح الذى يربى المواشى، وهو رجل كالح الوجه كئيب المنظر، وأكأب ما فيه عيناه، فإنك تقرأ فيهما الكذب المركب. فهو يكـذب مـن البدايـة إلى النهاية. يكذب فى كل كلمة يقولهــا، وكلمـا أقسـم بـالله كـان ذلـك دليلاً أقوى على كذبه، والسيدة المستطلعة حيرى من أمرها أمامه. فـهى تراه يكذب ولا تستطيع أن تصفعه على وجهه لأنه كـذاب. وهـو يتكلـم ويستشهد بأخيه أو ابنه أو العــامل معـه وكلـهم كذابـون. وأنـت نسـأل نفسك: هل تقاليد الريف التى توارثتها أجيـال هـذا الرجـل انتـهت إلى حقيقة واحدة هى الكذب؟

وتيأس المسكينة منه فتتجــه إلى المسـئولين فـى الحكومـة عـن شـئون اللحم ما بين محلى ومستورد. فتجد كلامهم عجيبًــا متناقضًـا متضاربًـا. فهم يقسمون بالشياطين وبشيخهم إبليس أنــهم ملائكـة أبـرار. وأنــهم لا ينامون لحظة من ليل أو نهار. يراقبون ثعالب التجار. وتنتقل إلى التجار فتصل إلى ذروة الكذب. فالمعلم دبشة لا يراعى إلا الله فى كل درهم مــن اللحم يبيعه. لأنه رجل مخلص يريد أن يدخـل الجنـة دون مشـاكل أو إجراءات. أما العمارة التى اشتراها فى شارع الميرغنى فـهذه ورثـها مـن تركة أبيه الحلال، فأبوه طيب الله ثراه كــان يـورد اللحـم الحـلال لسلاطين مصر من أيام قلاوون الجبار إلى طومان بـاى الشـهير بالمنشـار، أما العمارة التى يملكها على شاطئ البحر فى الإسكندرية فهى ثلاثـة بالله العظيم ومالك علىّ يا شيخ حلفان. فهى ربح حلال من بيـع اللحـم بالتسعيرة والعدل والقسطاس، وكذلك السـيارة المرسـيدس الغلبانـة التـى يركبها، والفيلات الجميلة التى تسكنها زوجاته الأربع وأولاده الخمسة عشر. وكلهم ملائكة أطهار، يأكلون حلالا ويشربون بلالاً، وهـم جميعـا أبرياء من كل سوء. لأنهم سيدخلون الجنـة معـه بنفس التأشيرة علـى نفس الباسبور..

وتلتفت المذيعة المحيرة إلينا وتقول وفى عينها شقاء الدنيا ويأس العالمين: إذن فأين الحل ياناس ومن المسئول؟

والجواب المريح الشافى هو أن المسئول عن مشكلة اللحم من بدايتها إلى نهايتها هو نفس المسئول عن رطلى اللحم اللذين اشتراهما الرجل فأكلهما السنور الهزيل الضئيل.

المسئول هو القط بسبس ولا مجرم سواه.

هو الذى يفترس مئات الألوف من أطنان اللحم التى نربيها أو نشتريها، هو المسئول عن ملايين أطنان العلف التى نوزعها على المربين من المزارعين.

وهو وحدة المسئول والبقية أبرار أطهار.

وقد تعرضت لهذه المحنة وأنا أحقق فى مأساة شبابنا. وشبابنا يا مولاى له ألف أب، ومع ذلك فهو أتعس الأيتام، وهو لكثرة المشرفين على شئونه والمعنيين بأموره أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام. ومن هم أولئك اللئام؟ تعال يا أخى نسأل ونحقق. بدأت أحقق الموضوع عند الكبار فرأيت العجب بدأت من حقيقة واضحة لا شك فيها. فيما حسبت، وهى أن شبابنا ضائع فى البيت وضائع فى الطريق وضائع فى المدرسة وضائع فى الجامعة وضائع بلا أمل بعد الجامعة.. لأن المرتب الذى سيتقاضاه بعد الغلب والتعب لا يرضى به أتعس متسول على باب سيدنا الحسين.

وتعجب المسئول الكبير الذى بدأت التحقيق عنده من كلامى وقال. تقول هذا وأنت تعلم أننا اعتمدنا الملايين بعد الملايين لرعاية الشباب، لقد أنشأنا مركزًا لرعاية الشباب فى كل محافظة وكل مدينة وقوية وحى، وفى كل مركز عشرة من الاختصاصيين يعيشون رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار فى خدمة الشباب المحتار، وماذا يعملون رحمك الله

لخدمة الشباب إننى أرى الشباب غلبانـا تعيسًا يلعب الكرة بجورب محشو بالقطن لأنه لا يجد كرة محترمة – أو نصف محترمة وهو يلعب الكرة فى الحوارى والأزقة لأنه لا يجد مكانا يلعب فيه غير الحوارى والأزقة، ومراكز الشباب التى تتحدث عنها عاجزة عن أن تدبر للشباب فى كل حى مائة متر مربع يجعلونها حديقة لـه يستروح النسيم فيها ويتلاقى كما يتلاقى غيره من الشبان. وفى حى كامل مثل حى الروضة والمنيل لم تقيموا له مكتبة واحدة يتردد عليها ليقرأ ويتعلم، ولو أنكم أنفقتم المال الذى تنفقونه على (رهبان الليل وفرسان النهار).. الذين ذكرتهم على الشباب نفسه لكان أجدى. فمركز الشباب الذى يحتله الموظفون يكون أنفع لو تحول إلى نـاد ومكتبة جميلة التأثيث حسنة الإنارة يزورها الشاب ليجتمع بأترابه تحت إشراف رجل واحد طيب صادق يحمل فى صدره قلبا عامرا بالخير. وقلب واحد عامر بالخير أبرك علينا ألف مرة من لقب الدكتوراه الذى يحمله كل عبقرى من عباقرة مراكز الشباب، لقد زرت بلاد الدنيا جميعا وليس فيها بلد واحد إلا فيه مراكز للشباب يستمتع فيها الشباب وحده، ولا يحتلها ثقلاء الظل من الموظفين حتى شباب قرغيزيا فى بلاد المسلمين الذين نقول: إنهم يرسفون فى قيود الذل والاستعمار فى تركستان الروسية. حتى هناك أنشأ الناس لهم مراكز شباب هى بيوت أنيقة ذات حدائق فيها مكتبات وقاعات لممارسة الرياضيات وملاعب للكرة بشتى أصنافها، وأنا لا يهمنى أن تكون الكتب التى يحويها مركز الشباب من تأليف لينين أو تشكوف. لأن الذى أعرفه وهو بديهى أن الشباب فى حاجة إلى شىء واحد: أن يستمتع بشبابه.. فينفق وقت فراغه فيما يحب من لعب أو رياضة أو حديث أو مطالعة. أما أن يدخل الشاب مركز الشباب فيجده غرفًا يحتلها موظفون: هذا مدير وهذا نائب مدير وهذا وكيل وذاك سكرتير. والذين ليسوا بموظفين فى المركز فهم

مخبرون. فهذا شيء لا ينفع الشباب والمساحة الوحيدة المباحة للشباب هناك هي المدخل الذي يجلس فيه فراش، وحتى الفراش لا يخدم الشباب إنه يعمل القهوة والشاي للسادة الإخصائيين، وكل هم السادة رجال المركز هو التخلص من الشباب. فالمكان الوحيد للشباب عندهم هو الورق، والعمل الوحيد الذي يشغلهم هو كتابة خطابات من المركز القروي للمركز الإقليمي، ومن الإقليمي للمركزي ذهابًا مرة وإيابًا مرة وتقارير ترفع إلى السيد الوزير أو السيد الوزير الأمين ومؤتمرات يختارون لها محاسيب الشباب باسم قيادات الشباب وساقية دايرة ولا ماء وأرض عطشانة ولا ري!

فإذا دخل شاب سأله الفراش:

– عاوز حاجة يا حضرة.

– السيد المدير.

– مش موجود.

– السيد الوكيل.

– في اجتماع.

– فالسيد السكرتير.

– سافر إلى أمريكا في بعثة تدريب.

وينصرف الشاب كاسف البال يبحث عن داهية يذهب إليها.

ويقول مسئول عن شئون الشباب وهو يطلعني على دفتر مطبوع.

– انظر إلى هذه الدراسة الميدانية التي قمنا بها عن شباب حي باب الشعرية! وانظر في الدفتر فإذا به جداول من أوله إلى آخره.

– وما هي هذه الجداول يا مولانا؟

– كل جدول من هذه خلاصة استبيان ميدانى: لقد قسمنا الشباب إلى قطاعات أفقية وأخرى رأسية، وأرسلنا خمسين باحثًا وباحثة ليستوفوا البيانات ويملئوا الخانات.

وملئوها فبركات وابتكارات. والفبركات رتبت وحللت بمعرفة حاسب إليكرونى أخرج النسب المئوية التى تصل إلى ١,٠٠٥٪ فى المائة.

– ومن الذين يقومون بهذه التجهيزات؟

– شباب من القيادات فى بعثات تدريب فى مراكز جامعية أمريكية..

وهنا تعود إلى ذاكرتى مأساة بعثة التدريب فى برنامج التنمية الإدارية التى أرسلوها إلى مركز تدريب دولى تنظمه جهات علمية فى الولايات المتحدة. والمجموعة المصرية تكونت من عشرة شبان والدول المشتركة فى الدورة عشر دول أفريقية وآسيوية.

والذى فعلته المجموعة المصرية لا يوصف إلا بأنه مأساة والخبر بتفاصيله نشر فى تقرير طويل فى جريدة الأهرام. ونحن فى هذه المقالات لا نبحث عن أسرار لأننا لسنا فى حاجة إلى بحث وتنقيب، فالمصائب ومظاهر التخلف الإدارى أصبحت تعرض على عربات الكارو فى الشوارع. والمسئولون عما يصيبنا تخلصوا من عقدة الخوف من العقاب و (عيب) يا جدع، فإننا فى مجتمع مواطنين أحرار كلهم رءوسهم مرفوعة فى السماء والحمد لله والرأس الوحيد المائل هو رأس أمنا العزيزة مصر والحكاية باختصار أن هذه المجموعة المصرية التى اختارها السادة المسئولون كانت (عرة) فى وسط المجموعات الأفريقية والآسيوية.

فقد وصل أفرادها (المحروسون) وكل واحد منهم تكلف علينا ٤ آلاف دولار. وصلوا ليكتشفوا أن الدراسة هناك باللغة الإنجليزية، وكانوا فيما نظن ينتظرون أن الدراسة فى جامعة شيكاغو ستكون باللغة العربية. وحتى ولو كانت باللغة العربية فصدقنى أنهم ما كانوا ليفهموها لأننى أنا أدرس فى جامعة القاهرة باللغة العربية ولا يفهمنى الطلاب إلا بشق النفس ولابد أن نخاطبهم بلغة المرحوم إسماعيل ياسين ليفهمونا ووصلت المجموعة فى شهر رمضان فقال أفرادها جميعا: هذا هو شهر الصوم، ولا دروس فى شهر الصوم.

وقالت السيدة الأمريكية المشرفة التى تبينت أن المجموعة المصرية مجموعة قرود لا آدميين: ننتهز هذه الفرصة وننظم لهم برنامج تقوية فى اللغة الإنجليزية، ثم تبينت أنهم فى حاجة إلى أن يتعلموا حروف الهجاء وأن معرفتهم باللغة الإنجليزية لا تخرج عن لفظين: أو كيه (باى باى) والاثنان من قاموس العلامة إسماعيل ياسين. وواحد منهم كان يحفظ أغنية إنجليزية تقول: هابى بيرثادى يا حمادة (وهو اسمه) وهى من قاموس عبد السلام النابلسى. وواحد منهم لزم غرفته فلم يحضر الدروس ولكنه فى شهر رمضان لم يترك سينما يعرض فيها فيلم من أفلام البورنو إلا شرفها بحضوره والبورنو كلمة يونانية معناها – ولا مؤاخذة – القذارة. ومجلات البورنو هى مجلات القذارة وكذلك أفلامها. والقذارة لا تنقض الصيام ولكن دروس التدريب على التنمية الإدارية تنقضه.

وبعد شهر رمضان استمروا لا يحضرون الدروس وعلقوا لهم إعلانًا مخجلاً فى لوحة الإعلانات. كل هذا ومجموعات طلاب البلاد النامية الأخرى يحضرون لأنهم آتون من بلاد نامية تريد أن تنمو. أما نحن فبلد توقف عن النمو؛ لأنه طفل متخلف، وعن قريب سيصدر تصنيف جديد للأمم: أمم متقدمة، وبلاد أقسمت بالله العظيم ثلاثًا ألا تتقدم.

ولماذا لا تحضرون الدروس يا بهوات؟.

لأننا سبق أن حضرنا برنامج تدريب مشابها لهذا فى ألمانيا.. يا نهار أبيض!.

هؤلاء المتخلفون قوميًا وعقليًا وإداريًا سبق أن أرسلتهم الغلبانة مصر على حسابها إلى برنامج تدريب إلى ألمانيا وخابوا خيبة بلا حدود، ومكافأة لهم أرسلناهم إلى دورة ثانية فى الولايات المتحدة؟.

– نعم، ولم لا؟.

– ومن الذى يتولى اختيار أفراد هذه المجموعات؟.

لا تتعب نفسك فى البحث لأن الذى قام بالترشيح والاختيار هو القط بسبس.

وهل يصنع هذه العجاب إلا العكروت بسبس؟.

وإليك مقلب آخر من مقالب الملعون بسبس.

كلنا نعرف أن السياحة فى مصر راقدة الآن فى وهدة عميقة طويلة ولا يدرى إلا الله وحده متى وكيف تخرج منها، ولماذا والله تخرج إذا كانت الآثار نفسها فى طريقها إلى الزوال؟.

وكلنا نعرف أن السبب الأكبر فى هذه المأساة أن المشرفين على السياحة عندنا لم يكتشفوا بعد أن السياحة تقوم على المعاملة الحسنة للسائح والخدمة الحقيقية بالسعر المناسب له.

فالسائح الذى يخرج من مطار القاهرة ليجد فى انتظاره مجموعة من (العصبجية) يسمون (سائقى تاكسى) ويجتهد كل واحد من هؤلاء فى نهب المسكين لمجرد إيصاله إلى الفندق هذا سائح لن يعود إلى مصر مرة أخرى رغم كل ما تفعله مصلحة السياحة.

وعندما يقف سائح مسكين عند الهرم ويجد نفسه محاطًا بعصابة حقيقية من أدنى مستويات المجتمع المصرى وهو لا يتحرك إلا وجد هذه الوجوه القبيحة حوله وهم يثقلون عليه ويضايقونه إلى الموت. حتى إنه لا يستطيع رؤية الهرم، والمسكين إذا عطش لم يجد إلا زجاجة زفت كولا يبيعه إياها رجل لا يوصف إلا بأنه متشرد. ويطالبه بجنيه ثمنًا للزجاجة وليس هناك مكتب سياحة محترم ولا مكان يستريح فيه ولا حتى دورة مياه، فإن هذا السائح يلعن اليوم الذى نزل فيه مصر وعندما يعود إلى وطنه سيحذر أى واحد من مواطنيه من الذهاب إلى مصر. وهذا لا يمنع من أن يكون لنا فى كل بلد مكتب سياحى فيه مستشار وكذا ملحق وهذه المكاتب ضرورية وإلا فأين يذهب. والله المحاسب؟.

وفى الأقصر مكتب لمصلحة السياحة أذهب إليه فى أى ساعة من ساعات النهار. فإنك لن تجد أحدًا. وإذا وجدت فشاب لا يعجبك ينظر إلى السائح الغريب وكأنه تلقيحة أو رزية لا استعلامات ولا معلومات ولا إرشاد إلى فندق ولا إنقاذ من براثن سائق تاكسى. أما إذا طلبت خريطة أو دليلاً فأنت ساذج فالمكتب ليس فيه شئون السياحة إلا اللافتة، والبهوات الذين يعملون فيه إذا حضر الواحد منهم مرة طالب بحوافز لأن المرتب الذى يأخذه هو نصيبه الذى يستحقه فى الوقف الكبير الذى يسمى وزارة السياحة.

ولكن القط بسبس الخبيث ألقى فى روع جهابذة السياحة عندنا أن العلاج الأكبر لمشاكل السياحة عندنا هو أن نشترك فى معرض السياحة العالمى الذى تقيمه منظمة السياحة العالمية أستا.

ومن حسن حظ القط بسبس أن المعرض أقيم هذا العام فى فلوريدا، قال:

وهيا يا أولاد نعملها هيصة: وفد من ١٥ عبقريا وبافيون أو جناح نكلفه مثلا ٢٠٠ أف دولار، وفرقة رضا على البيعة وتحصلون على

الميدالية الذهبية، والميدالية الذهبية تعويذة سحرية تجعل كل سائحى الدنيا يتجهون بالألوف إلى مصر التى فاز جناحها بالميدالية الذهبية.

وذهب الوفد العظيم ومعه لا أدرى كم مهندس ديكور وكم فنان. ورقصت فرقة رضا وأخذنا الميدالية الذهبية.

وعدد السياح الذين أتوا إلى مصر هذا العام لم يزد على واحد على ٢٠٠٠ من الذين ذهبوا إلى إسبانيا، وإسبانيا المسكينة لم تحصل على ميدالية ذهبية أو فضية.

وفى المجموع جوالى نصف مليون دولار راحت فى سبيل ميدالية مطلية بالذهب إذا بعناها فهى لا تغطى حساب وجبة واحدة فى فندق، وأين تعلق هذه الميدالية؟.

على صدر القط بسبس! فهو صاحب هذه الخطة العبقرية وله الفضل فى التوفيق العظيم الذى وصلنا إليه.

– يا ناس، أما كان أذكى بالنسبة للسياحة فى مصر لو منعنا العمل فى مكاتبنا؟ لو أنشأنا مكتبًا فعالاً لتيسير أمر انتقال السياح من المطار إلى فنادقهم ومن فنادقهم إلى حيث يريدون؟ وإلى السيد وزير السياحة تجربة سياحية وقعت لى.

خرجت من مطار القاهرة معى حقيبة وكانت الساعة بعد العاشرة مساء بقليل، وما رآنى سائق تاكسى حتى حسبنى خواجة فأسرع إلى وطلب ١٥ جنيها لكى يوصلنى إلى الزمالك حيث يوجد فندقى كما قلت له. ووجدت لأننى وقعت فى كمين لأن هؤلاء الناس عصابة، واحد يقول ١٥ والثانى يقول ما معناه: علشان أنت راجل عجوز ١٢ جنيها، ودخلت السيارة على أن أدفع ١٢ جنيها. فلما مضت بنا وأصبحنا فى الظلام ووحشة الطريق قال (عواطلى)، كان يجلس إلى جانب السائق:

١٥ جنيها أو تنزل يا خواجة، وقلت بارتياح: لا لزوم لذلك: ١٥جنيها هذا حسن جدًا.. وأعطيت العنوان قرب نقطة بوليس الزمالك.

وعند القسم أوقفت السيارة وقلت للشاويش الواقف هناك: خد بالك لو تحركت السيارة فاضرب بالرصاص، أنا داخل للضباط إنه ابن أخى.

ومادام حضرة الضابط ابن أخى فقد كنت واثقًا من أنه لن يدع واحدًا من هذين الصعلوكين يتحرك. ولم أكن كاذبًا فكل ضابط بوليس فى مصر هو ابن أخى أو ابنى.

وقصصت على الضابط ما حدث بعد أن عرفته بنفسى وأخذوا الاثنين إلى الداخل وتبين أن السائق لا يحمل رخصة والرجل الذى معه لا يحمل بطاقة شخصية، وعاملها حضرة الضابط كما يستحقان وتركت عند الضابط خمسة جنيهات للسائق. وكذلك حقيبتى الكبيرة. وكان الشاب عند حسن الظن به، ومضيت إلى بيتى بحقيبة يدى وفى الصباح مررت فأخذت الحقيبة وعرفت حينئذ أنه عند الاستجواب بشأن رخصة القيادة والبطاقة أن هذين الإنسانين يفعلان هذا مع السائحين بانتظام.

ألم يكن أفضل بدلاً من الميدالية التى لا قيمة لها أن ننشىء مركز النقل للسياح فى المطار مع رقابة تامة على السائقين بحيث لا يركب سائح مع سائق تاكسى إلا عن طريق هذا المكتب، فى إسبانيا لا يهم فى المطارات هذه المكاتب ولديهم شركات سيارات وأتوبيسات لنقل السائحين. والمكتب يتصل بعد ساعة من خروج السائح برقم تليفون فندقه أو الجهة التى هو ذاهب إليها ليطمئن على مصير السائح.

ولكن، ما العمل والقط بسبس يتدخل فى كل شئوننا ويفسدها؟.

وإسبانيا ليس لديها قط بسبس وليس لديها نتيجة لذلك ٥٠٠ دكتور فى السياحة والفنادق لكن لديها ٤٠ مليون سائح فى الساعة.

□□□

وأنت قد قرأت مثلى خبر المستشفى الأميرى فى بلد مصرى كبير، هناك قالت لنا الصحف إن معظم الأجهزة الكبرى معطلة بما فى ذلك جهاز تعقيم حجرة العمليات.

فى مثل هذه الحالات أنا سيىء الظن وهناك مثل عربى يقول: إن سوء الظن من أقوى الفطن.

ويقول لى ظنى السيىء إن القط بسبس الذى عطل هذه الأجهزة لابد أن يكون واحدًا أو أكثر من هيئة العاملين فى المستشفى لأنه من غير المعقول أن تتعطل لمدة عام وأكثر أجهزة الأشعة والتعقيم والأوكسوجين. وهناك أطباء يعملون ويكشفون على المرضى.

وسوء ظنى يقول لى، إن جهاز الأوكسيجين إذا كان معطلاً فى المستشفى فهو لن يكون معطلاً فى عيادات الأطباء الخاصة، وكذلك الحال بالنسبة لجهاز الأشعة وجهاز تعقيم حجرة العمليات والمرضى يتعودون أن يتجهوا رأسا إلى عيادات الأطباء. لأن القط بسبس وشركاه عطلوا العمل فى المستشفى العام.

والقط بسبس عند الجاحظ كان مسكينًا هزيلاً ومظلومًا.. ولكن القط بسبس عندنا ثقيل الدم والوزن. ومن سوء الحظ أنه لا يعمل بمفرده فى الغالب فهناك دائمًا قطاقيط بسبس يعملون تحت إشراف المعلم بسبس الرهيب وفى هذه الحالة يكون اسمه بسبس كو.

وهل معقول يا ناس أن إنسانًا كان سائق لورى سنة لا أدرى كم. ثم نكتشف فجأة أن له كذا شركة وكذا عمارة وفيللا وعزبة. إلا إذا افترضنا أن يكون هناك شىء يمكن أن نسميه بسبس كومبانى ليمتد.. إنهم عصابة ضخمة كانت تعمل بهدوء ولها معاونون فى كل مكان؟ وقد كشفنا واحدا.. ترى كم قط بسبس آخر وشركاه؟ يعملون فى جد ونشاط الآن ويتستنزفون دمى ودمك..

وويل لنا جميعا من القط بسبس.

إنه هو الذى يعطى التراخيص وهو الذى يحرس أبواب الجمارك وهو الذى يسجل الشركات المشبوهة والعقارات المختلسة وهو الذى يفتح الأرصدة فى البنوك تحت ألف اسم مستعار ومكذوب. ومادمنا نائمين على آذاننا فهذه ولا شك مملكة القط بسبس وشركاه.

هذا الملعون الخبيث إنه وراء مصائبى ومصائبك وويل لى ولك. ولمصر كلها من القط بسبس والدكتور بسبس والمعلم بسبس ونسوانه وأولاده وأولاد أولاده وأقاربه أجمعين.

(١٠)

غريب فى وطنى*

خلال السنوات الأخيرة يطاردنى فى أحيان كثيرة شعور غريب بأننى لست فى مصر. أو أننى أعيش بعيدًا عن مصر التى نشأت فيها وأحببتها وتمنيت وأنا صبى ثم شاب أن أكون أحد العاملين المخلصين فى خدمتها أننى غريب فى وطنى لا أدرى لماذا أشعر أن الناس ليسوا هم الناس ولا المناظر التى ألفتها هى نفس المناظر.. حقًا إن الدنيا كان لابد أن تتغير ولكن الذى أعرفه أن كل بلد ينبغى أن تكون له خصائص أساسية لا يمكن أن تتغير فى صميمها حتى يظل البلد هو نفس البلد. وتظل له نفس الخصائص المميزة لشخصيته فقد درست وعشت طويلاً فى سويسرا وكان ذلك من نحو أربعين سنة. وسويسرا بلد يساير الزمن ولا يتوقف التطور فيه قط. ولكننى أعود بين الحين والحين إلى بازل وزيوريخ وبرن ولوتسرن فأحس أن هذه البلاد لازالت هى هى. لم تتغير شخصيتها ولم يتبدل الإطار العام للحياة فيها. وزيوريخ التى عرفتها أكثر من غيرها لازال نفس البلد كما هو رغم التطور الشامل فى كل شيء..

الباتهوف شترايس لازال هو نفسه كما عرفته وأحببته. وميدان بيركلى المطل على البحيرة لازال يزدان بأزهاره المختلفة الألوان. وميدان براده - بلاتس لازال كما هو فهذا هو البنك الذى كنت أصرف منه شيك مرتب البعثة. لقد تغير نظام العمل فيه تغيرًا تامًا وأصبح كله إليكرونيا ولكنه لازال كما عرفته ومحل الشيكولاته المتع لازال هناك، والبنات البائعات ورثن الابتسامة والظرف والرغبة فى الخدمة عن سابقاتهن. فمحطة الترام لازالت أنيقة والترام نفسه لازال كما عرفته حتى ألوانه الزرقاء الزاهية لازالت باقية كما هى.. ولازال لى مكانى

* نشرت هذه المقالة فى ٢١ نوفمبر ١٩٨٢م .

فيه، وهو إذا وقف انتظر حتى نركب كلنا فى هدوء ثم يمضى وأرقام الخطوط هى نفس الأرقام: رقم ٨ يذهب إلى ميدان المحطة ثم محطة سنترال ثم شارع شتابنبوك. ورقم ٦ يذهب إلى الجامعة. ورقم ٣ يذهب إلى شمال البلد: إلى رومر – هوف حيث كنت أسكن..

هنا فى القاهرة لم أعد أدرى أين أنا: الشوارع لم تعد هى الشوارع ولا الناس هم الناس. حتى الشارع: هنا كانت فيلا أنيقة هى تحفة فى الهندسة تحيط بها قطعة من الجنة هذه زالت وحلت محلها كتلة جامدة من الأسمنت والحديد والألومنيوم والزجاج. والذين يسكنون فيها خلق عجيب وجوههم عابسة كالحة، وكل منهم عنده سيارة أنيقة ولكل ابن من أبنائه سيارة وبناته القبيحات يلبس البلو – جينز وقمصانا رجالية يرخونها خارج البنطلونات ويحسبن أنفسهن أمريكيات: هالو ميمى! هالو توتو! باى باى! تقفز القردة فى الشيفروليه – كامارو وتنطلق بها كالصاروخ..

والسيد أبوها لم يتعود بعد على لبس البذلة. سمعنا أنه تاجر خردة وأنه كان إلى سنتين أو ثلاثة يرفل فى الجلباب واللاسة ثم دخل سوق الشياطين التى يسمونها الاستيراد والتصدير وانصب المال فى جيبه انصبابا وانتقل من بولاق إلى هنا وابنه محمد أصبح حمادة بيه وابنه زكى أصبح زيكو بيه وابنته سنية أصبحت سونيا والأخرى بثينة أصبحت بوسى وسعادة البيه أنفق ٣٠,٠٠٠ جنيه فى عمل الداكور.. لشقته. وقبل أن يفتح له السائق باب السيارة الأنيقة يبصق سيادته على الأرض ويلقى منديلاً ورقيًا قذرًا وينجعص فى السيارة وتمضى به إلى جهنم..

أين مصر التى عرفتها يا ناس؟ هل أنا فى مصر أو فى بلد آخر؟ هل أنا لم أعد أنا. أم مصر هى التى لم تعد مصر؟ من منا الغريب عن الآخر؟ ولكن صديقًا كويتيًا ممن تعلموا فى مصر فى الخمسينات ثم

شغلوا فى بلادهم أرفع المناصب يقول لى: تصدق يا فلان: عندما أتينا فى البعثة إلى مصر أواخر الأربعينات لم نصدق أننا فى مصر. كانت الشوارع جميلة أنيقة فيها أشجار وفيلات. كان الترام جميلاً وكان الكومسارى مهذبًا وكانت الجامعة حرمًا للعلم فعلاً لقد درست فى قسم الجغرافيا فى جامعة القاهرة.. وكان الأساتذة علماء أجلاء تحسد نفسك لأنك تدرس عليهم: عباس عمار ومحمد عوض محمد ومصطفى عامر وعبد المنعم الشرقاوى وسليمان حزين وكان العمل فى مكتبة قسم الجغرافية متعة وكانت دار إقامتنا فى الزمالك وكنا نسير بعد الظهر فى شارع ٢٦ يوليو ونشعر أننا فعلاً فى أجمل شوارع الدنيا وكنا ندخل السينما فنستمتع بكل شيء: بالقاعة وبكراسى القطيفة وبالفيلم الجميل وبعد السينما كنا نأكل المكرونة بالفرن ونحن وقوف كانت «المكرونة بالفرن» فى بوفيهات سليمان باشا وشارع فؤاد أجمل طعام فى الدنيا ثم نأخذ الترام عائدين إلى دارنا ونحن نشكر الله من أعماق قلوبنا. لأنه يسر لنا فرصة الدراسة فى القاهرة وفى جامعتها العظيمة، أين هذا كله يا فلان؟ ماذا فعلتم بمصرنا وقاهرتنا؟ كيف ساغ لكم أن تبددوا من أذهان العرب هذا الحلم الجميل؟..

إذن فلست أنا وحدى الذى يشعر أنه غريب فى مصر. مصر نفسها لم تعد مصر، ولهذا فأنا فيها غريب.. عندما أريد أن أحس أننى فى مصر فإننى أسافر بعيدًا إلى لندن مثلاً وأجلس فى حدائق الريجنت بارك ويسرح بصرى فى الخضرة، الخضرة تذكرنى بخضرة مصر التى تتلاشى يومًا بعد يوم كان أستاذى عبد الحميد العبادى يسكن حى الروضة، وشارع المنيل كان معظمه حقولاً كنت أسير بينها حتى أصل إلى بيته، وكان رحمه الله يسكن فيلا وسط الخضرة وكنا نخرج معا نتمشى ونحن نتحدث فى التاريخ وذكريات تلك الأيام ونزهاتها وأحاديثها مع أستاذ

وسيم جليل هى التى أحلم بـها عندمـا أغمـض عينـى وأنـا جـالس فـى رياض الريجنت بارك. إنها مصر التى أبحث عنها الآن فلا أجدها..

وعندما أعود إلى مصر وأنا فى المطار أشعر بالغربة هذه ليست مصـر، وصعاليك سائقى التاكسى على باب المطار ليسوا مصريين وعندمـا مضـى بى السيارة نحو بيتى فى شوارع خانقة مخنوقـة فـإننى أتـوه فـى عـالم غريب يذكرنـى بـأنفرنو دانتـى فـأصوات أبـواق السيارات تقلـق الجـن والمطبات تخلع عظـام الجسـد، وعسـكرى المـرور نصـف نـائم والإشـارة الحمراء لا تحترم وعادم السيارات يملأ الجـو، وصعلـوك فـى سـيارة إلى جانبى يبصق من النافذة وناسًا أراهم من زجاج السيارة بلا وجوه وبشـرًا دون بشرية ونساء بلا أنوثة رءوسهن محشـورة فـى شـىء يشـبه نصـف جورب قديم وشباب متسكع يقطع الشارع عـدوا بـين السـيارات كأنـهم قرود، ورجال فى أسمال يبيعون الهواء والسيجارة لا تفـارق مناخـيرهم. أما كيف يعيشون ومن أين؟ فهذا سر عظيم..

وهذه القاهرة التى تختنق بألوف علب الصفيح التى يسمونها سيارات وألوف الألوف من ناس كلهم غاضبون ساخطون هذه القاهرة تغوص فـى الأرض يومًا بعد يوم وستصبح فى المسـتقبل مثـلاً بومبيـة مدينـة تحـت الآكام بعد أن طمرها البركـان. إننـا نبنـى للنـاس ممـرات علويـة فيـأبوا السير عليها ويفضلون أن يتسـللوا قفـزا بـين السـيارات كأنـهم قـردة أو أغناز لأن أحدًا لم يعلمهم كيف يتصرفون كمواطنين محترمين فى مدينـة جليلة لها احترامها، وفى كل ناحية وزير بلا وزارة ومحـافظ بلا مدينـة وبلد بلا عمدة وبوابة بـلا بـواب ومكـاتب عظيمـة وسـكرتاريات ولجـان وسيارات للمحـافظين ونواد للمحافظين والسادة المديريـن للشـئون العامـة وكل هؤلاء موظفون كبار وكلهم يقولـون إنـهم يبنـون قـاهرة سـنة ٢٠٠٠ وهم يقولونها دون خوف ففى سنة ٢٠٠٠ لن نكون نحـن هنـاك ولا هـم يكونون، إنما ستكون هناك أنفاق بلا مترو لأن المترو سيكون قـد تلاشـى

وتعطلت قطاراته وعرباته جميعا كما تلاشى الترام، وسيصدر المسئولون عن قاهرة سنة ٢٠٠٠ قرارا بإعدام المترو كما أصدر المسئولون اليوم قرارًا بإعدام الترولى باص بعد الطبل والزمر الطويل، ولكن الأنفاق ستبقى مطمورة تحت الأرض مثل الأنفاق المسيحية أو الكاتا كومز تحت حي كوم الشقافة في الإسكندرية ولا بأس بذلك أيضًا ففى سنة ٢٠٠٠ ستكون الفيران قد توطنت القاهرة أو ما كان بالأمس القاهرة، والأنفاق للفيران. أما الناس فسيكونون قد انتقلوا إلى الجبانات ورقدوا هنا في انتظارًا أن يكتشف مقابرهم المستر هوارد كارتر واللورد كارنرفون..

وقد يتوهم بعض من يقرءون هذا الكلام أننى أكتب وفى ذهنى نقد لرجال الحكومة، وهذا أبعد شيء عن خاطرى لأننى أعرف أن أى حكومة فى الدنيا لا تستطيع مهما صلحت أن تفعل أكثر مما يستطيعه الشعب، بالضبط كما أن أذكى الآباء وأقدرهم لا يستطيع أن يفعل شيئًا لابنه البليد أو الغبى. وقد انتهى العصر الذى كانت الحكومة فيه تعتبر نفسها راعيًا والشعب رعية وأصبحنا كلنا مواطنين متساوين، وأنت والوزير والمدير والخفير واحد، وحتى كبار المسئولين ليسوا سحرة أو صناع أعاجيب فلماذا نطالبهم بالأعاجيب؟ ومهما تبلغ قدرة المسئول الكبير على العمل فهو لا يستطيع أن يعمل أكثر مما يتحمله جسده، وقد عرفت وزيرًا كان يأخذ معه كل يوم إلى البيت حقيبتين مليئتين بالأوراق ويزعم لنفسه أنه سيدرسها فى البيت. وفى البيت يتعشى ويجلس إلى المكتب ويقرأ بضع أوراق ثم يتثاءب ويغلبه النوم فينهض وينام، ونفس الحقيبتين تعودان إلى الوزارة يحملها الفراشون أنفسهم، والناس يسألون والسادة الوكلاء يقولون إن الأوراق فى مكتب السيد الوزير لم يبت فيها بعد وظل الأمر على ذلك حتى تغيرت الوزارة، والحقيبتان أصبحتا اليوم أربعا. وأربعة فراشين يحملون كل يوم أربع حقائب ويسيرون خلف السيد الوزير ويعودون فى اليوم التالى بحقائبهم

خلف السيد الوزير. وفى الوزارة القادمة سيصبح عدد الحقائب ستا وعدد الفراشين ستا وستظل الحقائب تروح وتجئ إلى قيام الساعة، وستقوم القيامة إن شاء الله عندما يعود وزير إلى وزارته فى الصباح وقد قرأ كل الأوراق وأشار بقلمه بما يصنع فى كل منها.. هنا ستكون نهاية الزمان فعلاً..

أقول ذلك لأننى أرى أننا فى مسائل الإدارة والتاريخ لازلنا أميين ونحن لم نعرف بعد أن زمن الحكومة التى تصنع كل شيء قد انتهى، ولويس الرابع عشر حكم على أسرة البوربون بالموت يوم قال: الدولة هى أنا، لأنه عندما قال ذلك حمل نفسه أوزار الدنيا والذين حكموا على حفيده لويس السادس عشر بالموت فعلوا ذلك عقابًا له على أوزار لم ترتكبها، وجده «الملك الشمس» هو الذى حكم عليه بالموت، وأى وزير يسترسل مع الكلام ويكثر من التصريحات ويقول سأفعل كذا وكذا يحكم على نفسه بالموت السياسى، لأن الوزير أى وزير - لا يستطيع أن يفعل أكثر مما يستطيعه الشعب نفسه، وهو لا يملك أن ينقذ إلا ما يعرف مساعدوه كيف ينقذونه، وحتى إذا افترضنا أن السيد الوزير عبقرى فنحن لا نضمن بداهة أن يكون كل مساعديه عباقرة، وإذن فستظل عبقريته جوهرة مصونة فى دماغه، وفى زماننا هذا لم يعد الوزير حاكمًا وإنما هو منسق ومنظم ومفكر ومخطط، وهو قطعا ليس راعيًا ولا نحن رعية..

والذى أريد أن أقوله هو أننا لسنا على حق فى شكوانا من الدولة فنحن المسئولون من البداية إلى النهاية لأن الشعب إذا أراد استطاع أن يفعل ما يريد وما يراه من صالحه وما هو من صالح الشعب فهو - بداهة - من صالح الحاكم، والحاكم يريد أن يرى الناس يصنعون الصلح دون أن يستحثهم على ذلك أحد. هنا يستريح الحاكم وتخف مسئولياته

وهناك حكمة تقول: إن أنصف الناس استراحِ القاضى أو أنصف القاضى استراح الناس..

□□□

أقول ذلك لأننا – كشعب – لازلنا نتصرف على أننا رعية نحتاج إلى راع، ولا يمكن أن يهين شعب نفسه بأكثر من اعتبار نفسه رعية أى غنمًا لابد أن ترعى بعصا أو تحرس بكلاب، وسلطة الحاكم يحددها الشعب نفسه..

فإذا كان الشعب نشيطًا عاملاً ذكيًا واعيًا أمينًا مع نفسه قائمًا بمسئولياته فإن الدولة لا تستطيع أن تفرض نفسها عليه أو تمارس عليه سلطة لا يريدها، ومثل الدولة مع الشعب فى هذا مثل الرئيس مع المرءوس فإذا كان المرءوس قائمًا بواجبه مؤديًا ما عليه لم يعد له فى الحقيقة رئيس، وأنا شخصيًا فى كل عمل توليته كنت ألغى رئيسى بأن أقوم بواجبى على الوجه الأكمل فلا يبقى له عندى شىء وكل رئيس عمل لا يمارس سلطانه إلا على المهمل والمقصر والعاجز أما الكفء المواظب على العمل القائم بمسئولياته فماذا يعمل معه الرئيس؟..

فإذا كانت مصر قد تغيرت وإذا كانت الأحوال فى مرافقنا لا تسير على النحو الذى نريد فنحن المسئولون، وقبل أن نطالب الحكومة بشىء علينا أن نقوم بواجبنا ونتحمل مسئولياتنا، وكيف والله نشكو من الحكومة إذا كانت شوارعنا غير نظيفة، وهل من الممكن مثلاً أن تقيم الدولة لكل بيت عامل نظافة يرعاه؟! إن القذارة عندنا تبدأ من داخل البيوت، وماذا تفعل الحكومة لنا داخل البيوت؟ إن بعض سيداتنا يرمين زبالة البيت من النافذة إلى الطريق، فقل لى والله ماذا تفعل أى حكومة فى الدنيا مع سيدة من هذا الطراز، وفى معظم بيوتنا نجد مدخل البيت لا يسر وسلالم البيت لا ينظفها أحد، وهناك قانون يقول

بأن سكان كل بيت أو ملاكه لابد أن ينشئوا لجنة سكان أو لجنة ملاك ترعى بيتهم، فكم بيتًا أنشأ سكانه لجنة فعالة كهذه. كلنا نلقى القاذورات على السلم ونشكو من قذارة السلم! وكلنا نصعد بسياراتنا، على الرصيف ثم نقول أين الرصيف؟ من الذى يحطم الرصيف؟..

إن الدولة تبنى المساكن الشعبية وتسلمها للناس ثم تمر بعد سنة بالبيت فتراه يكاد يتحول إلى حطام، فكيف يكون هذا تصرفنا ثم نشكو من الحكومة؟ إن أسوأ المساكن فى مصر هى المساكن الشعبية، والمساكن الشعبية تتحمل الدولة الكثير فى إنشائها وتسلمها للناس ليعيشوا فيها ويحترموها، فانظر والله ماذا يفعلون بها إن بين كل بيتين مساحة المفروض أنها تتحول إلى حديقة، ولكن الناس يجعلونها مزبلة ثم يشكون! يا للعجب!!..

هذه المساكن الشعبية فى أوروبا قطع من الجنة، ولقد زرت فى مدينة تورينو فى إيطاليا المساكن التى أنشأتها شركة فيات للعمال، إنها تسلمهم إياها بإيجار لا يكاد يذكر، وعليهم أن يقوموا برعايتها وهم بتعاونهم فى ذلك ومجهوداتهم المشتركة يجعلونها قطعًا من الجنة، بمجرد أن يتسلموها ينشئون لجنة لرعاية البيوت، وأهل كل بيت لهم لجنة مسئولة عن كل شيء فى البيت إلى بابه، ثم تقوم لجنة حى المساكن الشعبية برعاية الحى كله: ينشئون الحدائق وأماكن للعب الأطفال، وينشئون لعبات لأطفالهن ويتناوبون على حراستها ورعايتها، وقد رأيت مجموعة من هذه البيوت فى شكل مربع كبير فى وسطه مساحة واسعة يعلوها حديقة ومتنزها وملعبًا للأطفال، والأطفال يلعبون وأعين أمهاتهم عليهم، والمسنون والمتعبون يجلسون على مقاعد خشبية يستريحون من ناحية ويراعون الأطفال من ناحية، جلست فى هذه الحديقة أتأمل الأطفال ووجدت نفسى أشترك فى رعايتهم وقلت لنفسى

حقًا إن النـاس لا يسـتطيعون أن يفعلـوا لـك أكـثر ممـا تسـتطيع أنــت لنفسك.

وفى مدينة العمال فى تورينو مراكز تموين يديرهـا السكان أنفسـهم، هم الذين يعينون الموظفين ويشرفون عليهم والشـركات تقـدم لكـل مركـز حاجياته من لحم أو خضر أو سمك أو خبز، وإلى هنـا تنتـهى مسئولية الشركة والباقى على الناس، والناس يراقبـون الجمعيـة وموظفيـها وكـل واحد منهم يأخذ نصيبه القانونى من كـل شـىء دون زيـادة، ولا يجـرؤ موظف الجمعية هناك على أن يتصرف فى رغيف خبز أو قطعة صـابون إلا بحسب النظام الموضوع، ولا تجد فيها شـجارًا ولا نزاعًـا لأن النـاس يحترمون أنفسـهم ولأنـهم يحـترمون أنفسـهم فـإن النـاس يحترمونـهم، والعاملون والعاملات فى الجمعية يعملون بدقة وأمانـة لأن أعـين النـاس مفتوحة، كلهم يعلمون بروح الأسرة، كلهم يحملون المسئولية.

فـإذا كنـت تجـد فوضـى فـى جمعياتنـا التموينيـة فـاعلم أننـا نحـن المسئولون، كل منا يدخل لينـهب لا ليـأخذ نصيبـه فحسـب، وموظـف الجمعية لا يلام إذا أساء معاملة الناس أو إذا تصرف فـى مـواد التمويـن على هواه، لأنه يعلم أنه يتعامل مـع نـاس لا يحـترمون أنفسـهم ولمـاذا يحترمهم إذا كانوا يفعلون بأنفسهم ما نعرفه جميعا..

ولو كنا نحن نراعـى الله والضمـير واحـترام النفس فـى تعاملنـا مـع الجمعية لما اندست فى طوابيرها جماعات الدخـلاء والوسـطاء والنسـوان الكالحات الوجه اللاتى يشترين أصناف التموين ليبعنها بعـد ذلـك فـى السوق السوداء، والسوق السـوداء مـن أولهـا لآخرهـا مـن صنـع الشـعب لا من صنع الحكومة، نحن الذين نهرب، ونحن الذين نرتشـى، ونحـن الذين نغمض أعيننا على القذى ثم نشكو الرمد..

وإذا كنا نحترم أنفسنا فـهـا كنـا نرضـى أن نقـف فـى هـذه الطوابـير الذليلة أمام البقالات فى انتظـار السـجائر؟ إننـى واثـق مـن أن كميـات السجائر التى تصنـع فـى مصـر كافيـة لكـل المدخـنين ولكننـا نتكاسـل ونتساهل ونشترى بعض ما نحتاجه مـن السـوق السـوداء ومادمنـا نفعـل ذلـك فإننـا نشـجع السـوق السـوداء بـل نحـن نوجدهـا ومادمنـا نحـــن المسئولين عنها فلماذا نشكو؟ ولماذا ندعى أننا مظلومون ونحن ظالمون؟..

□□□

وما رأيت في حياتى موظفًا عامًا يسيء معاملـة مواطـن إلا إذا أحـس أن المواطن مستعد للتـهـاون فـى حقـه وفـى كرامتـه أيضًا. نحـن ننتظـر الموظف الذى يتأخر فى الحضور إلى مكتبه فإذا حضر داعبناه وتملقنـاه، وما من مرة وقفت أمام موظف متهاون وأظهرت الحزم والجدية واحـترام النفس إلا انصاع أمامى واحترم نفسه، وأمام شـباك التذاكـر فـى محطـة سيدى جابر رأيت عامل التذاكر قدم علينا إنسانًا فى غير دوره فأنتهرته وأنتهرت المواطن، وحاول مرة أخرى أن يعطى تذكرة لفراش دخل عليه من باب الحجرة فعدت أحتـج وهنـا أيدنـى النـاس وانتظـم العمـل فـى طابورنا، ولا يمكن أن أتساهل مع موظف لى عنده مصلحة لأننى أعـرف أنه جبان لا يتحمل تبعة تصرفه الخاطئ.

فإذا كنا نسمع عــن مختلسـين ومـهملين ومقصريـن ومرتشـين فنحـن المسئولون عـن أعمـالهم جميعـا، حقًـا إن بعـض الرؤسـاء يـتراخون مـع موظفيهم ولكنهم يفعلون ذلك لأن التراخى يبدأ مـن عندنـا نحـن، وكـل الذين نتحدث عنهم ونقول إنهم جمعوا الملايين من أموال الشعب فعلـوا ذلك لأنهم يستهزئون بنا ولا يحترموننا قـط، وهـل كـان مـن الممكـن أن يفعل بعـض الأشـخاص الذيـن تحقـق معـهم السـلطات اليـوم مـا فعلـوا إلا ولهم معاونون منا ومشاركون لهم فى الجرائم من بيننا: مشاركون بل شـركاء يعملـون فـى الجمـارك وإدارات الـتراخيص ومكـاتب الرقابـة،

والكثيرون منا كانوا يعلمون الكثير ويسكتون، ويكون أقصى ما يفعلونه هو الشكوى والنجوى بعضهم إلى بعض، وحالهم فى ذلك حال الرجل يعلم بخيانة زوجته فلا يكون منه إلا أن يشكو امرأته إلى الناس، ومعذرة إذا أنا لجأت إلى هذا المثل الجارح للحشمة، ولكنى لجأت إليه لأننى أعرف أن عصب النخوة للعرض عندنا حى وشديد الحساسية، ومسألة العرض أو شرف العائلة عندنا حية جدًا. ولهذا فأنا أقول لأخى المواطن إن الوطن كله هو عرضنا جميعا وشرفنا كمواطنين فإن الذى ينتهك حرمة القانون تحت بصرنا ونحن سكوت هو فى الواقع يعتدى على أعراضنا جميعا، وإذا كان الواحد منا لا يحتمل كلمة فى حق امرأته أو بنته أو أخته فكيف يحتمل العدوان على عرضه الأكبر وهو الوطن وهو ساكت؟.

إننا نشكو من العدوان على أرض الدولة وأملاكها مع أنه كله يقع تحت بصرنا ولا نتحرك، وليس هناك لص واحد إلا وهناك ألف إنسان يعرفون أنه لص ويسكتون، وهم فى هذه الحالة لصوص مثله، وقد حدث مرة أن أطللت من نافذة المطبخ فى بيتى فى حى المنيل من نحو ثلاثين سنة فرأيت عربة تفرغ رملا وأخرى تفرغ طوبًا فى أرض فراغ وراءنا، وكنت أعرف أن هذه أرض أوقاف فهى ملك المسجد المجاور لنا ومضيت بسرعة لأجد رجلاً أصلع أقرع يقف ويأمر العربات بالتفريغ فسألته عما يفعل فقال:

– هل هذه الأرض أرضك؟.

– نعم هى أرضى، إنها أرض الأوقاف وهى تبع لهذا المسجد.

– وهل أنت مندوب عن وزارة الأوقاف؟.

– لا. ولكنى مواطن أعرف أن هذه الأرض أرض الحكومة، ولا يجوز لك البناء فيها.

وتشاددنا وتلاحينا وتشددت في موقفي وتعالت أصواتنا وتجمع الناس فلما رأوني متعافيًا قويًا انضم بعضهم إلى وأصبحنا بعد قليل جماعة، وطالبنا الرجل بإثبات ما زعم من ملكيته للأرض، وكان بعض الباعة قد استعمل أطراف الأرض المطلة على الشارع ليبيعوا فيها أشياءهم فاستعديتهم عليه، وبعد قليل وجد الرجل نفسه في موضع سيئ فانصرف وهو يتهدد ويتوعد زاعمًا أنه يشكو إلى البوليس فلحقت به والناس معي وأصررت على اقتياده إلى مركز الشرطة وتحرج مركز الرجل وأحس أنه لص وأصبحت غاية همه أن يفلت من يدنا وتركناه يمضي وطلبت إلى الناس أن يبددوا الطوب فبددوه في لحظة، وهددنا العمال الذين أتى بهم الرجل فانصرفوا ثم أخذت بعض الناس وذهبت إلى نقطة البوليس وحررنا محضرًا ضد الرجل وتردد ضابط الشرطة لأنه لم يكن يعرف ماذا سيفعل لهذا المحضر ولكني طمأنته وبعد تحرير المحضر وتوقيعه من بعض الحاضرين ذهبت به في اليوم التالي إلى وزارة الأوقاف وتحدثت مع مدير إدارة الأملاك ثم إلى وكيل الوزارة وكنا نعرف هذا الأصلع الأقرع وعنوانه فصدر بعد أيام تنبيه من الأوقاف إلى الداخلية ثم إلى نقطة البوليس، وأنقذنا أرض الدولة بذلك، ويلقاني الرجل بعد ذلك ويقول: لقد أضعت رزقك بنفسك كنت سأبني بيتًا من عشرة طوابق، ولو أصغيت لي لأهديتك طابقًا كاملاً، ولكن ليس لك في الطيب نصيب! وأقول له نصيب في عينك! وهي في السرقة شيء طيب يا أصلع يا أقرع يا حرامي!.

أتريدون أن نسترد معا مصر الجميلة؟ هل تريدون أن تستعيد جمالها وبهاءها وأن يتلاشى شعورنا بالغربة فيها؟.

إذن فاسمعوا هذا المثل من الواقع.

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى كانت مصر حماية أي مستعمرة بريطانية، وكانت بريطانيا تنوي أن يستمر احتلالها إلى الأبد، وكان

يؤيدها فى ذلك سلطان البلاد، يؤيد الاحتلال، وحكومتها برئاسة محمد سعيد باشا كانت مستعدة للتسليم بالاحتلال، وهى والوزارات التى جاءت بعدها وقفت موقفًا معاديًا لاستقلال مصر.

فنحن الذين استعدنا مصر من أيدى الاحتلال ومن تحريرها نحن أبناء مصر.

نحن أيدنا سعدًا وأصحابه ووقفنا معهم وحاربنا الإنجليز والسلطان فؤاد وحكومات الاحتلال، نحن ضحينا وحاربنا واستعدنا مصر ونحن اليوم نعانى من احتلال ربما كان أبشع من الاحتلال الإنجليزى.

نحن نعانى من احتلال بعض المصريين لبلادنا: اللصوص وتجار السوق السوداء والمهربون والمرتشون والمهملون والفوضويون والذين لا يحترمون هذا الشعب لأنهم لا يحبون مصر هؤلاء هم المستعمرون الجدد، هؤلاء هم الذين يجعلوننا نشعر أننا غرباء فى بلادنا.

ونحن بتهاوننا وسكوتنا وتراخينا وعدم مبالاتنا نقوم بدور وزارات الاحتلال: نشجع كل هؤلاء على احتلال بلادنا وإفساد طبعها وشكلها وتشويه سمعتها وتضييع أموالها والهبوط بمكانتها.

نحن - كل منا فى موقعه - متآمرون على مصر متهاونون فى حقوقها مضيعون لمصالحها والساكت عن الحق شيطان أخرس.

نحن نحكم على أنفسنا بالغربة فى بلادنا.

تريدون أن نعود إليها؟ تريدون أن تعود مصر الجميلة جميلة؟ إذن فلنبدأ كل منا فى موقعه..

ولتكن نقطة البداية عناية أهل كل بيت منا ببيتهم وأهل كل شارع بشارعهم وأهل كل حى بحيهم، إن الطريق طويل ولكن أقصر الطرق تبدو طويلة فى نظر النملة، وأطول الطرق تبدو قصيرة فى نظر الفهد النشيط القوى وحذار أن نرضى بأن نكون نملا وحشرات هنا تطؤنا الأقدام، ونكون نحن المسئولين.

لقد انتصرنا وأثبتنا أننا شعب عزيز يملى إرادته على التاريخ أيام كنا فى حكم الظالمين فما أجدرنا اليوم بالمحافظة على بلادنا جميلة زاهرة والدولة اليوم دولتنا ورجالها منا وبنا ولنا.

إنما نحن الذين نحكم على أنفسنا بالغربة فى بلادنا لأننا ننسى أن مصر كلها أسرة وأهلها كلهم أبناء عم أو أبناء خال، وهل لنا جميعا أم إلا مصر أو أب غير النيل؟.

(١١)
نار اسمها الفلوس*

الفلوس حلوة بديهية لا تحتاج إلى بيـان، فالنـاس جميعـا يفهمونـها ويرددونها حتى الصبيان والغلمان..

وأكثر من ثلث الأدب العربى كله نثرًا ونظمًا يدور حول الفلوس، إنه أدب تسول، ومحوره المال وفضل المال وأساليب استخراج الدنانير من جيوب الحكام والناس العظام، وأديب عربى عظيم وفيلسوف أيضًا يسمى أبا حيان التوحيدى ألف كتابًا ضخمًا يعتبر من عيون الحكمة عندنا يسمى «الامتاع والمؤانسة» وهذا الكتاب كله شهادة فقر أو عرضحال تسول، وأبو الطيب المتنبى انفق نصف شعره فى التسول، ولكنه كان متسولاً منفوخا يتحدث فى شعره عن المجد والعلا والسؤدد، ويده ممدودة تنتظر الدنانير، أما مهيار الديلمى - وهو من عبقريات الشعر العربى - فكان يكتب القصيدة العصماء يشحذ بها عشرة دراهم أو فروة خروف أو طبقًا من العاشوراء.. وعلى بن أبى طالب، قال لو كان الفقر رجلاً لقتلته، وهو لم يقتله لأنهم لم يمهلوه، والذين قتلوه هم الذين حكموا على أمة العرب بأن تكون أمة فقراء ومتسولين تأكل من يد السلطان، والسلطان كان اسمه معاوية بن أبى سفيان، وقاعدة الحكم التى وضعها معاوية ومن بعده تقول: إن الخليفة لابد أن يكون الغنى الوحيد وتكون بقية الأمة متسولين، وبناء على ذلك أصبح نهب أموال الناس حقًا من الحقوق المقررة للحكام، ثم جاء صعلوك يسمى أبا الحسن على الماوردى فجعل السرقات السلطانية حلالاً، وقال كلامًا كثيرًا فى هذا المعنى فى كتاب سماه «الأحكام السلطانية»..

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٦ يناير ١٩٨٣ م .

وحكامنا إلى أيام عبد الحميد والخديو إسماعيل كانوا لصوصًا، بل قطاع طرق، وأجهزة الحكم كانت تمارس سلطاتها على أساس أنها إدارات جريمة منظمة..

والمافيا لم يخترعها الصقليون، بل هى اختراع أموى عباسى، ووزراء بنى العباس هم أصحاب الفضل فى وضع قواعد ممارستها وتحويلها إلى نظم إدارية، وكتاب «الوزراء» لأبى هلال الصابى تستطيع أن تسميه دليلاً، وكتابه قواعد لممارسة المصادرات والسرقات وإهدار الأموال والكرامات بقوة السيف وسلطان الظالمين..

ومن خلال هذا الأدب الحزين كله وما نشأ عنه من ممارسات مخيفة تستطيع أن تقول إن خلاصة تاريخنا الاقتصادى كله أنه تاريخ فقر أسود. والمال الذى هو إحدى زينتى الحياة الدنيا أصبح على أيدى سفلة الحكام نقمة الحياة الدنيا، أما الزينة الأخرى وهى البنون، فإن الجاحظ يقول فى كتاب البخلاء إنهم نكبة وبلاء..

والقاعدة التى سار عليها الحكام هى أنه لا يمكن أن يكون فى البلاد إلا رجل غنى واحد، هو الحاكم، والباقى لابد أن يكونوا تعساء، ومعنى ذلك أن سعادة الحاكم شقاء للرعية، أما عصر السعادة للحاكم والرعية فقد انتهى بوفاة عمر بن الخطاب عليه ألف رحمة تنزل من الله..

وقد طبقت هذه القواعد فى مصر من أيام أحمد بن طولون الذى كان إذا سمع إن عند رجل مالاً أو قصرًا أو امرأة جميلة آلمه ذلك ألمًا شديدًا، ولم يسترح إلا إذا جرده من المال والقصر والمرأة جميعًا. والبلوى المؤرخ يقول إن أحمد بن طولون كان رجلاً رحيمًا لأنه كان يكتفى بأخذ المال وإلقاء صاحبه فى السجن دون أن يقتله. فهو صاحب فضل على أى حال، وفى سجون أحمد بن طولون عاش ١٤٠٠٠ رجل فى سراديب تحت الأرض يسمونها «المطبق» وقد طبق حكام مصر هذه

القاعدة أيام الفاطميين الذيـن ضربـوا أسـوأ الأمثـال فـى نـهب الرعيـة، والمعز لديـن الله جمـع ذهـب مصر كلـه ووضعـه فـى سراديب تحـت الأرض، كان لابنه العزيز وزير يهودى الأصل يسمى «ابن كلـس» خلـد اسمه فى التاريخ بأنه قضى وحده على صناعة النسيج فى شمال الدلتا وكانت أزهر صناعات النسيج فى العالم العربى؛ وذلك لكـثرة الغرامات التى فرضها على الصناع فاقفلوا المصانع، وكان سلاطين المماليك أسـاتذة فى فنون السرقة والقتل والظلم، وآخرهم وهـو السـلطان قنصوه الغـورى خرب بيوت الناس جميعا، وعندما أراد أن يبنى جامعـا يتقـرب بـه إلى الله سرق الرخـام والنحـاس والأخشـاب مـن المسـاجد الأخـرى، فسمى الناس جامعه – وهو جامع السلطان الغورى الباقى إلى اليوم – بالمسـجد الحرام..

والعثمـانيون أسـرفوا فـى تطبيـق هـذه القـاعدة حتـى كـان بعضـهم يخطفون أولاد الناس ويبيعونهم ليحصلوا على المال. ومحمد علـى باشـا بدأ حكمه بإصدار قرار يجعل كل أرض مصر وما عليها ملكه، والخديـو إسماعيل باع للأجانب كل ما يمكن بيعه من مصادر الخـير فـى مصر، ووضع المال فى جيبه، وعندما نفوه من مصر خرج ومعه ٨ ملايين جنيه من الذهب، ويقول ابنه توفيق إنـها كـانت ١٣ مليونـًا، لا ٨ ملايـين، ويبدو أن المسألة أصبحت وراثية فـى الحكـام؛ لأن جمـال عبـد النـاصر افتتح حكمه السعيد بمصادرة كـل أمـوال النـاس وابتكـار سـتار للسـرقة يسمى الحراسة. وفى صباح يوم من أيام خريف ١٩٥٢م نشـرت جريـدة الأهرام فى صفحتها الأولى بيانًـا مخجـلاً يتضمـن أسمـاء كـل المصريـين الذين وجدوا عندهم مالاً، وصادروا ذلـك كلـه لأنـهم اعتـبروا كـل غنـى لصًا، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان غنيًا وشريفًا فى آن واحد. وقد صفـق الناس لهذه الجريمة البشعة واعتبروها بداية الإصلاح. وكانوا لسذاجتهم

يظنون أن هذه الأموال عليهم، ولكنهم لطموا الخدود بعد ذلك؛ لأنهم عرفوا أن الأموال المصادرة خرجت من جيوب ودخلت في جيوب أخرى، وشقق الحراسة وزعت بالعدل والقسطاس بين الغزاة، وأحمد عبود باشا عوقب لأنه أنشأ لمصر صناعات وشركات، فجردوه من أمواله ومات الرجل فقيرًا منفيًا في أوروبا، وشركاته العظيمة تولاها مديرون أكفاء جدد من أقارب الغزاة، وكان واحد منهم مدرس ألعاب رياضية فخربوها وجلسوا على تلها. والشركات التي أفلست وزعت أرباحًا على العمال: لأن جمال عبد الناصر أراد ذلك، وبأمر منه يزيد المطبوع من أوراق النقد ملايين، وكل ذلك إصلاح «اقتصادي» في رأي الفلاسفة، وإصلاح اجتماعي في رأي بعضهم الآخر، والمسألة هنا مسألة اجتهاد، ولكل مجتهد نصيب في أموال الحراسات وشقق الحراسات وكله في العيلة.. والسرقات تصبح حلالاً بقوانين. وكان هناك صحفي كبير وظيفته الأولى الدفاع عن ذلك كله..

وكل هذا التاريخ غير الزاهر جعل المال بالنسبة للمصري أمرًا غريبًا، فهو لا يعرف كيف يؤكل أو كيف يشرب، وهو معذور، وعندما جاءت ثورة التصحيح وكانت ثورة حقًا بالنسبة لتاريخ مصر كله، ولو لم يكن لأنور السادات غير هذا الفضل لكفاه، فللمرة الأولى من مئات السنين أمن المصري على نفسه وماله، وأصبح العدوان على مال الناس جريمة أما مال الدولة فلم توضع قوانين للتصرف فيه، لأنه ليس مالاً مصريًا، بل مال الشيطان، ولهذا فقد طردوا رئيس ديوان المحاسبة وأغلقوا الدكان وعلقوا على بابه لافتة تقول: مغلق للتحسينات.. وجاءت قوانين الانفتاح، واندفع الناس في سعار جمع المال، وأصبحت المسألة حمى شملت الجميع، فجأة تحول الناس جميعا إلى طلاب مال وغنى، وأصبحت المسألة سباقا اشترك فيه كل الناس: الطيب

والمهندس والمدرس والمحامى والنجار والسباك والمبلط وبواب العمارة وبائع الفول المدمس وبائع الذرة المشوية وسايس الجراج ومنادى السيارات وكلهم أرادوا أن يكونوا أغنياء فى نفس الوقت وبأسرع ما يستطيعون..

وظهرت حكاية الاستيراد بدون تحويل عملة أجنبية، وألوف الناس تحولوا من صعاليك إلى تجار، وبائع اللب والسميط والروبابيكيا والوزير المفوض السابق افتتحوا مكاتب تصدير واستيراد. كلهم يصدرون شيئًا واحدًا هو الجنيه المصرى. يجمعونه ويبادلونه بالدولار بأرخص سعر، المهم أن يحصلوا على العملة الأجنبية، وهنا يبدأ الاستيراد.. استيراد كل شيء هايف وغير مفيد وبيعه فى مصر بأغلى الأسعار لناس كانوا يحتاجون لكل شيء والقاعدة تقول: اشتر أى شيء واضرب الثمن فى عشرة وأدخل به السوق الحرة. وفى بورسعيد أتعس سوق حرة فى الدنيا، إنها حرة للبائع ولكنها سوق عبيد للمشترى، والمشترى فى الغالب من نوع البائع، وكلاهما يغش الحكومة ويغش الناس، ويسرق مال النبى، المهم أن يغتنى، وهم يشترون أسوأ أصناف البضائع من أرصفة نابولى وحوارى ميلانو، ثم يضعون عليها «اتيكيتات» من أرقى محلات لندن وباريس، وبالأمس فقط رأيت واحدا منهم يشترى أغطية مقاعد سيارات فى ميلانو، يشتريها بخمسة عشر دولارا ليبيعها فى مصر بمائة وخمسين جنيها وهو يسمى ذلك تجارة، بالضبط كما كان المعز الفاطمى ومحمد على باشا يسميان السرقة تنظيمًا اقتصاديًا، وعبيد الله الفاطمى أول خلفاء الفاطميين فى المغرب بلغ القمة فى التضليل، فعندما غدر بوزيره وداعيته أبى عبد الله الشيعى وقتله، قال: إنه أكرمه بذلك، فقد طهره بذلك وأعده لدخول الجنة طاهرًا من الذنوب كما ولدته أمه وليس هذا كلامًا من عندى بل هو وارد على لسان داعى دعاة الفاطميين القاضى النعمان بن محمد فى كتاب «افتتاح الدعوة»..

وحمى الفلوس التى انتابت المصريين جميعا ابتداء من سنة ١٩٦٠م أصبحت مع الزمن نارًا بل حريقًا هائلاً، كل واحد منا يحرق الآخر: تاجر الجملة يحرق تاجر القطاعى وتاجر القطاعى يحرق العميل، فإذا كان العميل طبيبًا فهو يحرق المريض، وإذا كان مهندسًا فهو يحرق المقاول، والمقاول يحرق صاحب المبنى، وإذا كان صاحب المبنى هو الحكومة لم يكتفوا بحرقه.. بل لابد من حرقه وأكل لحمه مشويًا، وإذا كان صاحب المبنى غير الحكومة فإنه يبيع مبناه شققا ويحرق كل من يشترى منه. وإذا كان الحصول على خلو الرجل من الناس محرمًا فإن حرقهم حلال، وليس هناك قانون ينص على عقوبة لهذه الجريمة، وهناك ألف طريقة لإحراق الناس حرقًا حلالاً: تعال إلى قطعة أرض وساوم أصحابها واشتراها منهم شراء مبدئيًا، وضع لافتة تقول: إنك ستبنى هنا عمارة من عشرة أدوار، والبيع على الخريطة، والخريطة غير موجودة. فى الأسبوع الأول ستحصل على ثمن الأرض وتدفعه، وفى الثانى تدفع للمقاول تكاليف الدور الأول وتقبض من الناس وتبنى الثانى، وهكذا حتى تحصل على ثمن الأدوار العشرة، وتبنى أنت على مهل والناس تنتظر، ومن يرفض الانتظار فهذه نقوده، وتبنى الأدوار العشرة أى كلام، وتسلمها وتعلن عن ١٠ فوقها، وتبنى دون ترخيص ولا يهمك، فإن القانون لا يلزمك إلا بغرامة ألف جنيه عن الدور، وأنت تبيع الدور بمائتى ألف جنيه، وعمارة والثانية وتصبح مليونيرًا، وتفتح مكتب مقاولات، وابنك الخيبان يصبح مهندسًا استشاريًا، وابنك الثانى يصبح مديرًا لمكتب تصدير واستيراد، وابنتك تصبح - بالواسطة - مرشدة سياحية وتتزوج عريسًا «قد الدنيا» وتصبحون جميعا ذواتا أبناء ذوات، الأولاد طول النهار فى النادى، والبنات يجمعن كاسيت أحمد عدوية وخوليو ايجليسياس، وأنت باسم الله ما شاء الله متربع فى المقعد الخلفى للمرسيدس أو الفولفو، وفيلا فى المهندسين وأخرى فى المعمورة

وثالثة فى العجمى والبقية تكتبها باسم الست حرمك أو الهانم بنتك أو المحروس ابنك أو زوج بنتك..

ونار الفلوس أصبح لها مقياس وهو عم سيد السباك، وعم سيد السباك أصبح المثال الذى يحتذيه الجميع فالطبيب يفرض عليك عشرين جنيها أجرًا للكشف يحصلها منك شيخ خفر يسمى الممرض قبل الدخول، وتنتظر ساعتين أو ثلاثًا لكى يجئ دورك فى دخول الجنة، ويعطيك شيخ الخفر النور الأخضر لتدخل على الطبيب، والمسألة محسوبة: دقيقتان لك تحسب فيهما مرضك وصفًا شاملاً بينما يتكلم الطبيب فى التليفون ودقيقتان كاملتان للكشف الدقيق. وخذ نفسًا وأخرج نفسًا، وكمان نفس، ونقرتان على يمين ظهرك، وأخريان على يساره، والبس هدومك وها هى ذى الروشتة فيها أدوية لأمراض الدنيا كلها وتأخذ هذه الأدوية أسبوعين ثم تأتينى! وغيره يا شيخ الخفر واللى بعده يا شيخ الخفر! والطبيب يعمل وكأنه محصل فى سوبر ماركت وهو يشنف أذنيه بأنغام أجراس الكاش - ريجستر، وفى منتصف الليل نقفل الدكان ونحصى مع شيخ الخفر حصيلة الماكينة، وحقيبة سومسونايت نقفلها بالقوة على ألوف الجنيهات، والعيادة أصبحت وكأنها دار سك العملة، ورصيد البيه الدكتور فى البنوك الأربعة التى يضع فيها أمواله يتعالى، والأولاد المحروسين لكل منهم سيارة، والهانم هى الأخرى لها سيارة، وعمارة فى المهندسين وأخرى فى مصر الجديدة وحريق الفلوس لا يتوقف، وتقول للطبيب:

- يعنى يا دكتور مش كتير الكشف خمس دقائق بعشرين جنيها..

كتير أزاى.. إذا كان المعلم سيد السباك يأخذ فى العملية الواحدة مائة ومائة وخمسين جنيها..

لأن منادى السيارة رفع بقشيشه من خمسة قروش إلى عشرة.. - وهكذا يصبح المعلم السباك القدوة، إنه المثل الأعلى للجميع! الطبيب

والمهندس والمحامى والمدرس، وحريق الفلوس يأتى على كل شيء، وفى أيامنا - يرحمها الله - كنا نحن القدوة، والسباك يتعلم منا، أما اليوم فإن البيه الدكتور يتعلم من السباك، بل من المبلط وسائق التاكسى، بل أعرف رجلاً رفع أجر الكشف من خمسة جنيهات لعشرة

ومع الساعات ترتفع حمى الفلوس ويشتد السباق نحو الفلوس والمدرس الذى كان فى العام الماضى يأخذ خمسة جنيهات فى الدرس الخصوصى جعلها هذا العام سبعة وأضاف تجديدًا، وهو أنه ضبط ساعته كل صباح على ساعة الجامعة لكيلاَ يخطئ ويعطى التلميذ دقيقة زيادة، ومدرس العربى الشيخ مفتاح أدخل تجديدًا آخر: التلميذان بثمانية جنيهات وتصحيح موضوع الإنشاء مجانى أو هدية من المحل كما يقولون: وستستمع عن قريب عن مدرس يوزع أجندات هدايًا على الزبائن فيها أسعار الدروس بالجملة والتجزئة وأسعارها فى الصباح وبعد الظهر والمساء إلى منتصف الليل لأنه رجل يساير الزمان وتغير الأحوال..

وتقول للأستاذ المدرس:

مش كتير ثمانية جنيهات على ساعة تدريس يا أستاذ؟..

- كتير أزاى؟ يا مبارك؟ دى الخدامة التى تعمل عندنا من الصبح إلى الظهر رفعت أجرها من ٦٠ إلى ٨٠ جنيها فى الشهر..

وهكذا أصبح الأستاذ المتخرج فى الجامعة يأخذ القوة من البت سعدية المتخرجة فى كفر أبى جهل، والدنيا انقلبت والمقاييس تغيرت، ولكل زمان دولة ونسوان.

والحريق مستمر، وأسعار كل شيء ترتفع تلقائيًا مع مرور الزمن، وما تدفع فيه خمسة جنيهات اليوم ستدفع فيه ستة فى الشهر القادم وسبعة فى الذى يليه، وفى حالات كثيرة تضطرب نسبة الزيادة لأن

الفلوس فقدت قيمتها ولأن الناس أصبحوا لا يفرقون بين الجنيه والعشرين، وهناك أوسطى مبيض استقدمناه لبياض الشق، فجعل يتظاهر بأنه يقيس ويتمتم بيده كأنه يحسب ثم قال: ٦٠٠ جنيه بحساب المتر ثلاثة جنيهات:

– وكيف حسبتها يا معلم؟.

– هذا شغلى وأنا أعرفه.

– طبعا البياض شغلك ولكن الحساب شغلتى.

– وشغلتى أنا أيضًا.

– إذن يا معلم ٧ × ٦ بكام؟.

هوه امتحان ولا امتحان.. شوفو لكم مبيضا غيرى.. مضى وهو يبرطم ويقول: زبائن آخر الزمن! أل يمتحنونى آل.

وهذا الحريق سيستمر حتى نصبح كلنا رمادا، لأن الحكاية تسير بلا ضابط والقدوة انتقلت من أعلاً إلى أسفل والفلوس فى ذاتها أصبحت الغاية والهدف، والفلوس كالنار: خادم مفيد ولكنها سيد ضار، وإذا لم نسارع إلى ايقاف اللهب فلن يبقى منا أحد ليرى النهاية بعينيه، وأى حكومة فى الدنيا لن تستطيع ضبط الأسعار إذا استمر الأمر على هذا المنوال، لأن نار الفلوس تزداد اشتعالاً بسبب ضعف الضمير والوازع، والدولة لا تستطيع السيطرة على الضمائر، فهذه مسألة خاصة بنا نحن، وأجهزة الحكومة أصبحت مثل مواسير المجارى: دايبة ومسدودة ولهذا فلا نطالب الدولة بأن توقف التيار لأنها لن تستطيع ذلك، وماذا تعمل الدولة مع طبيب يريد أن يولد خمس سيدات فى يوم واحد وليس لديه وقت للانتظار حتى تضع كل والدة طفلها وضعًا طبيعيًا، فإذا طالت مدة المخاض أمسك المشرط وفتح فتحة ليسرع بخروج الطفل، وبعضهم

يأخذها من البداية فيلجأ إلى القيصرية، وهذه كلها جنايات على الضمير وعلى ضمير المهنة ولا سلطة هنا إلا للطبيب نفسه.

لقد وصلنا إلى نقطة البداية فى التحول إلى رماد، لأن قطاعات كبيرة من الشعب وصلت إلى نهاية الطريق، فمن المستحيل مثلاً على أى شاب ناشئ أن يجد سكنًا مناسبًا أو غير مناسب، وإذا كان خلو الرجل لأصغر شقة لا يقل عن ثلاثة آلاف جنيه فمن أين له الثلاثة الآلاف؟. ومعظم شباب الأطباء لن يحصلوا على عباة أبدًا، لأن الواحد منهم يحتاج إلى ١٠٠٠٠ جنيه قبل أن يخطو عتبة أى شقة، ولابد له من بضعة ألوف أخرى لفرشها وأعدادها، فمن أين له هذه الألوف؟!. وحتى لو هو عمل حسابه على أن يجمعها فى خمس سنوات فإنها ستكون إذ ذاك خمسين ألفا، والمسألة اليوم سباق محموم، ومهما بلغت سرعتك فى الجرى فأنت لن تسبق النار، فانظر ماذا أنت فاعل والذين ينجبون أولادًا اليوم لابد أن يعرفوا أنهم ينجبونهم للفرن، من بطن الأم إلى النار، وأحسن لهم أن يعذبوا ابنا واحدًا بدلاً من عشرة أبناء.

وأصحابنا فى مكاتب الحكومة يهزون أكتافهم ويقولون لك: إنها موجة عالمية فالأسعار ترتفع فى كل مكان، وارتفاع الأسعار عندنا جزء من ارتفاع الأسعار العالمية.

وتقول له: إننا لن نطالبكم بأن تعالجوا موجة الغلاء لأننا نعرف أنكم لن تستطيعوا ذلك، ولكن ارتفاع الأسعار هناك مهما زاد فهو يتبع منطقًا وحسابًا معروفًا. ثم إن المرتبات أيضًا تزيد لأن الأرباح تزيد. وهناك توازن اقتصادى حسابى، والعامل هناك يزيد أجره ولكن إنتاجه ونوع عمله فى ارتفاع أيضًا، ومن هنا فإن هناك توازنًا بين ارتفاع الأسعار وارتفاع الرواتب وزيادة الإنتاج، أما هنا فإن الاختلال عام وشامل، فإن الناس ترفع الأسعار والأتعاب والأجور اعتسافًا وحسب

المزاج والمطامع، ثم إن ارتفاع دخول بعض الطبقات لا يصاحبه أبدًا تحسن فى الإنتاج أو زيادة فى الدخل العام، لقد قضيت أسبوعًا فى زيادة عمل فى ميلانو فى إيطاليا ولاحظت أن الأسعار ارتفعت فعلاً، ولكن نوع العمل الذى تقدمه دار الطباعة التى أتعامل معها يتحسن، وإنتاج الدار يزيد، ومن هنا فإن الاختلال فى الميزان العام قليل ومحتمل، وقد حسبت حسابى فوجدت أنه رغم ارتفاع أسعار الحياة هناك وزيادة نسبتها على ما عندنا، فإن الحياة هناك أرحم بكثير، والشيء الذى أدهشنى هو أنه رغم ارتفاع كل الأسعار هناك إلى ضعف ما عندنا فإن الإنتاج العام أرخص وأحسن، وإذا كان عندك كتاب تريد أن تطبعه فإنه أرخص لك أن تطبعه فى إيطاليا أو إسبانيا مما لو طبعته فى مصر، مع أن العامل هناك على كل مستويات العمالة يتقاضى أربع مرات أجر العامل المصرى، فهو هناك يتقاضى أجره على أساس ساعة العمل، ولكنه ينتج فى ساعة قدر ما ينتجه العامل المصرى فى أربع ساعات لأن هناك قوانين وتقاليد عمل وشرف مهنة يعرفها العامل وصاحب العمل، ثم إن العامل هناك لا يتلف الآلة التى يعمل عليها، بينما العامل المصرى يحطمها تحطيمًا.. وكل عمل نعمله (نص نص).. إلا التخريب فهذا هو اختصاصنا الذى ننفرد به بين الخلق ونحن نتقنه تماما، وقد كنت أعمل هناك فى الأطلس الإسلامى وسط العمال ثمانى ساعات فى اليوم، فما سمعت مرة حديثًا طويلاً، ولا تنادى بالأسماء، ولا رأيت كوب شاى، كلهم يعملون فى صمت وهدوء، ويعالجون ما بين أيديهم بمحبة، وكل منهم يخصص ربع الساعة الأخيرة من العمل لتنظيف الجهاز الذى يعمل عليه وتغطيته بغطائه..

وسألت نفسي: ما الذى يحدث لنا؟ وما العيب عندنا؟ لماذا نلهث وراء المال ونظل فقراء؟ لماذا يكسب الكثيرون منا المال الكثير ويظلون متسولين؟ لماذا لا نعرف طعم الحياة السعيدة إلا فى النادر؟ والطبيب

الذى يجمع ألف جنيه فى اليوم يرتمى فى فراشه آخر اليوم منهوك القوى، وينهض فى الصباحِ جهم الوجه بادى الاجهاد، ويجلس أمام عجلة القيادة سيارته ضئيلاً صغيرا كأنه سائق سيارة لا صاحب سيارة؟.

السبب هو أن القلوب متحجرة والعواطف متجمدة، والحب، وهو قوت القلوب غير موجود.. إننا نحب المال دون أن نعرف ماذا نفعل بالمال، لأن أجمل وجوه إنفاق المال هو أن يكون سببًا فى إسعاد الآخرين، بعد أن تأكل أنت وآلك، بعد أن تنال أنت وأولادك كل ما تتوق إليه النفوس، جرب أن تخرج شيئًا من المال لإسعاد طفل مسكين أو يتيم، جرب أنت وأمثالك من القادرين على إصلاح الشارع الذى تسكنون فيه والمحافظة على قطعة الأرض التى تعيشون فيها خضراء نظيفة.. هذا هو ما أعنيه بالحب الذى لا نعرفه، لقد ذهلت مرة وأنا أعمل فى مجلة الهلال من شاب كان يعمل معنا ناداه زميل له ليراجع معه كلام الصور فأبى وقال: ينحرق الهلال وأصحابه! وحكت الكلمة أذنى وقمت مسرعًا لأعتب عليه، ونظرت فى وجهه فإذا هو جامد كالصخر وعيناه زجاج كأعين السمك وفوقهما نظارة عليها تراب، ونظرت إليه ولم أقل شيئًا، فمن مثل هذا الوجه لا تنتظر حبًا ولا تأمل فى عاطفة، والخضرة لا تطلع من الصخور، والجراد لا يصنع الرخاء، والقلب الجامد كهف مظلم يعيش فيه الخفافيش مصاصة الدماء.

لهذا فنحن مسعورون على المال، إننا عاجزون عن أن نعطى، ولهذا ينصرف جهدنا كله فى أن نأخذ، والقلب الذى لا يعرف العطاء لا يعرف السعادة ولا الغنى، والغنى ليس جمع المال، إنما كفاية النفس وسلامة الضمير والإخلاص فى العمل، ولو أن الطبيب أعطى مريضه شيئًا من الحب بدلاً من روشتة طولها متر لشفى المريض، إننى لا أتعجب من أن المريض المصرى لا يكتفى بطبيب واحد أبدا، إنه يحس أن الطبيب الذى يعالجه لا يشعر نحوه بأى محبة، والعلاقة

بينه وبينه علاقة مال، والمريض يعطى المال والطبيب يعطى الوصفة، فلا المال ينفع ولا الوصفة تنفع المريض.

والمدرس المصرى غير ناجح لأنه لا يحب التلميذ ولا التدريس، والمدرسة سجن مفتوح الأبواب، لأن كل الذين يعيشون فيها لا يعرفون الحب، المدرس سجان، والناظر مأمور سجن، والتلميذ سجين ولا محبة بين إنسان وإنسان.

والمصرى الذى عانى الفقر مئات السنين يظن أن سعادته فى أن يصل إلى المال الكثير بأسرع ما يستطيع.

والمصرى الذى حرموه من عزة النفس مئات السنين يظن أنه يدرك الكرامة والحرية بالتمرد على كل القوانين حتى قوانين الأدب واللياقة والنظافة واحترام حريات الآخرين، وبداية حفل الزواج عندنا إقلاق راحة الآخرين، وسعادتنا لا تتم إلا بعذاب الناس.

والمصرى الذى حرموه السعادة مئات السنين يظن أنه يدرك السعادة إذا هو سكن شقة أرضيتها مغطاة بالموكيت وفوق الموكيت أثاث غالى الثمن وتليفزيون واستريو وفيديو وثلاجة ٥٠ قدمًا وسيارة على الباب فيها تليفون.

لا أيها الأخوة والأعزاء.

إننا نشعر بالغنى الحقيقى إذا أحببنا بلدنا هذا ورعيناه.

إننا نشعر بالسعادة الحقة إذا نحن أعطينا قبل أن نأخذ، إذا نحن فكرنا فى الآخرين كما نفكر فى أنفسنا، لأن المال وحده لا يغنى الإنسان، والعلم وحده لا يصنع العالم، والمهارة وحدها لا تصنع الفنان، وقد رأى رسول ﷺ رجلاً يغرس نخلة، رآه يحفر لها بئر وينخل التراب قبل أن يضعه فى البئر، ويمسك بالفسيل فى محبة ويضعه فى

التراب ويرويه بماء قليل ويتحسسه بيده ليطمئن عليه، ثم يغطيه بثوب قديم مخافة برد الليل، فيضع الرسول الكريم يده على رأسه ويقول: هذه يد يبارك الله ما تصنع.

تحسب أيها العزيز أنك تغنى ومن حولك فقراء؟.

تحسب أنك تستطيع أن تغنى من نهب أموال الآخرين؟.

وتكذبك نفسك والله!.

فإننا لا تغنى أبدًا ووطننا فقير، وأنت لن تشبع أبدًا ومائدتك عليها الطعام أشكالاً وألوانًا لأن وراء بابك مئات من إخوانك المصريين جياع.

إننا أيها الأخوة لن نسعد ومصر تعيسة، ولن نقوى ومصر ضعيفة، ولن نعرف الضحك ومصر باكية.

ومصر أيها الاخوة اليوم حزينة باكية لأنها أرمل تخلى عنها الجميع، لقد اشتركنا جميعا فى نهبها، والجنيه المصرى رمز مصر نجمعه وندسه فى أفواه الخنازير لنحصل على بضائع هى أسوأ من لحم الخنزير.

وهذه اللهفة على المال لن تجعلنا أغنياء لأن الغنى غنى النفس والشبع شبع الروح، لهذا فإن الذين نسميهم اليوم أغنياء هم أتعس الفقراء، وهذه اللهفة على المال حمى ستمتد وتمتد حتى نصير كلنا رمادا.

إننا قافلة ضلت الطريق.

واليوم ووسط صحراء قاحلة وتحت شمس محرقة نقف ورمال تحيطنا إلى مقطع الأفق فى كل اتجاه، وعند مقطع الأفق لن نجد إلا ثلوج الموت!.

(١٢)

نحن نأكل لحم أخينا ميتا وحيا* !

فى تفكيرى الدائم فى أمر شعبنا - العزيز والمحير - هذا أقول لنفسى أحيانا: لابد أن زلزالاً عنيفًا قد مر بنا وهز كياننا هزًا شديدًا، فتغير طبعنا، واضطرب مزاجنا، ففقدنا الكثير من قيمنا ومقومات شخصيتنا. ودخلنا - نتيجة لذلك - فى دور جديد من تاريخنا، لم نعد نعرف فيه من نحن؟ أو ماذا نريد؟. واضطرب ميزان القيم والأشياء فى أيدينا واضطرابًا بالغًا، فما كنا ننكره بالأمس أصبحنا اليوم نقبله، وما كنا نراه عيبًا لم يعد عيبًا، حتى أرضنا التى هى قوام حياتنا وسر وجودنا أصبحنا اليوم نبددها فى غير مبالاة.

والفلاح المصرى الذى كان على طول التاريخ رمز الأرض الخضراء والزرع البديع والرخاء الذى كانت تحسدنا عليه الأمم لم يعد اليوم فلاحًا أو زارعًا، بل إن أرضه لم تعد خضراء، فقد جرفها أو تركها بورًا لكى يحولها إلى أرض مبان يبيعها بالمتر. وترك الحقل ومضى ليأخذ مكانه فى طابور الجمعية ليحصل على طعام مستورد زرعه فلاح آخر فى البرازيل أو أستراليا أو كندا وربما فى الأرجنتين، ومع تراجع الخضرة وتغير لون الريف المصرى تغيرت نفس الفلاح المصرى، فلم تعد خضراء أو مفرحة، وأخذت لونًا جديدًا رماديًا كابيًا هو جزء من ذلك اللون الرمادى العام الغالب على حياتنا اليوم..

وقد يكون الذى حدث هو العكس أى أن هذا الشعب كان ينبغى أن يعانى زلزالاً عنيفاً يخرجه من الركود الذى يعانيه منذ الأربعينات أو الثلاثينات من هذا القرن، وأنه لمن الغريب جدًا أن الحرب العالمية الثانية، التى اجتاحت هذا الكوكب وغيرت من أحوال كل شعب فيه، مرت بنا نحن وكأننا نعيش فى كوكب آخر. فبينما كانت أوروبا غارقة

---

* نشرت هذه المقالة فى أكتوبر ١٩٨٤م .

فى الصراع والدمـاء والبـارود والنـار، والولايـات المتحـدة كلـها مشـتغلة بالحرب تعمل جاهدة للقضاء علــى النـازيين والفاشـيين، وبينمـا كـانت الصين تدافع عن كيانها أمام غزو يابانى شامل اكتسح معه نحو عشرين مليون صينى، واحترقت فيه الصين القديمة لتولد صين جديـدة، وبينمـا كانت روسيا تتحول فى نيران الحرب إلى هـذا المـارد العسكرى العلمـى الذى يخيف الدنيا كلها اليوم، كنا نحن نمرح ونلعب، فالملك والإنجليز والباشوات فى لعبة الوزارات المملة، والأموال تنصب فى جيوب الألوف دون تعب أو حساب، وفى بارات عماد الدين وما حوله. وفى كباريهات داعرة كان يجلس باشوات وأنصاف باشـوات وخواجـات ويـهود، ومـن هنا يحركون بورصة الأوراق المالية فى القاهرة أو الإسكندرية، ويربحـــون مئات الألوف، حتـــى العيـال مـن أولادهـم تعلمـوا اللعبـة، وتحولـوا إلى «كروبيه» يمدون العصا الطويلة ذات الجاروف ليحوزوا ما ألقتـه إليـهم بـه كـرة الروليـت، وفـى أوكـار أخـرى جلـس المعلمـون ســادة تجــارة المسروقات من «الأورنص» (الأوروينانس أى مخــازن التموين والبضـائع الخاصة بالجيش الإنجليزى، ومازالت فى أذهاننا إلى اليوم صورة «غنى الحرب» ذلك الرجــل الجلـف الـذى يكسـف الألـوف وينفـق فـى غـير حساب. وكل حياته حرام فى حرام ولا وجود عنده لوطن أو ضمير.

وعندمـا أشـرفت الحـرب علـى نهايتـها أعلنـا الحـرب علـى ألمانيـا وإيطاليا!. وألمانيا التى أعلنا عليها الحرب لم تحس، لأنها كـانت فـى سياق الموت، ونحن لم نعلنها عندما كانت الحرب دائـرة فـى صحرائنـا الغربية وجيوش المتحاربين تكر وتفر على أرض بلدنا وفـــى موضـع غـير بعيد من مرسى مطروح دارت رحى معركة حاسمــة يمـلأ صيتـها الدنيـا هى العلمين. وكنا نقرأ أخبار ما يجرى فى العلمين، وكأنها ليست جزءا من أرض مصر بل منا من كان يتندر بتلك الحـرب ولا يفكـر فـى أمرهـا لحظة، وانتظرنا نحن حتى مرت معارك سيدى برانـى.وسـيدى جوانـى وطبرق والعلمين، حتى إذا انتهت الحرب من الشمال الأفريقى كله ومن إيطاليا كلها وأصبحت هناك داخل ألمانيا، أعلنا الحرب على ألمانيا.

كل هذه الأحداث الهائلة مرت بنا وكأننا نيام، وانتهت الحرب وانتهى معها العالم ما قبل الحرب، ودخلت الدنيا كلها عالم ما بعد الحرب، ونحن مازلنا نتلكأ فى المؤخرة وكأننا لسنا فى هذه الدنيا، وعندما رأينا قافلة الإنسانية تبتعد عنا وتكاد مؤخرتها تختفى عن الأنظار مضينا نهرول على أمل اللحاق بها، وهيهات! أليس هذا هو حالنا اليوم؟ ألسنا نهرول ونلهث وراء القطار الذى فاتنا ولا نكاد ندركه؟

إننا ندخل اليوم عصر الكومبيوتر، ونحاول أن نعيش فيه، ولكننا نحس فى كل لحظة إحساس الريفى الساذج الذى دخل المعرض الكبير وتجول فيه وخرج من الباب الآخر يحمل فى يده نشرات وإعلانات وكراسات دعاية ملونة، أخذ يتأملها فلم يفهم مما فيها شيئًا، فألقى بها فى الطريق، وهذه هى حالة تسعين فى المائة من الأجهزة الإلكترونية فى بلادنا، نشتريها اليوم لتتحول إلى خردة غدا، فنحن نشتريها ولا نعرف كيف نستخدمها أو كيف نصونها، والجهاز الذى يتعطل لا يصلح أبدًا، لأن العلة ليست فيه بل فينا. ونحن نعيش وراء عصر الكومبيوتر بقرون.

وفى حيرتنا البالغة - يسبب الزلزال الذى أصابنا أو الزلزال الذى كان ينبغى أن يصيبنا ولم يصبنا نقف اليوم فى وسط سوق الدنيا وكأننا الأصم فى الزفة، والحل الوحيد الذى خطر ببال معظمنا أن المال ربما كان طوق النجاة الذى نحتاج إليه، واجتاحتنا كلنا حمى المال، وميزان الأسعار والأجور والإيجارات اضطرب اضطرابًا شديدًا، والشىء الذى يساوى جنيها أصبح يباع أحيانًا بعشرة أو عشرين، والعامل الذى يدق لك مسمارًا يطالبك بعشرة جنيهات لا لأن العمل الذى عمله يساوى هذا المبلغ، بل لأنه هو نفسه لا يعرف الفرق بين العشرة الجنيهات والعشرين، والطبيب الذى ينظر فى عيادته فيراها مكتظة بمعلمين فى

جيب كل منهم محفظة كأنها وسادة يجد أنه من حقه أن يرفع أجره من خمسة جنيهات إلى عشرة إلى عشرين وربما ثلاثين، لأن كل واحد من أولئك المعلمين لن يرحمه إذا هو ذهب يشترى منه شيئًا. ومن أيام وجدت أن سعر كيلو اللحم بلغ سبعة جنيهات ونصف. ونحن أصحاب القلم مساكين جدًا فى هذا السباق القاسى نحو المال، فإن أتعابنا لا تزيد إلا بالقطارة، وليس أمامى فى هذه الحالة إلا أن أخفض استهلاكى من اللحم، وبدلاً من ستة كيلوجرامات فى الشهر أكتفى بثلاثة، لكى أستطيع تحقيق شىء من التوازن بين الوارد والمنصرف، بينما جارى الذى يسكن الدور فوقى يرتبط على بابه ثلاث سيارات غالية الثمن وواحدة منها بالتليفون، ويغير عفش بيته مرة كل عامين على الأكثر، أما الحمامات فهو يبدلها كما نبدل نحن الجوارب أو المناديل، والحصول على المال لا يكلف هؤلاء الناس إلا توسيع الذمة بعض الشىء حسب الحجة، والأزمة عندهم ذات قلاووظ: هكذا تتسع وهكذا تضيق!

ومهما اختلفنا حول الأسباب والعوامل، فإن المؤكد هو أن ميزان القيم يضطرب فى أيدينا الآن اضطرابًا شديدًا، ولا يقتصر الأمر على الأشياء المادية، بل هو يشمل - وبصورة أفدح - القيم المعنوية ومفهوماتها مثل الحق والواجب والقانون والضمير والذمة وما يصح، كل هذه قد اختلت موازينها اختلالاً مخيفًا، وتبعًا لذلك تغيرت طبائع الناس وسلوكياتهم تغيرًا بالغًا، وأصبحنا نشهد من الناس حولنا تصرفات لا تصدق، وأنا أتعزى فأزعم لنفسى أن ذلك كله طارئ مؤقت لأنه يخالف طبائعنا وخصائصنا، وان لسان الميزان لن يلبث أن يعتدل من جديد، فيعود كل مصرى إلى طبعه الأصيل الكريم الذى نعرفه فيه ويشفى شعبنا من سعار المال الذى استولى عليه، فيعود الفلاح المصرى فلاحًا طيبًا يرعى أرضه وأرضنا، كما فعل من آلاف السنين، والصانع المصرى يعود إلى قناعته وذمته وضميره وإتقانه لعمله، كما عرفناه من أيام أجدادنا القدماء الذين

اخترعوا الحرف والصنائع والإتقان، ويعود المهندس المصرى مهندسًا رصينًا معافى من حمى المال التى جعلته يرتكب تلك الكوارث المهنية التى يرتكبها اليوم عن نقص العلم أحيانًا، ونقص الضمير أحيانًا أكثر، والمهندس المصرى القديم لايزال يبهر الدنيا بمنشآته دون أسمنت مسلح، فى حين أن حفيده يذهب الدنيا بتفاهات ما يبنى رغم الحديد والأسمنت المسلح..

والطبيب المصرى ينظر أولاً إلى علاج مريضه دون لهفة على المال أو سباق نحوه، ويعود كل شىء إلى نصابه، لأن الحقيقة أن كل ما نحن فيه وما يحيط بنا غير طبيعى، فنحن قطعا نستطيع أن نطعم أنفسنا بنفسنا ومن أرضنا دون حاجة إلى تسول القمح والدقيق واللحم بتلك الطريقة غير الكريمة التى نفرق فيها اليوم، ويومها سنرى الأشياء على حقيقتها، ونستطيع علاجها بعقل وحكمة وروية، ولو أنك اقترحت ا ليوم على مجلس الشعب إلغاء دعم السكر مثلاً لقامت القيامة مع أن إلغاء دعم السكر مثلاً لقامت القيامة مع أن إلغاء دعم السكر نعمة على الفقير والغنى جميعا، فليس هناك شىء أضر بالصحة من السكر الأبيض الذى ننفق الملايين فى شرائه من أسواق العالم لنبيعه بالثمن الرخيص لجمهورنا، ونحن نعلم أننا نبيع لهم السم، ويومها أيضًا سنرى أن دعم السيجارة جريمة، وأن بيع لتر البنزين بخمسة عشر قرشا جريمة أكبر لأننا ينبغى أن نبيعه لمن يريد أن يقتنى سيارة بسعر قريب من السعر العالمى، وقد كنت فى إسبانيا من أسبوعين فوجدتهم يبيعون لتر البنزين بستة وتسعين بيزيتا أى بنحو سبعين قرشا، ومن يريد أن يركب سيارة فليتحمل تكاليفها ومن لديه سيارة فليقتصد فى استعمالها..

□□□

أقول هذا لأن حمى المال التى تستولى علينا لا تحرق أموالنا فحسب، بل أخلاقنا كذلك، وفى الصيف الماضى دعانا صديق إلى مأدبة سمك فى

أبى قير، وفى أثناء الحديث وقبل الذهاب عرفت أن الوجبة الواحدة تتكلف حوالى عشرين جنيها، فرفضت أن أذهب لأننى إذا قبلت أن أدفع هذا المبلغ أو يدفعه صديق عنى، فإن ذلك سيكون له أثر سيئ جدًا فى نفسى، وهل العشرون جنيها قليلة حتى أنفقها فى أكلة سمك؟. وإذا هانت عليَّ العشرون جنيها، فلابد أن تهون على نفسى أشياء أخرى كثيرة جدًا، وأهم من السمك بكثير، وسأصبح مثل ذلك الرجل البلدى أقبل مع أسرته ذات يوم ونحن جلوس فى حديقة المنتزه فى الإسكندرية، وجلسوا على الخضرة إلى جوارى وبسطوا ملاءة وأخرجوا طعامًا كثيرًا كله سمك وأقبلوا يلتهمونه، الرجل يقول إنه أنفق فى هذا السمك أربعين جنيها! وأكلوا ما أكلوا ثم نفضوا الملاءة وتركوا المكان مزبلة وقالت لى زوجتى:

– أليست هذه جريمة؟

قلت: بلى إن ترك هذه المخلفات على هذه الصورة جريمة، ولكن الجريمة الأكبر هى أن ينفق هذا الرجل أربعين جنيها فى أكلة واحدة، لأن المال لابد قد وصل إلى يده بمثل السهولة التى أنفقه بها.. وهذا هو اختلال الموازين بعينه، وأنا لا أستغرب أن يطلق هذا الرجل امرأته ويتزوج أخرى مساء اليوم، ويلقى بها وبعيالها فى الطريق لأن ميزانه الأخلاقى لابد أن يكون مضطربًا مثل ميزان الأسعار فى يده..

ونهضت أبحث عن أحد البستانيين وأعطيته جنيهين لكى يرفع هذه البقايا، وسألته إن كان يستطيع أن يأتى بشىء من المبيدات ويرشها فى هذا الموضع، فاستجاب وتقاضى جنيها آخر وشكرته وقلت:

– بدون هذا لن تكون لدينا من الغد حديقة نجلس فيها..

□□□

لكى أعطيك مثالاً عن مدى اضطراب ميزان القيم عندنا اليوم أحكى لك الحكايتين التاليتين..

من نحو ثلاثين سنة كنا نقطن فى شقة فى شارع جنينة ناميش فى السيدة زينب، وكان يسكن أمامنا رجل وامرأته، وكان الرجل مريضًا منقطعًا عن العمل، وكانت امرأته تقوم على تمريضه، ولم يكن لديهم أولاد، ولا أذكر أن أسبوعًا مضى دون أن يزور ذلك المريض أحد أخوته أو إحدى أخواته.. كلهم يحملون المال أو الطعام، وتوفى الرجل، فأقبل بعد أيام أخوان للمتوفى، وقالوا للسيدة: أنت تظلين فى بيتك على حالك، ولن ينقصك شىء، ونحن أشقاؤه، ورعايتك تلزمنا، لأنك كنت له خير زوجة فى الصحة والمرض، وقد اجتمعنا نحن الأخوة واتفقنا على أن نقدم لك كل شهر خمسة عشرة جنيها، فيظل بيتك مفتوحًا، ولا يتغير فى بيت أخينا شىء، مادمنا على قيد الحياة!

وأذكر أن شيئًا ما لم يتغير على هذه الأرملة ظل بيتها مفتوحًا، وظل إخوة زوجها ونساؤهم يترددون عليها، كما كان الحال فى الماضى، وهذا بلا شك هو الخلق المصرى، كما أعرفه وكما ينبغى أن يكون عندما يكون ميزان القيم معتدلاً فى أيدينا.

فاسمع إذن يا سيدى ماذا حدث من قرابة الشهرين..

توفى رجل طبيب نعرفه بعد مرض طاوله ثمانى سنوات أجرى خلالها عمليتين جراحيتين فى مصر وثالثة فى إنجلترا، فقد كان الرجل ميسور الحال وكان حاله كحال الآخر الذى حكيت لك حكايته أى أنه لم ينجب..

ويقصٌ على ما حدث بعد موته أخو زوجته الحاج سيد ويقول:

خلال سنوات المرض والعمليات لم يزرنا واحد من إخوته أو أولاد أخوته حتى نسينا أن له أخوة أو أقارب. والرجل كان يقيم فى شقة جميلة حسنة التأثيث فى بيت من أربعة طوابق فى العباسية..

وتوفى نسيبى وواريناه التراب..

وبعد ظهر اليوم التالى وأختى تعانى أوصاب الحزن، فقد كانت تحب زوجها حبا وكان الرجل جديرا بذلك الحب وتبكيه ملء عينيها، فقد كان الرجل بالفعل أهلا لكل حب، بينما أختى فى هذه الحال وحدها فى بيتها، طرق الباب وقامت تفتح فإذا إخوته الثلاثة وأختان له ومعهم أربعة من أولادهم يقتحمون الباب، ويدخلون متظاهرين بالحزن ويجلسون، وبعد عبارات التعازى يقول كبيرهم.

□□□

- والله يا أنصاف هانم أنت لا تتصورين حزننا على أخينا، فقد كان المرحوم كبيرنا وعميد أسرتنا، ولم نكن نكف عن التفكير فيه والأسى لحاله لحظة.

فيكم الخير..

وبعد لحظة صمت عاد يقول.. ولكنك تعرفين الأحوال يا أنصاف وأخونا رحمة الله عليه مضى إلى حاله غير مخلف ولدًا وبنتًا، ونحن نعرف أن هذه الشقة ملكه، ونحن لن نطالبك بإخلائها - وهذا من حقنا - ولكننا مراعاة لحرمة أخينا مستعدون لأن نسمح لك بالإقامة فى غرفة من غرفها تختارينها كما تشائين، وسنتنازل لك من المال الذى ترك نصيبًا يغطى حاجاتك شهرين ثلاثة حتى تدبرى أمرك، ونحن ناس معقولون ولا نريد الدخول فى مشاكل أو محاكم، ونحن نعرف أنك سيدة مفردة، ولن تستطيعى شيئًا حيالنا، ولكننا كما قلت لك نراعى حرمة أخينا وما كان بيننا وبينك من صهر.

والسيدة - بعد صبر ثمانى سنوات مع رجل مريض - كان قد صلب عودها واكتسبت رجاحة عقل تدعو إلى الإعجاب، ولاشك فى أنها كانت تنتظر زيارة أولئك الأقارب، ولكن ليست بهذه السرعة، ولا بتلك

الصورة البالغة الجفاء التى تشبه الغزو، فظلت صامتة تنظر فى وجه محدثها فاستمر يقول:

– ونحن لا نعرف طبعًا كم عند أخينا – عليه رحمة الله – من المال ولا مقدار ما عندك من المصاغ، ولكننا نرجو أن تطلعينا على ذلك كله بالأمانة حتى يأخذ كل منا نصيبه بما يرضى الله:

وسواء صارحتنا أم لم تصارحينا فإننا سنعرف كل شىء وسنأخذ حقوقنا على دائر المليم، ومن باب الاحتياط أرسلت ابنى إسماعيل لينبه على الجراج بضرورة التحفظ على سيارة أخينا حتى يتم الاتفاق بيننا وبينك بشأنها، وسنكلف محامينا بمعرفة ما خلفه المرحوم من أموال فى البنوك، ونحن نعرف أنه كثير جدًا، واستمرت السيدة فى صمتها، ويقول الرجل:

– ماذا قلت يا ست إنصاف؟ هذه مسائل لا تحتمل التأخير، ونحن كما قلت لك ناس مسالمون لا نريد متاعب أو قضايا ومحاكم وابنى عبد الرحمن. خاطب من سنة قد جاءه الفرج ليدخل على عروسه فى شقة عمه!

قالت السيدة: فى أى لحظة سيأتى أخى الحاج سيد، ويكون كلامنا بحضرته.

ويقول أخ آخر: سيد كيلانى.

وتقول السيدة: سيد كيلانى المهندس المقاول.

– وما دخله؟ وهل تظنين أن كونه مهندسا مقاولاً سيخيفنا؟

صبركم بالله! أما قلتم إنكم تريدون أن نصفى كل شىء فى هدوء وسلام؟

– بلى.. ولكن لنفترض أن السيد الحاج سيد كيلانى – ولا مؤاخذة – لم يأت فماذا نصنع؟

على الأقل اختارى من الآن حجرتك لكى نتصرف فى الباقى.

واندفع كل من الأخوة والأخوات يقول ما تيسر وهاصت الدنيا، وأخيرا وصل الحاج سيد وكان قد استأجر الدور الأرضى فى البيت وأسكن فيه ابنين له يدرسان فى جامعة عين شمس دخل وحيا الجيش الفاتح الجالس على المقاعد، ثم قال:

– خيرًا إن شاء الله.

وأعادوا عليه الكلام فى أسلوب أكثر تأدبًا لأن الحاج سيد رجل موسر صاحب مكتب هندسة ومصانع بلاط وأدوات صحية. فاستمع إليهم ثم قال بكل هدوء:

– الآن فقط ذكرتم أن لكم أخا!

– يا سيد بك ندخل فى الموضوع، ولا حاجة بنا إلى هذا التقطيم.

– ولم لا أيها السادة، إننا هنا فى بيتنا نتكلم فى هدوء وسنتفق إن شاء الله على كل شىء، ولكن أحب أن أذكركم بأن الله سبحانه وتعالى قال: إن المؤمن يكره أن يأكل لحم أخيه ميتًا وأراكم تريدون أكله ميتًا وحيًا!

– يا حاج سيد لا داعى لهذا الكلام لندخل فى الموضوع.

– نحن فى صميم الموضوع فليس هناك أيها السادة ما يقسم. فإن المرحوم كان يتوقع أن يحدث هذا بعد وفاته وكان قد باع لأختى أنصاف كل ما عنده من خمس سنوات. باعه لينفق على علاج نفسه وأختى كان عندها مال كما تعلمون فاشترت كل مال زوجها وأعنتها أنا على ذلك بما تيسر لى، والمرحوم كان يملك هذه الشقة فحسب، فاشترت أختى البيت كله، الأدوار الأربعة وهى التى اشترت سيارة المرحوم الباقية إلى اليوم، والتى تريدون الحجز عليها كل ذلك ملك أنصاف من

سنة ١٩٧٦م وصدقوا أيها السادة أو لا تصدقوا: لقد أنفقت كل مليم كان عندها أو عند زوجها على علاج زوجها - أخيكم رحمة الله عليه - كان رجلاً يوزن بالذهب، بل هى تعلمت التمريض لكى توفر أجر المرض والحقن، والمرحوم كان مريضًا بالسكر، بل هى باعت أربعة فدادين من أرضها لإجراء العملية الأخيرة فى لندن.. كل ذلك وأنتم لا تسألون عن أخيكم..

- لا نصدق حرفاً من هذا الكلام.

- كنت أتوقع ذلك!

ثم نظر إلى ابنه عزت وهو طالب فى طب عين شمس، وقال له: هات يا عزت نسختين مصورتين من الملف وأتى عزت بملفين مصورين كل واحد منها يقع فى نحو مائة ورقة مصورة فيها صور عقد البيع والشراء المسجلة كلها فى الشهر العقارى مع طائفة من كشوف حسابات العمليات الكبرى وقال:

- هذه الصور أعددناها بأمر المرحوم لأنه كان يتوقع منكم.. هاتان نسختان تستطيعان دراستهما مع محاميكم إن كان لكم محام.. وسترون فى النهاية أنه ليس لكم معنا كلام.. حذار أن تتصرفوا أبسط تصرف إلا بعد أن تقرءوا هذه الأوراق كلها، لتروا ماذا فعلنا لأخيكم الذى تأتون الآن لتتقاسموا ميراثه، وتطردوا أرملته من بيتها، وتتحفظوا على سيارته، والآن أظن أن من حق أختى أن ترجوكم أن تتفضلوا غير مطرودين، لأننا محزونون على الفقيد لقد حفظنا لحمه حيًا وميتًا عليه ألف رحمة من الله، فقد كان زينة الرجال.

وقاموا دون أن ينبسوا وعندما كانوا بالباب وكبيرهم يحمل الملفين تحت إبطه كأنهما خفًا حنين، قال: هذه الأوراق ستقرؤها مع المحامى ورقة ورقة، ولن نتنازل عن مليم لنا فيه حق، وهذا ليس آخر لقاء

بيننا.. وأظن يا حاج سيد أنك لا تكره الحق.. ونحن لنا أولاد والحى أبقى من الميت!

وتقول أنصاف هانم:

– غلط يا توفيق بك، الآن فقط أرى أن ميتًا واحدًا أبقى من ألف حى! من قال إن الحى أبقى من الميت؟ مع السلامة.

(١٣)

أنت وأبو فصادة وفلسفة الحياة*

أبو فصادة عصفور مصرى دقيق الجرم أنيق الهيئة خفيف الظل لا تراه إلا فى الحقول والحدائق وهو إذا طار ارتفع وأعلى فى الجو حتى لا تراه للطافة حجمه، وله فى طيرانه خصلة فريدة هى أنه يتموج فى طيرانه، فيعلو ثم يهبط ثم يعلو كأنه بهذه الطريقة يخادع كبار الطيور ممن يحلو لهم العدوان على صغار الطير، ولكن أظهر خصائصه التى يمتاز بها على الطير كله هى أنك لا تراه إلا رافع الرأس والذيل أبدًا، وذيله على الخصوص يقوم مستقيمًا شاخصًا إلى السماء كالعمود، وهو إذا طار نشره كأنه مظلة تحفظ توازنه فى الجو، فإذا حط على الغصن أو الفنن رفعه إلى السماء قائمًا، فقيل له مرة: أرفق بنفسك يا أبا فصادة، ولا تحملها عناء رفع الذيل هكذا دائما أبداً!. فقال أبو فصادة: أخفض ذيلى؟ إذن تقع السماء على الأرض!

فهذا الطائر اللطيف يتصور أن ذيله المرفوع هو الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض، فهو إذن ليس مجرد طائر لطيف إنه مخلوق صاحب رسالة، وعصفور له مهمة كبرى فى الخلق، إنه يحمل السماء ولولا ذيله المرفوع لوقعت السماء على الأرض وكانت كارثة، ولهذا فأنت لا تراه يمشى على الأرض إلا نادراً، إنه دائمًا فوق فنن رفيع، وذيله مرفوع خطًا مستقيمًا ورأسه، لا ينخفض إلا ريثما يلتقط الحبة فينقض عليها ويحملها فى منقاره ويسبح فى ملكوت الله وهو فى طيرانه يتأمل الْخُلق من تحته، لأنه ليس مجرد عصفور من العصافير يسعى لرزقه ويمشى على الأرض وينبش القمامة سعيًا وراء رزقه كما تفعل القُبَّرة بضم القاف وفتح الباء مع تشديدها وهى العصفور الرمادى الصغير الذى يملأ الجو فى كل بلاد الدنيا فلا تتلفت إلا رأيته.

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢ يونيو ١٩٨٥م .

وهذا هو الذى يعجبنى فى أبى فصادة، وفى كل مرة أجد نفسى فى حقل أو روض دارت عينى تبحث عنه، وأنا دائمًا أبحث عنه فى ذرا الأشجار لأنه عصفور له كبرياء وعزة نفس، فإن له رسالة كبرى لا يتخلى عنها أبدًا، وأذكر أننى قرأت ذات مرة كتابًا من نوادر ما ألف فى مصر بالإنجليزية يسمى «الطيور المصرية» ألفه فيما أذكر واحد من الإنجليز القلائل الذين أحبوا هذا البلد وخدموه اسمه تشارلس جارفيس، كان فى يوم من الأيام حاكم سيناء، وله كتاب مشهور عن سيناء، وأظن أنه تحدث فيه عن طابا وقرر دخولها فى الوطن المصرى من قديم الزمان وبرأيه أخذ اللورد كرومر عندما تصدى لوالى الدولة العثمانية على بلاد الشام وأراد العدوان على أرض مصر زاعمًا أنها كلها أرض عثمانية فرفض تشارلس جارفيس هذا الرأى وقال: إن أملاك الدولة العثمانية تنتهى شرقى سيناء، وأن خط الحدود يمتد من رفح إلى رأس النقب شرقى طابا، وجدير بالذكر أن الأطلس المصرى العام الوحيد الذى خصص خريطة قائمة بذاتها لسيناء، وعين فيها موقع طابا داخل حدود مصر بوضوح، هو الأطلس الذى عمله الدكتور صبحى عبد الحكيم وحرمه السيدة الأستاذة إجلال السباعى، وفى الصفحة الحادية والعشرين منه ترى خريطة سيناء وفيها بير طابة داخل حدود مصر، ولا غرابة فى ذلك فصبحى عبد الحكيم هو منشئ مدرسة الخرائط فى قسم الجغرافية بجامعة القاهرة.

وأعود إلى صاحبى أبى فصادة فأقول إن اعتزازه بنفسه يجعله يتخير لعشه أعلى ذروة من ذرا الشجر وقد صوروه فى عشه مع أليفته وقالوا إنه من أحرص الطير على عشه وبيضه وأولاده وإن أليفته إذا رقدت على البيض، اتخذ هو مكانه على غصن فوق العش ليحمى أسرته فإذا أحبت أليفته أن تطير لتأكل شيئًا، حط هو واتخذ مكانه على البيض ريثما تعود امرأته، وهو إذا حط فوق البيض ولم ينم قط وإنما هو يقظ أبدًا يتلفت فى كل اتجاه لأنه مخلوق يقظ القلب، فهو صاحب رسالة

وذيله الشاخص إلى السماء يؤكد لك يقظته وعزة نفسه وشعوره بدوره فى الوجود.

وأبو فصادة سعيد لأنه مخلوق له رسالة رفيعة يشعر بها، وعندما أتأمل الناس من حولى أجد فيهم الكثيرين جدًا ممن يجمعون المال الوفير، ولكنهم مع هذا غير سعداء لأنهم طلاب مال يكدسونه لا أصحاب رسالة فى الحياة يقومون بها، ولو كانت لهم رسالات لأحسوا بطعم السعادة ومن بين من عرفت من الأطباء طبيب رمدى مصرى لا تنظر فى عينيه إلا قرأت السعادة، وسر سعادته أنه طبيب له رسالة، ورسالته هى المحافظة للناس على نور العيون، وهو لا يسمع عن جهاز رمدى جديد إلا سافر إليه ودرسه واشتراه لينفع به مرضاه إذا رأى أن فيه خيرًا، وإلى جانبه أذكر طبيبة مصرية تعمل فى العلاج الطبيعى، وقد ملأت عيادتها بأجهزة زخرفية لا غرض لها إلا جمع المال، وعيادتها سبع غرف كل منها تؤتيها فى اليوم بمائة جنيه على الأقل، فهذه سبعمائة جنيه فى اليوم، ومع ذلك فهذه الدكتورة أبعد ما تكون عن السعادة فقلبها مثقل بالهموم وبيتها طافح بالخصام، وزوجها مبغض لها لا يراها إلا انقبض قلبه، ووجهها ملون منقوش، ورأسها مصبوغ بلون الذهب، ولكنها غير جميلة، ووجهها يحدثك بهمٍّ ثقيل، لأن المال لا يصنع السعادة، والصباغ لا يصنع الجمال، وكلما زاد صباغ وجه المرأة كان هذا أدل على خواء قلبها من الحب، وفراغ حياتها من السعادة والأمان والرخاء.

ومن بين الحيوان البرى دب صغير طريف الهيئة يسمى الباندا ملون (أبيض أسود) أو (بنى أسود) ومن طرائف خلقته أن أذنيه سوداوان ووجهه أبيض فيما عدا ما حول عينيه، فهناك دائرتان سوداوان أو بنيتان حول العينين تجعلان لهذا الدب الصغير شكل اللعبة، وهو بالفعل لعبة.. لعبة صينية إذ أنه لا يوجد بريًا إلا فى بعض جبال

الصين ومن مزايا الباندا أنه مترفع عن الخلق لا يكاد يحفل لمخلوق، وهو يعيش فى عالمه الموحش زاهدًا فى كل شىء بما فى ذلك الطعام والجنس، ويزعم الناس أنه أكسل مخلوقات الله، وأنه لكسله سينقرض لزهده فى الجنس، وأنت إذا رأيته فى حديقة الحيوان تعجبت من أمره فبينما تجد غيره من الحيوان يقبل على الناس ويتسول منهم الطعام كما نجد فى حالة قرود البابون وهى متسولة فعلاً، ولهذا فقد هان أمرها على أنفسها وعلى الناس والمخلوقات، أما الباندا فلا يفعل هذا قط بل يستلقى على ظهره ويجعل قدميه فى وجوه الناس زهدًا فيهم وترفعًا عليهم، وبسبب هذا الترفع عن الخلق تجد الناس أشد إقبالاً عليه منهم على غيره من الخيوان، وفى حديقة حيوانات لندن يعتبرون الباندا نجم الحديقة، والناس متزاحمون حوله أبدًا، والأطفال خاصة يفتنون به وحكومة الصين إذا أرادت أن تعبر عن مودتها لأمة من الأمم أهدتها زوجًا من الباندا، ونظرًا لزهد الباندا فى الجنس فهو يكاد ينقرض، وحكومة الصين قررت التوقف فى إهدائه حتى يتكاثر فى جباله، فقد عرف الناس أن زهد الباندا فى الحياة والبقاء ناتج عن نفوره من الجنس فى الأقفاص، فهو فى جباله بخير من مئات الألوف من السنين، إنه يعيش مع الحرية ويموت مع فقدانها ولو أطعموه أحب الطعام إليه، إنه مخلوق يتمسك بحقه فى الحرية، إنه لا يقبل على الحياة إلا إذا كان حرًا، وزهده فى الحياة مع الأسر تعبير عن تمسكه بحقه فى حريته ورفضه أن يكون لعبة أو فرجة، وهو من هنا يشبه أبا فصادة وكلاهما يذكرنى برجل من الخوارج اشتهر بالبسالة وقول الشعر الحماسى الجميل، وكان يستبسل فى حرب جيوش الحجاج بن يوسف الثقفى دفاعًا عما يؤمن به فوقع ذات مرة فى أسر الحجاج، وكان الحجاج معجبًا به، لأن الحجاج على عكس ما يظن الناس كان رجلاً يشعر أن له رسالة فى الحياة، ورسالته هى الدفاع عن الدول والنظام، وهو يدخل

فـى زمـرة طـراز مـن أهـل السياسـة يفرحـون بـالمخلصين للعـرش أو اللوباليستس The Loyal icts وكان يخدم خليفة ممتازًا هـو الوليد بـن عبد الملك، وكان الحجاج بن يوسـف يـرى أن طاعـة الوليـد واجبـة لأن الوليد فى طاعة الله وخدمة الإسلام، وليس من حق أى مواطن فى هـذه الحالة أن يخرج عليه أو يمنع عنه مال الجباية، ومن فعـل ذلـك فلابـد من عقابه، وكان بنو أمية فى أيامه قد فقدوا ولاء عامة المسلمين بإقدامـه على مقتل الحسين رضى الله عنه لأن آل البيت جميعا بيت كل مسلم، والعدوان على أمنهم عدون على كل مسلم، فما بالك بالحسين رضى الله عنه سبط الرسول الأكرم ﷺ، ولكن الحجاج كان رجـل الدولـة والنظـام ولا شأن له بما سوى ذلك، وهو من هذه الناحية رجل له رسـالة ومعظـم المسلمين لا يقرون الحجاج على هـذه الرسالة ويرونـه جبـارًا عنيـدًا بـل كافرا، ورأى الناس لم يكن يعنى الحجاج فى شىء مادام هو مؤمنًا بـها وفى حدود رسالته هذه يقوم الحجاج بواجب الحماية لكـل مسـلم يقـف مع النظام ومن دلائل اهتمام الحجاج بخدمـة الأمـة أنـه كـان مـن أكـثر الناس اهتمامًا بضبط المصحف ولـه فـى ذلـك يد بيضـاء، وكـان يرعـى المساجد، ويصل القراء فيها، وهو الذى أنشأ مدينة واسط وصحـح عيـار العملة. وكل ذلك داخل فى الخط الذى رسمه لنفسه فى الحياة.

ونعود إلى الخارجى فنقول إن الحجاج كان معجبًا بـه فأدخلـه علـى نفسه بعد أن فك قيوده تكريما له وقال:

- أما آن لك أن ترعوى عن غيك وتعود إلى طاعة الله؟

- إنما أنا فى طاعة الله منذ عقلت

- أردنا بك الخير ودعوناك إلى الدخول فى طاعة أمير المؤمنين وترك ما أنت فيه من المعصية.

- وكيف أطيع الله بطاعة الوليد وهو عاص الله ورسوله؟

- ويحك أيها الرجل هذا كلام يحل لى دمك.

- خير لى أن أموت بسيفك وأنا فى طاعة الله من أن أقتل نفسى وأموت كافرًا فى طاعة الآبق الوليد.

- لا خير فيك يأبى الله إلا أن أوردك مورد التلف.

- ليس شىء أحب إلى من أن ألقى الشهادة على يد عدو الله.

وقتله الحجاج، ومثل هذا الرجل يستحق منا الإعجاب حتى لو لم نكن نرى رأيه، فإنه رجل له مبدأ وإيمان، وهو مستعد للموت فى سبيل مبدئه، وهنا ونحن نقرأ أخبار أولئك الناس نشعر أن الحياة تسيرها فئة قليلة جدًا من الرجال ذوى المبادئ والإرادات والعزمات وأنه لا معنى للحياة إذا كان الواحد منا يستعمل ما أعطاه الله من سنوات العمر فى ابتزاز أموال الناس أو سرقتهم أو التسول وتضييع الكرامة، ومرحبا بالحياة إذا كان الإنسان سيعيشها على مبدأ أبى فصادة ولا كانت الحياة إذا كنت ستعيشها على مذهب القبرة.

وإذا نحن تأملنا التاريخ وجدنا أن الذين صنعوه حفنة قليلة جدًا من الناس ذوى الفكر والإرادة والجلد والطموح، وحتى بلد مثل بريطانيا قال المؤرخ ماكونى: إن الذين وضعوا أساس قوتها عشرة من الرجال من طراز أوليفر كروموييل، والمؤرخ الكبير بنديتو كروتشى قال: إن تاريخ أوروبا لا يمكن تصوره بدون ليونارددافيتشى، فقد عرف الناس على يديه قيمة العلم والفن والطموح إلى تحسين صورة الحياة على الأرض، والعلم والعمل الجاد والفن الطموح هى فى رأيه أسباب امتياز الرجل الأوروبى على غيره، ولولا طموح كريستوفر كولومبوس لما كشف الأوروبيون العالم الجديد بمجرد نهضتهم في إغماء العصور الوسطى، وكروتشى على حق فهانحن أولاء اليوم فى الدنيا نحو مائة وثمانين دولة، ولكن الدول التى يحسب لها حساب لا تزيد على عشر هى التى تملك العلم والمال والقوة

والفن وإرادة الحياة والقدرة على توجيه التاريخ، والباقى أتباع وحواش مهما كان رأيهم فى أنفسهم، ورجال مثل نابليون بونابرت يستحق المكانة التى يحتلها فى التاريخ مهما كان نقد الناس له فإن حروبه أحدثت زلزالاً فى أوروبا فأفاق كل أهلها وتحركوا إلى القوة المسيرة للتاريخ، وإذا كان قد أيقظ الأوربيين باستبداده وسيطرته وحروبه فقد تعلموا عندما قاموا فى وجهه كيف يرفضون الظلم ويقضون على الطغيان!

وعندما نعيد النظر فى حياة نابليون نرى بوضوح أن أهم عنصر من عناصر الحياة الناجحة هى أن تكون عندك إرادة النجاح والعزيمة على أن تقود أنت الحياة لا أن تقودك الحياة.

فعندما اختارته الإدارة (الديركتوار) لكى يقود الحملة الإيطالية فى سنة ١٧٩٥م كان ضابطًا صغيرًا مشاغبًا لا يرجى له مستقبل كبير كان فى السابعة والعشرين من عمره، وكان سجل خدمته حافلاً بالعقوبات، ولكنه كان قارئا عظيمًا لكتب الحرب والاستراتيجية وخصاة كتاب جان انطوان هنرى دى جيبرت وهو كتاب ينبه إلى أهمية المدفعية وكان نابليون ضابطًا فى المدفعية، وقد أحسن استخدامها فى المهام الأولى التى وكلت إليه وعندما رقاه أوجوستان روجسيير قائدًا للمدفعية فى جيش إيطاليا أحس أن فرصته تدنو، وعكف على قراءة الكتب المطولة عن إيطاليا وجغرافيتها وانعقد عزمه على أن يصل إلى القيادة العليا وعندما اختاروه قائدًا لجيش الداخل أدرك أنه يستطيع من مركزه هذا أن يسيطر على فرنسا فسعى حتى كسب ثقة باراس أحد كبار رجال حكومة الإدارة، وسارع بالانتفاع بهذه الفرصة فقام بانقلاب فندمير فى أكتوبر ١٧٩٥م ووصل إلى درجة جنرال.

وكان فى جيوش فرنسا إذا ذاك أكثر من أربعة آلاف ضابط ولكن نابليون فرض نفسه على الحكومة من دونهم ووصل إلى قيادة جيش

إيطاليا وهو لم يعتبر هذا التعيين فضلاً من الحكومة عليه بل اعتبر قبوله لهذه الوظيفة فضلاً منه على فرنسا وثورتها، وهو لم يقبل هذا التعيين ويركن إلى السكون وغشيان المجالس والحفلات فى باريس كما كان غيره من كبار الضباط يفعلون، بل أسرع إلى مركز قيادته فى سافونا، وكانوا قد قالوا له إن جيشه خمسة وأربعون ألف رجل فوجدهم ثلاثين ألفا ثيابهم مهلهلة وطعامهم سىء وخزانة الجيش خاوية..

وغالبية الجنود والضباط متمردون يتغيبون عن المعسكر معظم أيام الأسبوع، وبدلاً من أن يجلس إلى مكتبه يكتب الشكاوى إلى الحكومة المركزية أو يذهب إلى باريس ليتعجل المدد من الحكومة نراه يقبل على عمله بحماسة ويخطب جنوده قائلاً: أيها الجنود أنتم عراة جائعون ورواتبكم متأخرة إذا صدق عزمكم معى فستقع فى أيديكم ولايات غنية ومدن عظيمة وفيها ستجدون المجد والشرف والمال يا جنود إيطاليا هل تعوزكم الشجاعة أو صدق العزيمة؟ كلا.. إنكم أبطال شجعان سيروا معى وسترون أين تصلون!.

ثم أقبل على جيشه يدربه وينظمه ويعيده إلى النظام وأنفق نصف ما أعطوه من أموال فى صناعة مدافع جديدة وضع مواصفاتها بنفسه وصنعها على عينه وبعد أربعة أشهر كان جيشه أكثر جيوش فرنسا نظاما وفى ١٢ أبريل ١٧٩٦م سار بجيوشه فى أراضى إيطاليا وقد وضع بنفسه القواعد الأساسية للنصر وهى مباغته العدو فى كل حين والاعتماد الأساسى على المدفعية ثم إطلاق أيدى الجنود والضباط فى كل مدينة أو قرية يمرون بها وبهذه القواعد استمات جنوده فى القتال تحت رايته وتوالت انتصاراته وبعد أن اكتسح قوات الأعداء وكسب انتصارات مدوية دخل مدينة نيس دخول الظافرين وكانت أيدى جنوده، قد امتلأت بالأموال لأنه لم يحاسبهم على ما يغنمون وإنما كان يكتفى بمطالبتهم بأن يشتروا من مالهم ملابس أنيقة، ودخل جنوده نيس فى أبهى زى

عسكرى وأعظم نظام عرفته أوروبا وصار صيته فى العسكرية الفرنسية فتدافع الضباط والجنود راغبين فى العمل مع نابليون فوضع قواعد غاية فى الصرامة لجيشه، وأطاعها الضباط والجنود لأن هذا الرجل يقودهم فعلا إلى الغنى والمجد والجاه، وكان إلى جانب ذلك من أكرم القادة بالترقيات على العاملين معه من شجعان الضباط والجنود، وخلال هذه الحملة كون نابليون حفنة الضباط الأبطال الذين كسب بهم انتصاراته العظيمة فيما بعد، وعندما عاد من إيطاليا كان بالفعل بفضل إرادته ومهارته وانتصاراته نجم العسكرية الفرنسية الأول وعندما اقترح على حكومة الدير كتوار حرب إنجلترا بقطع طريق تجارتها فى مصر رحبوا بالموافقة ظنا منهم أن هذه فرصة يتخلصون بها من ذلك القائد المحبوب من ضباطه، الخطر على الحكومة وقبل أن يغادر باريس إلى طولون. على رأس جيش مصر فى يونيو ١٧٨٩م كان قد وضع كبار ضباطه فى مراكز القوة والإدارة فى باريس، وهؤلاء كانوا يكتبون له تقارير يومية عما يجرى فى باريس لكى يعرف متى يعود، وتنظيمه للحملة الفرنسية على النحو الذى نعرفه يدل حقًا على أن نابليون لم يكن مجرد ضابط ممتاز بل أمامنا هنا مفكر واسع الذهن بعيد النظر يعرف أن العلم أساس كل نجاح فى الحياة، هنا نفهم كيف فرض نابليون نفسه على التاريخ ووصل إلى ما وصل إليه. إنه لا ينتمى إلى جنس القبرات بل إلى جنس أبى فصادة.

وبعد هذا المثال الواضح التفاصيل من التاريخ الحديث التفت إلى مثال من تاريخنا من أمثلة الرجال الذين يصنعون التاريخ لأن لديهم عزيمة النجاح والقدرة على فرض أنفسهم على الحوادث. هذا المثال هو خالد بن الوليد بن المغيرة بطل الإسلام المشهور، ولقد قرأنا عشرات الكتب عن خالد دون أن نفهم من أحد منها سر امتيازه، وكيف وصل إلى المركز الذى جعله أعظم قائد عسكرى عرفناه فى تاريخنا، لقد قرأت

من شهور كتابًا ضخمًا عن خالد والمؤلف لا يذكر اسمه إلا أشفعه بلقب سيف الله وسيف رسوله، كأن خالدًا أصبح بطل الإسلام لأن الرسول صلوات الله عليه أعطاه هذا اللقب، ولم يسأل العلامة الجهبذ نفسه: كيف استحق خالد من رسول الله هذا التشريف الكبير؟

كان خالد بطبعه رجل إرادة وعزم لابد من ذلك وإلا ما وصل خالد إلى شيء، فإن الحوادث تصنع الرجال العاديين ولكن الأفذاذ يصنعون الحوادث ويقودون التاريخ. فإن خالدا عندما استقر رأيه على دخول الإسلام كان قد آمن إيمانا صادقا برسوله، لأنه نظر إليه بعين القائد فرأى من آلاء صدق الرسول وحسن قيادته لرجاله ما زاده إيمانا بالإسلام فدخله على عزيمة صادقة وإحساس بأن الإسلام هو المال الحقيقى الذى تتجلى فيه ملكاته، وكان رسول الله ﷺ فيصلاً فى معرفة أقدار الرجال، يرى الرجل أول ما يراه ويسمعه يتحدث فيعرف قدره، وقد سر بإسلام خالد ورحب به وعندما ندبه للاشتراك فى سرية مؤته كان يشعر أن هذا الجيش الذاهب لقتال الروم لابد سيحتاج إلى موهبة عسكرية من طراز خالد، وصدقت فطانة الرسول، واستطاع خالد بعد مقتل الأمراء الثلاثة: زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وجعفر بن أبى طالب أن يحول بين جيشه والتفرق، فضمهم إلى نفسه وخادع الروم، وتمكن من العودة بالجيش سالمًا لم ينقص إلا اليسير.

وعندما تولى خالد مهمته الأولى فى حروب الردة نجد أنفسنا أمام رجل ذى عزيمة وحزم وفلسفة خاصة فى قيادة الجيش، فهو فارس له قلب أسد، وقد قامت فلسفة خالد العسكرية على إيمانه الإسلامى العميق وتأثره العميق بشخصية الرسول ﷺ، وكانت القاعدة العسكرية الأولى التى سار عليها هى حسن ترتيب الجيش ثم الإسراع بمباغتته العدو بكل ما لديه من قوة، فلا يترك له فرصة للتفكير، فلا يتراءى الجيشان إلا دفع خالد كالسيل فزلزل العدو، والقاعدة الثانية هى إكرام

جنده وإعطاؤهم كل ما يعطيهم إياه الإسلام، وهو كثير فكان جنده يسيرون معه وهم واثقون من شيئين: من النصر فإن خالدًا رجل النصر ثم من الجزاء الأوفى فلا شيء يعجب الجندى أكثر من يقينه بأن قائده سخى اليد لا يؤثر نفسه بشيء وإنما يعرف حقوق المقاتلين.

والمثال الأكبر لذلك كله هو أن أبا بكر عندما استقر رأيه على أن يعهد لخالد فى قيادة جيوش المسلمين فى حرب فارس، مشتركاً فى ذلك مع عياض بن غَنْم كانت تعليمات أبى بكر تقتضى بأن يتجه خالد إلى العراق عن طريق الحيرة ويسير عياض عن طريق دومة الجندل، فأما خالد فقد مضى بمن معه كالسهم المارق لا يواجه العدو فى موقف إلا باغته ومزق جيشه قبل أن يفيق من ذهوله، وكان القادة فى ذاك العصر يتمهلون فى المسير والهجوم فما راع قادة الفرس إلا فارس على رأس فرسان الأسود لا يرون العدو حتى ينقضوا عليه على تعبئة تامة وخطة محكمة فلم ينقض لخالد عام فى الحرب إلا وقد دخل الحيرة واستقر الرعب فى قلب أعدائه، ومع خالد جنوده مستعدون لخوض النار معه مؤمنين بالنصر واثقين من حسن الجزاء، وبعد أن فتح خالد الحيرة وبدد قوات الأعداء يصله أمر من أبى بكر يطلب إليه أن يخفف لعون عياض بن غنم الذى عجز عن فتح دومة الجندل فأرسل خالد لعياض رسالة هى برقية ودليل عبقرية من خالد بن الوليد إلى عياض بن غنم بلغنى أمرك وأنا سائر إليك والسلام وما وصل خالد حتى بدد الأعداء وأطلق جيش عياض بن غَنْم وضمه إلى جيشه وقد تعلم عياض من خالد من دروس العسكرية ما جعله فيما بعد من أعظم قواد الإسلام.

□□□

لتكن فلسفتك فى الحياة فلسفة خالد ونابليون.. فلسفة رجل ذى إيمان وعلم وعزيمة على صنع نفسه أولاً.. ثم صنع التاريخ بعد ذلك، فلسفة رجل لا يدع غيره يصنع له حياته بل هو الذى يصنع حيوات

الناس، وأن أكبر سبب فى هبوط مستوى الشباب عندنا أننا نقضى على شخصياتهم ونتدخل فى حياتهم بنظام تعليمى أشبه بقواعد تربية الكتاكيت فى مزارع الدجاج، ففى مزارع الكتاكيت يتصرف فى مستقبلها عامل يقتل بإهماله وجهله سبعين فى المائة منها ولا ينجو منها إلا ثلاثون، وفى نظامنا التعليمى هناك التدريس السقيم وسوء إدارة المدارس والكتب التافهة والمدرسون المرهقون والأسئلة الواهية والتصحيح البالغ الرأفة، ثم مكتب التنسيق. والشباب لا يصنع نفسه بل يصنعه نظام هذا المكتب والطالب يمضى سنوات الدراسة وكأنه رغيف على خط الإنتاج فى مخبز آلى: ونادرا ما يخرج رغيف على هيئة رغيف يفتح النفس.

أريد منك أن تتمسك بأن تكون حياتك من صنع نفسك لا من صنع من حولك لأن الله خلقك ووهبك العزيمة وأهلّك لأن تكون ممن يصلحون الأرض والناس، أريد منك أن تكون على الأقل أبا فصادة، ومهما يبلغ الأمر فلا تكن قط قبرة لا تزال طول عمرها القصير تنبش التراب باحثة عن رزق ضئيل لأن الذى يجرى وراء الملاليم لا يصل أبدًا إلى الملايين.

(١٤)
حسابات التكيَّة*

كان لنا فيما مضى صديق كريم من أهل الأدب هو الدكتور محمد عبده عزام ، ندبوه بعد تخرجه موظفًا فى التكية المصرية فى جدة ، فكتب عن تجربته فى عالم النوم والأكل والكسل كتابًا طريفًا حافلاً بالفكاهة يسمى «شيخ التكية». وقد أمتعنى كتابه هذا ، وشوقنى إلى زيارة تلك التكية ، فلما حججت أول مرة سنة ١٩٣٨م لبثت بعد الحج أسابيع أزور معالم مكة وجدة وأتطلب أخبار هذه التكية ، وزرت آخر شيوخها فى بيته ، وكان زكيبة أو شوالاً شركسيًا ذا جثة هائلة وشوارب عظيمة ، ولكنه كان أنيسا لطيفًا صاحب دعابة ، وقد أطرفنى الرجل بأحاديث ممتعة عن تاريخ هذه التكية وأسلوب الحياة فيها..

وقد حكى لى أنه أتاه ذات مرة من مصر مفتش مالى أرسلته وزارة الأوقاف المصرية ليراجع حسابات التكية ، وكان هذا شيئًا جديدًا فلم يسبق أن أرسلت الحكومة المصرية مفتشًا من هذا النوع ، فلما دخل المفتش وجد هذا الشيخ مسترخيًا على أريكته فى الحديقة متكئًا على الوسائد وكان عمله ينحصر فى متناول الوجبات الفخمة الرسمية والاتكاء على الأرائك طول النهار..

ولم يسمع الشيخ تحية المفتش عندما دخل لأن رأسه الضخم وعمامته الفخمة كانا مائلين على صدره ، وقد استقرت العمامة الفخيمة على كرشه فى نعاس لطيف ، وقد استاء المفتش لقلة الاحتفال به فجلس على كرسى قريبًا من الأريكة وطلب إلى خادم أن يوقظ الشيخ فقال الخادم :

---

* نشرت هذه المقالة فى ٩ يونيو ١٩٨٥م .

– لا يجرؤ أحد على إقلاق راحة الشيخ أثناء تأدية عمله.

– يا أخى إنه لا يعمل شيئًا إنه نعسان.

قال الخادم: هذا يا سيدى هو جانب من عمله الرسمى لا تنسى يا سيدى أننا فى تكية.

– وما بقية عمله ؟

– تناول الوجبات فى أوقاتها وأداء الصلوات عند دخولها..

وعلى هذا الحديث أفاق الشيخ ، فرفع عمامته الهائلة ومعها رأسه ، وطلب من الخادم ماء ، فناوله قلة ، صب فى حلقه نصفها ثم تلمظ وتمزمز ومسح شاربه ولحيته ، ونظر إلى المفتش نصف نائم وقال:

– من هذا يا ولد يا فراش جلبى ازميرلى ؟

فقال له الخادم: هذا مفتش حسابات وفد ليلة أمس قادمًا من القاهرة فأطال الشيخ النظر إلى المفتش ، ثم أشار إلى الفراش فأقبل ورفع عمامة الشيخ ليهتوى رأسه وليهرشه بعض الشىء ، ثم وضع الفراش العمامة مقلوبة على الأريكة إلى جوار الشيخ. وقال الشيخ..

– مفتش حسابات ؟ وماذا يريد منا ؟

– فقال المفتش : معذرة يا شيخ مصطفى زاده مغلطاى أفندى : أنا واحد من وزارة الأوقاف فى القاهرة لكى أراجع حسابات التكية..

– وما لوزارة الأوقاف وما لنا ؟ وهل لنا نحن حسابات تراجع ؟

– يا شيخ مصطفى زاده مغلطاى أفندى إنكم تتسلمون اعتمادات مالية كل عام.. وهذه الأموال لابد أن لها حسابات ، وأريد إذا سمحت أن آخذ فكرة عما تعملون هنا إلى جانب الانجعاص على الآرائك..

فطلب الشيخ القلة وأفرغ فى جوفه نصفها الباقى ، وناولهـا للفراش والفراش أخذها وأخرج منديلاً محلاويًا مسح به شـارب الشيخ ولحيته وقال الشيخ :

– يا حضرة مندوب وزارة الأوقـاف أفنـدى هـذه تكيـة والتكيـة هـى المكان الذى يجلس الناس فيه مكتئبين علـى الآرائك ، ومـن هنـا جـاء اسمها ، وأنا عندما أجلس على أريكتى على الوسـائد إنمـا أقـوم بمـهام وظيفتى بالتمام والكمال ، ففى المصنع أنت تصنع ، وفى المزرعـة أنـت تزرع ، وفى التكية أنت تتكئ..

– مفهوم يا أخى الشيخ مصطفى زاده مغلطاى أفندى ، ولكنى أحب أن تكلف خاطرك وتحرك جثتك الشريفة وتـأتى معـى إلى مكتبك لكـى تراجع الحسابات..

– مكتب وحسابات يا سيدى ما اسم حضرتك ؟.

– محسوبك عبد المعبود عبد الدايم الديروطى وكيل حسابات بـوزارة الأوقاف..

– اسمع يا حضرة عبد المعبود عبد الدايم الدشطوطى أفندى.

– الديروطى ياشيخ مصطفى زاده مغلطاى أفندى.

– يا أخى اسمك معقد.. سأسميك على أفندى ، فـهذا اسـم خفيـف لطيف ومبارك أيضًا فهو اسم مولانا الإمام الأكبر كرم الله وجهه. يا على أفندى لا يمكن أن تكون للتكية حسابات أو دفاتر ، فنحـن هنـا نعيـش بالبركة ، نتسلم الاعتمـادات ونضعـها فـى الخزانـة وننفـق منـها شـيئا فشيئا بلا دفاتر أو أوراق..

– هذه التكية تابعة لوزارة أوقافنا ، وهى التى تقـدم لهـا الأمـوال ، فكيف لا يقدم لها حساب مضبوط عن كـل مليـم يصـرف منـها ، نحـن

يا سيد شيخ مصطفى زاده مغلطاى أفندى حكومة ، حكومة ذات إدارة وحسابات وضبط وربط..

فحك الشيخ مصطفى مغلطاى زاده أفندى رأسه الأصلع صلعًا تامًا وقال:

- يا جناب على أفندى مفتش حسابات: أنتم حكومة ونحن تكية ، وعندى هنا ستون تنبلاً مستوفون لكل شروط التنبلة ، وكل منهم دخل التكية بتوصية خاقانية من استانبول أو ملوكية من مصر ، والعمل المطلوب منهم هو القيام بالعبادات بكل قواعدها وشروطها والنوم متى شاءوا والأكل حتى يشبعوا ثلاث مرات فى اليوم ولهم بحكم قانون التكية أن يأكلوا عثمانلى أو مصرلى..

- ربما ، ولكن هذا أيضًا يمكن أن يعمل له حساب.

- يا مفتش أفندى كيف تطالبنى بأن أعمل للتنبلة حسابات ؟

- أنا أفهم أنك لا تستطيع عمل حساب التنبلة فأنتم لا تشترونها بل تصنعونها محليًا ، ولكنك تستطيع أن تعمل حسابات الأكل..

- هذا غير ممكن يا مفتش أفندى لأن قانون التكية يقول إن من حق كل تنبل أن يأكل ما يشاء عثمانلى أو مصرلى بلا حساب ، خذ عندك تنبل مراد سنجق أغا باشا النائم على الأريكة أمامك تحت الشجرة هذا أصله من وراء مولانا حارس الحرمين وخاقان البرين وسلطان البرين مولانا غازى أمير المؤمنين عبد المجيد خان ، وغضب عليه مولانا وحكم عليه بالموت بالخازوق ، ثم تشفعت فيه والدة باشا ، وأرسلته إلى هذه التكية الشريفة ليقضى بقية عمره فيها ، وقالت إنه لا يجوز قتله بعد أن خدم الدولة وأنجب لها عشرين ولدًا ، عشرة منهم رجال وعشر نساء ، وتسليته الوحيدة هنا هى الطعام ، لقد تغدى اليوم بنصف قوزى مشوى ومحشو باللوز والزبيب والأرز ، ولو أراد أن يأكل

القوزى كله لتركناه له احترامًا لتنبلته ، أولاً ، ثم لأنه تنبل وزير سابق سلطانى ثانيًا ، ووظيفته الأساسية بعد الصلاة هى الأكل ، وهو يقوم بهذه الوظيفة على خير ما يرام، والدليل على ذلك أنه بعد أن أكل نصف القوزى بكل جد واجتهاد ختم غداءه بأربعة طواجن أرز باللبن فى الفرن ، ولو طلب خمسة أو عشرة فلابد أن نقدمها له وإلا اتهمونا بأننا نحول بين موظف مجتهد وآداء مهام وظيفته ، فكيف أعمل حسابا لطعام ستين تنبلا مثل مراد أغا سنجق باشا؟..

– إذن فلا سبيل إلى عمل حسابات لتكيتكم هذه ؟

– وبعدين معك يا مفتش أفندى ؟ أقول لك هذا ثور ، فتقول لى أحلبه . نحن هنا تكية والتكية تأخذ بغير حساب وتعطى بغير حساب ، والتنابلة يأخذون ولا يعطون ، وأنا يا سيدى لا أستطيع تغيير هذا النظام ، وإلا قام علىَّ التنابلة واتهمونى بالتآمر على النظام القائم..

– ليس أمامى إلا أن أرفع فيك تقريرًا إلى الوزارة وأطلب إحالتك إلى التحقيق

– لا تستطيع يا مفتش أفندى.

– ولماذا لا أستطيع ؟ ألست موظفًا فى الحكومة ؟

– بلى أنا موظف ، ولكنى غير قابل للعزل.

– سبحان الله ! وهل على رأسك ريشة.

– تحشم يا ولد مفتش أنا رأسى ليس عليها ريشة ولا شيشة ، ولا حتى شعره ، إننى أتولى وظيفتى هذه تنفيذا لوصية مؤسس التكية مولانا خادم الحرمين وسلطان البحرين وحامى البرين غازى خاقان أمير المؤمنين سليم أول يا ووظ فاتح مصر والشام ومنشئ هذه التكية وواقف أوقافها..

– تريد أن تقول إنك معين من قبل السلطان سليم.

– تحشم يا ولد مفتش غبى وأذكر السلطان بكل ألقابه. يا حمار مفتش أنا حفيد حفيد حفيد صدر أعظم كوكبرى مغلطاى خادم مولانا الخاقان أمير المؤمنين غازى سليم أول ياووظ ، وابنه سلطان خاقان سليمان قانونى. أعطى جدى لقب سنجق تكية جده وأوقف هذه الوظيفة على جدى وأولاده وأحفاده ، فأوقاف هذه التكية ملكى بفرمان خاقانى..

– يا شيخ زاده مغلطاى لقد مضت أيام مولاك خاقان غازى سليم ياووظ وابنه سليمان قانونى..

– غلطان يا ولد مفتش لأن سلطان وخليفة عثمانلى تنازل عن التكية لجلالة مولانا ملك مصر فؤاد أول حفظه الله ، ولكى تعزلنى فلابد أن تعزل جلالته أولاً.. وإذا أردت عزل جلالته طار رأسك ، هذا نظام وقانون يا ولد مفتش حمار ، ونحن سنتركك تنام ، وتأكل فى التكية احتراما لمولانا جلالة الملك الآن امش من أمامى ، فقد حان موعد صلاة العصر ولابد أن أتوضأ.. يا ولد فراش هات الطشت والصناوور..

وحمد المفتش الله على أنهم لم يطردوه من التكية ، وقال فى نفسه: ملعون أبو الحسابات والميزانية سأظل فى هذه التكية وأتمتع بالقوازى والدواجن والطواجن والمهلبيات والحلويات حتى يجىء موسم الحج فأقوم بالفريضة ثم أعود إلى مصر..

ودخل غرفته وصلى العصر ثم جلس ينظر فى أوراق وجدها على ترابيزة، ومن بينها وجد شهادة وفاة تنبل يسمى بايزيد أفندى أرندلى أغا توفى من شهرين فأسرع بها إلى شيخ التكية فأيقظه فى رفق وقال..

– يا شيخ شيوخ التكايا وصاحب الكرم والعطايا مولاى مصطفى زادة مغلطاى باشا هل عينتم تنبلاً مكان المرحوم بازيد أفندى أرندلى أغا ألف رحمة من الله..

- ليس بعد ولكن إذا أردت نظرت فى تعيينك تنبلاً تحت التمرين لأنك يا مفتش عبد المعبود البطوطى..

- الديروطى يا أفندم.

- ديروطى بطوطى دشطوطى ، كله زفت ، وأنت تنفع كاتب خصوصى لجنابنا لتعمل حسابات أملاكنا الخاصة ، فالمصريون مشهورون بأنهم كتبة شطار ، وتحول المفتش إلى خادم تنبل ، ودل بذلك على أنه رجل ذكى ، والتكية المصرية فى جدة أنشئت سنة ٩٢٤ هجرى ، أما التكية المصرية فى مصر فقد أنشئت فى ذى القعدة ١٣٧٢ هجرى ، وذو القعدة ١٣٧٢ هجرى يقابل يوليو ١٩٥٢م ميلادى المبارك..

وثورة ذى القعدة ١٣٧٢ هجرى وضعت القوانين الإصلاحية الأساسية للتكية المصرية ، وأزالت بالشرعية الثورية كل علاقة بين العمل والأجر ، والحق والواجب ، وكانت هى الخطوة الأولى لتحويل مصر إلى تكية دولية. وثورة ذى القعدة صاحبة الفضل فى قانون الإصلاح الزراعى الذى ليس بقانون ولا إصلاح زراعى ، لأن الذين صاغوا هذا القانون كانوا على شىء من العلم ، وفى المذكرات التى كتبوها والدراسات التى خلفوها لنا تحس أنهم كانوا على فهم لا بأس به بمعنى الإصلاح الزراعى ، ولكن المصيبة جاءت من الذين طبقوه، وكانوا جميعا أبعد ما يكونون عن العلم بالزراعة أو الصناعة أو أى شأن من شئون الإدارة السليمة، وكانت تسيرهم خصائص كثيرة، الأولى هى الغرور، وإدعاء أنهم يعرفون كل شىء وأنهم هم وحدهم الوطنيون المخلصون الواعون والباقى غنم. والنزعة أو الخاصية الثانية جهل شامل عميق، وإذا أنت درست أحوال مؤسسى التكية لتبينت أن اثنين منهم فقط قرآ كتابًا وعرفا لغات. أما البقية فمستوى نجاحهم فى الثانوية العامة لا يتعدى درجة جيد، أما الدراسة العليا فلم تزد بالنسبة لغالبيتهم على سنتين،

وبعضهم تخرج بعد أقل من سنة، وبهذه الحصيلة من العلم فرضوا أنفسهم على البلد، وزعموا لأنفسهم أنهم قادرون على حل مشاكلها جميعا. والنهوض بها، وألغوا وجود أهل العلم والفهم والتخصص واحتقروهم، ومن هنا فقد زادوا الأحوال سوءا، وأضافوا إلى أدوائنا القديمة أدواء جديدة. والخاصية الثالثة حقد شديد على كل متعلم أو صاحب مال، بل على البيوت الطيبة الكريمة وأبنائها، وأذكر أننا كنا ذات يوم فى الأردن فى زيارة ودية، ودعونا إلى وليمة عربية أردنية تسمى المنسف يضعون فيها الطعام - وهو ثريد بأرز كثير ولحم كثير فى آنية كبيرة كالطشوت على الأرض ويقعدون على الأرض ويأكلون بالأيدى وأصحابنا فى الأردن مهرة فى الأكل بهذه الطريقة. وجلسنا ودار الأكل، وتحيرت فى أمرى كيف آخذ الثريد بيدى وأرفعه إلى فمى دون أن «أزروط» ثيابى، فقررت أن أتظاهر بالأكل ولا آكل حفاظًا على ثيابى، ومن بعيد أسمع السيد كمال الدين حسين يقول: مش عاوز شغل أولاد الذوات، ده يا سى حسين! وبعد الطعام قلت له: أى ذوات تعنيهم يا سيدى الوزير؟ إن والدى خرج على المعاش بثلاثة وعشرين جنيها بعد خدمة خمس وثلاثين سنة صيدليا فى الحكومة، وعندما فرغت من الدراسة الثانوية وأردت دخول الجامعة قلت لأبى: لا عليك من نفقة تعليمى فسأقوم أنا بها، وكفاك ما فعلت من أجلى. وعملت ودرست وأتممت تعليمى فأين أنا يا سيدى من الذوات؟ والخاصية الرابعة هى النهم إلى السلطان والاستبداد بالأمر كله ، وإلغاء وجود الشعب مع النفاق الأسود والتمدح بالشعب والديموقراطية فى الخطب من على المنابر.

ومن هنا فسد كل شىء فى أيديهم ، حتى السد العالى ، وهو مفخرتهم الكبرى - ضيعوا جانبًا كبيرًا من الفائدة منه باضطهادهم لكل مواطن ذى علم جرؤ على أن يدلى برأى أو يوجه انتقادًا للمشروع

الروسى ، ولا غرابة إذن فى أن الروس قالوا لنا إن السد سيعطينا قدرًا هائلاً من الكهرباء يغطى كل احتياجات مصر ووجدنا فى النهاية أن الذى طلعنا به منه لا يزيد على خمس ما قالوا ، ونحن من عشرين سنة نحاول إصلاح عيوب السد.

والإصلاح الزراعى معناه إصلاح الريف كله أى الارتفاع بالمستوى الاجتماعى والثقافى والعلمى للفلاحين ، والقضاء على القرية الفقيرة الكابية، وإنشاء قرى جميلة حديثة مكانها ، وإصلاح نظام الرى وأساليب علاج الأرض علاجًا علميًا واقتصاديًا ، وإدخال الزراعة العلمية الاقتصادية، وإصلاح الطرق والمواصلات فى الريف بعبارة واحدة. تحويل الريف إلى مجتمع تقدمى منتج اقتصاديًا ، فما الذى فهمه أصحابنا من الإصلاح الزراعى؟ فهموه على أنه انتزاع الأراضى من أصحابها القدامى على اعتبار أنهم كلهم لصوص ، ولم يخطر ببالهم أنه من الممكن أن يوجد مالك أرض أمين شريف. فكل الأغنياء والمياسير فى نظرهم لصوص. أخذوا الأرض من أصحابها واتهموهم جميعا بأنهم إقطاعيون ظالمون ولصوص غاشمون يضربون الفلاحين بالكرباج وينهبون أموالهم ويرغمونهم على بيع مواشيهم لسداد الإيجارات الباهظة ، وهذا كله غير صحيح ، ثم فتتوا الأرض قطعًا صغيرة ووزعوها على الفلاحين ، فتلاشت إلى يومنا هذا الزراعة الاقتصادية من مصر ، لأن المكسب من الزراعة لا يأتى إلا من المزارع الكبيرة التى يستطيع أصحابها تولى القطن والكتان والبصل والفاكهة والخضر والإنفاق عليها ، والفلاح الصغير لا يستطيع تربية الماشية التى تدر اللبن الوفير الذى تقوم عليه صناعات الزبد والجبن والألبان التى يمكن أن تكون مصدر ثروة للبلد.

وأحسن البلاد تطبيقًا للإصلاح الزراعى هى البلاد الرأسمالية ، وروسيا نفسها التى وقعت فى مصيبة مصادرة الأراضى تحولت من بلد غنى زراعيًا ومصدر للطعام فى عصر القياصرة تحولت بعد الثورة

الشيوعية إلى بلد يستورد الطعام ، ولازالت الزراعة وإنتاج الطعام نقطة الضعف الكبرى فى النظام الروسى. أما الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وهولندا وبلجيكا والدانمرك وإيطاليا - وكلها بلاد رأسمالية - فهى بلاد الإنتاج الغذائى الوفير الاقتصادى. إنها بلاد الإصلاح الزراعى على أصوله.

وعندما انتقلت الحكومة فى أسبانيا من الرأسمالية المطلقة التى كانت سائدة أيام الخنراليسيمو فرانكو إلى الاشتراكية فى أيام فيليبى جونتالت ماركس «رئيس وزراء أسبانيا اليوم» نادى النواب الاشتراكيون بمصادرة أراضى كبار الملاك الزراعيين ، وتوزيعها على صغار الفلاحين فتافيت ، ولكن فيليبى جونتالت - بعد التفاهم مع الاشتراكية الدولية ، وخاصة رئيسها فيلى برانت - رفض ذلك وقال: ندع الأراضى فى أيدى أصحابها، ونكلفهم بتنفيذ الإصلاح الزراعى والنهوض بالقرى والفلاحين لأن المالك الغنى هو القادر على القيام بمطالب الزراعة الاقتصادية ومحاصيل الاستهلاك والتصدير.

واذهب الآن إلى الريف الأسبانى وتأمل ازدهار القرى ورضاءها وتحولها إلى مدن صغيرة ، بل منتجعات سياحية: تبهر العين بحسن روائها ، وأسبانيا اليوم ثانية البلاد الأوروبية فى الإنتاج الزراعى بعد فرنسا ، وخاصة المـوالح والزيتون وزيت الزيتون والخضر والفواكه ، وأسبانيا ثانية بلاد أوروبا إنتاجًا للقمح بعد الأوكرايين فى روسيا. وأمريكا تطعم نصف الدنيا ، وسويسرا وبلاد الشمال الأوروبى وفرنسا تنتج من صناعات الألبان ما يزيد على حاجة الدنيا ، وفى السوق الأوربية يتحدثون عن مشكلة جبل الزبد الذى لا يدرون كيف يتصرفون فيه.

أما عندنا فقد أخذ الفلاح الصغير الفدادين الخمسة التى أعطوه إياها وزرعها وأكل كل محصولها وتزوج امرأة أخرى وضاعف إنتاجه من

الأولاد وعندما مات توزعت الأرض إلى فتافيت في أيدى أولاده ، ولم يعد واحد منهم بقادر على إطعام نفسه من أرضه ، واشتكى الفقر والحاجة وتحسر على أيام الإقطاع وتقدمت الحكومة لتعيينه فاتكل على الطعام المدعوم وأهمل الزراعة ، بل تاجر في الأرض وتحول إلى سمسار عقارات ، وجلس في المقهى يشرب الشيشة ويتفرج على الماتش ، وأدخل التليفزيون بل الفيديو في بيته بكلمة واحدة تحول إلى تنبل. والتكية المصرية اتسعت حتى شملت مصر كلها ومن مآسى حياتنا اليوم أننا نستورد طعامًا بألفي مليون دولارًا ، ونستورد سبعين في المائة من طعامنا ولا ننتج إلا ثلاثين في المائة. كلنا أصبحنا نتكلم لغة تنبل باشا مصطفى زاده مغلطاى.

وفى ذات مرة ركبت قطارًا من فرانكفورت في ألمانيا إلى أمستردام في هولندا. وفى عربة القطار أجد وفدًا مصريًا فخمًا من تسعة من كباتن التموين والتخطيط والزراعة والتجارة أتوا من مصر وفدًا للتفاوض على قروض ومنح طعام من أوروبا ، وأجدهم يا مولاى متأنقين متصيفين: في أيديهم ساعات الذهب وأقلام حبر الذهب في صدورهم ، وفهمت بداهة أن حقائبهم حافلة بالهدايا والمصاغ لمقاصيف الرقبة أولادهم ونسوانهم. ولم أسائل نفسى من أين أتى وفد التسول هذا بكل هذا المصاغ والهدايا ، فإن القانون المالى يقول إن الموظف المسافر في مهمة إذا نزل ضيفا على البلد الذاهب إليه فليس له إلا نصف بدل السفر ، ولكن أصحابنا كذبوا على الدول وأخذوا بدل السفر كله ، واختلسوا إلى جانب ذلك كم ألفا من الدولارات ، زعموا أنها بدل تمثيل للوفد لعله يقيم حفلات أو استقبالات، وضربوا الفلوس في جيوبهم ، ولم يقيموا حفلة أو وليمة ، وهذا طبيعى ، لأنهم بطبيعة مهمتهم متسولون ، تنابلة متسولون ، وهل رأيت في حياتك متسولاً يقيم وليمة ؟

واسمع الألمانى دليل الوفد يسأل رئيسه الدكتور تنبل أغا طامرطاش:

– ولكن يا سيدى كلنا عرف أن مصر بلد زراعــى ، فلماذا لا يوجـد عندكم زبد؟ أليس عندكم بقر؟

ويقول السيد الدكتور تنبل أغا فرطاش: طبعًا ما سـيدى عندنـا بقـر. ولكنه لا يكفى.. والجواب الصحيح.

– طبعًا يا سيدى عندنا بقر كثير ، ولكنه يقر ذكر لا ينتج اللبن. إنه بقر يحمل الدكتوراه ويجلس على المكاتب ويكتب التقارير ، وكل تقرير منها يخرب بلدًا.

إنه بقر تربية إصلاحنا الزراعى المبارك.

□□□

ومن أعجب القواعد التى تقوم عليها التكية المصرية هى إلغاء العلاقة بين العمل والأجر . ونحن فيما أحسب البلـد الوحيـد فـى الدنيـا الـذى وضع لنفسه قواعد شاذة غير منطقية فى الحيـاة والعمـل. فـالمصرى هـو المواطن الوحيد فى الدنيا الذى له حقوق وليس عليه واجبـات. وكليـات القانون فى جامعاتنا تسمى كليات الحقوق لأن المفـروض أن المصـرى لـه حقوق وليس عليه واجبات. والذين أنشئوا التكية المصرية أفهموا النـاس أن إدارة التكية ستعطيهم وتكسوهم وتلبسهم وتعلمــهم وتزوجـهم كمـان. وأن واجبهم الوحيد هو النــوم ، وعـدم التفكـير فـى شئون بلادهـم وإلا كانوا متأخرين على النظام وأعداء الثورة.

الأريـاف – كمـا قلنـا أخـذوا الأرض مـن أصحابـها ووزعوهــا علــى الفلاحين، ولم يطالبوهم بإنتاج ، فكـان الخـراب الزراعـى. وفـى المدن أنزلوا إيجارات المساكن العقار مرة بعــد أخـرى ووضعـوا قوانـين تجعـل المؤجر هو صاحب العقار ، أما صاحب العقار فالمفروض – دون بحث أو مناقشة – أنه لص ابن كلــب. فـالمؤجر يـورث العقـار لأفـراد أسـرته إلى

الدرجة الرابعة ، وورثته يورثونها لأفراد أسرهم إلى الدرجة الرابعة ، وهكذا حتى يتحول العقار إلى تراب أو خرابة ، ومع ذلك فإن القانون يلزم صاحب البيت بصيانته ، والعناية به ، بل على المالك أن يصون المصعد ، والساكن يدفع ملاليم وأفراد أسرته عشرة منهم خمسة أولاد على الأقل كالعفاريت ، وهم طول النهار طالعون بالمصعد ونازلون بالمصعد ، وست هانم وزنها طن ، وهى ترسل الشغالة إلى السوق لشراء ليمونة أو ورقة ملح والشغالة تنزل بالمصعد وتطلع بالمصعد ، وإذا تعطل المصعد فإصلاحه على المالك الذى يمنعه بعض السكان من الصعود على رجليه ، ومن هنا فإن العامل الذى أصبح يكسب ثلاثين جنيها فصاعدًا فى اليوم يسكن شقة إيجارها ثلاثة جنيهات ، ويشترى البطيخة بخمسة جنيهات ، ويعمر مزاجه بعشرين جنيها فى اليوم وإذا اتفقت معه على عمل يحتاج إلى يومين ويكلف جنيهين أخذ منك مائتين ، ولم ينجز العمل بعد شهرين ، إنه ليس تنبل باشا فقط بل هو السلطان تنبل، ثم يشكون من أزمة المساكن ويحتجون على أصحاب الأملاك الذين يطالبون بثلاثة أرباع تكاليف البناء خلو رجل، وأين والله المجنون الذى يبنى بيتًا تتكلف الشقة فيه ثلاثين ألف جنيه ثم يؤجرها دون خلو رجل لساكن يدفع خمسة وعشرين جنيها فى الشهر ولا يكاد يستقر فيها حتى يرفع قضية على المالك ويطالب بتخفيض الإيجار إلى النصف أو الثلث والمحكمة تعطيه الحق ، وهو إذا دخل الشقة فلن يخرج منها هو وأولاده وأحفاده من بعده إلى أن يتحول البيت إلى تراب أو تقوم الساعة أيهما أسبق ! !

لا علاقة بين الحق والواجب أو العمل والأجر فالمصنع يخسر ، ولكن العامل يتقاضى الأجر والحوافز والمنح والزيادات وصاحب العقار يبنى ويكلف ويسلم المبنى لمؤجر يصبح من لحظة دخوله المسكن صاحب ملك ، والفلاح لا يزرع ولا ينتج حتى طعامه ، والحكومة ترسل له

الخبز والبيض واللحم والدواجــن لكــى تتــأكد مـن أنـه تحــول إلى تنبـل أصيل.

تلك يا سيدى هى قواعد التكية المصرية ، وهى كما ترى أعجب مـن منطق صاحبنا تنبل باشا مصطفى زاده مغلطاى ، وصاحبــه سنجق أغـا طامر طاش ، وصاحبنا عبد المعبود عبــد الدايــم الديروطــى المفتــش المـالى الذى تحول إلى تنبل مساعد أغا ديروطلى أفندى.

الفهـــرس

رقم الإيداع	١٩٩٩/٤٧٨٣	
الترقيم الدولى	977-02-5787-7	ISBN

١/٩٨/٣٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

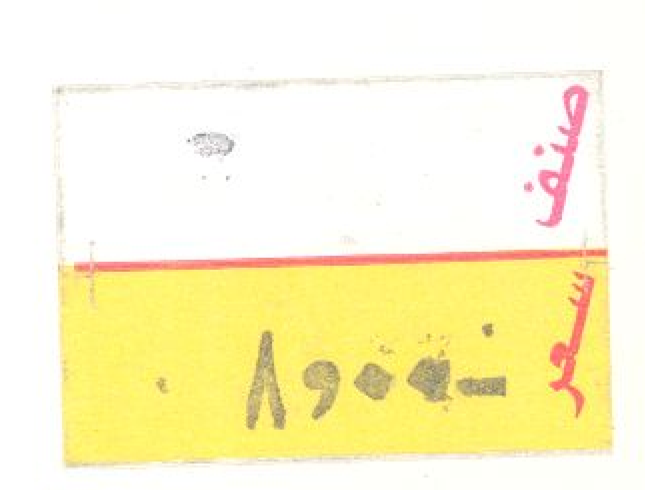
صور من الحياة المصرية

إن شخصية الدكتور حسين مؤنس كباحث وأستاذ.. تختلف عن شخصيته ككاتب مقال سياسى أو اجتماعى. فهو بالشخصية الأولى عالم مدقق منقطع الصلة بالحاضر تقريبًا.. وهو بالشخصية الثانية مفكر وناقد وأديب غارق فى هموم المجتمع ومعايش للناس العاديين فى الحارة والقرية والمدينة. ويجعل قلمه صوتا للحق. لا يحيد ولا يجامل ولا ينافق.

وفى مناخ الحرية الذى تحقق للصحافة المصرية أطلق الدكتور حسين مؤنس لقلمه العنان وأصبح بذلك نموذجًا للكاتب الذى لا يخشى شيئًا ولا يتردد فى قول الكلمة والتعبير عن رأيه.



دار المعارف



٠٣٥٠٠٨/٠١

